

إله الصدفة

أغسطس 2013

رواية

396

تأليف: كريستن تورب

ترجمة: أ. دنى غالي

مراجعة: أ. عواطف جون ضاحي

إله الصدفة

رواية

تأليف: كريستن توروب

ترجمة: أ. دنى غالي

مراجعة: أ. عواطف جون ضاحي

• إله الصدفة
رواية

العنوان الأصلي:

Tilfældets Gud

By: Kirsten Thorup 2011

© Kirsten Thorup & Gyldendal, Copenhagen 2011.

Published in agreement with Gyldendal Group Agency

الطبعة الأولى - الكويت

المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 2013م

إبداعات عالمية - العدد 396

صدر العدد الأول في أكتوبر 1969م

تحت اسم سلسلة من المسرح العالمي

أسسها أحمد مشاري العدوان

(1923 - 1990)

الفهرس

5	مقدمة المترجمة
11	الظلمة هناك
117	تبعات مارياما
197	خيال

مقدمة

تحتل الكاتبة كيرستن توروب مكانة خاصة في تاريخ الأدب الدنماركي لتمييز نتاجها وتنوعه أيضا بين الشعر والمسرح والفيلم والأعمال التلفزيونية. بدأ مشوارها الأدبي في العام ١٩٦٧ بكتابة الشعر، حيث أصدرت ثلاثة دواوين ومجموعة قصصية قبل أن تصدر روايتها الأولى «بيبي» في العام ١٩٧٣. توالى بعدها إصدارها العديد من الروايات التي تجلت عبرها مقدرتها وهواها لهذا العالم على الأخص، فصدرت «جوانا» ١٩٧٧، «الصيف الطويل» ١٩٧٩، «جنة وجحيم» ١٩٨٢، «الحدود القصوى» ١٩٨٧، «حبيبي المجهول» ١٩٩٤، «بونساي» ٢٠٠٠، «الأرض الحرام» ٢٠٠٣، «زمن ما قبل الحرب» ٢٠٠٧ وأخيرا «إله الصدفة» عام ٢٠١١.

حصلت على منحة التفرغ مدى الحياة للكتابة الإبداعية من الدولة وقد حازت العديد من الجوائز التقديرية وتمت ترجمة أعمالها إلى العديد من اللغات في العالم.

عرف عنها كونها كاتبة غير معنية بما تؤثره الساحة الثقافية والسوق، مخلصه دوما في كتاباتها لما تؤمن به. تدخل في جدالات سياسية وتدلي برأيها بوضوح ومباشرة ومن دون تردد، وإن لم تكن منتمية إلى حزب أو منظمة. يتضح الحس الإنساني العالي لديها من خلال ما تكتبه من مقالات وتشارك فيه من نشاطات، سواء كانت أدبية أو سياسية أو حتى اجتماعية.

كانت من ضمن المؤسسين لجمعية الصداقة الدنماركية الفلسطينية في العام ١٩٨٨، وقد شغلت منصب رئيس للجمعية بضع سنوات. كما اختيرت عضوة في العديد من اللجان المشرفة على نشاطات المؤسسات الثقافية في الدنمارك. تتناول في مجمل رواياتها وبشكل رئيسي موضوعي الانتقال من الريف إلى المدينة والحرب، من خلال ذلك تستعرض توروب بمقدرة التغيرات التي طرأت وتطراً تاريخياً واجتماعياً على الحياة والعلاقات الإنسانية والاقتصاد في هذا البلد الإسكندنافي منذ الأربعينيات فالخمسينيات والستينيات وإلى ما قبل نهاية العقد الأول من الألفية الثانية في آخر عمل لها.

في روايتها الأخيرة «إله الصدفة» تختار توروب قيمة مختلفة تماماً في تناولها بعد زيارة لها إلى غامبيا قبل بضع سنوات ولقائها بطفلة هناك. نحن والآخر هو ما تناقشه في روايتها التي تعكس بدقة وتركيز دأبها في سبيل فهم علاقتنا بعضنا ببعض في هذا العالم الذي يفترض أن تكون المسافات قد تقلصت فيه بفضل السفر وسهولة انتقال المعلومة عن طريق النت. تتنقل بهذا بين ثلاث بيئات مختلفة من العاصمة الدنماركية كوبنهاجن، إلى منتجعات غامبيا المطلّة على الأطلنطي، ومنها إلى العاصمة البريطانية لندن. تتوغل في الجانب النفسي والاجتماعي والسياسي والديني لبطلتيها وتسلط الضوء على الفوارق عبرها بين الغنى والفقر، السلطة والضعف، المادي والروحي، الأبيض والأسود. وعلى الرغم من

ذلك لا يكون خفيا ما تحاول الكاتبة التشديد عليه أخيرا
رمزيا في كون الإنسانية لها وعي واحد تمتزج فيه أرواحنا
وتضيع الحدود.

المترجمة

«أنت والد أنت الذي بجانبك واحد»
ريزارد كابوشينيسكي - كتاب الآخر

الظلمة هناك

من عجائب القدر أن يستقر قرارها على اختيار غرب أفريقيا وليس إحدى جزر سيشيل التي كانت وفق تصورها أكثر جاذبية، ولكن الأماكن كانت محجوزة بعد أن حصلت على منفذ صغير في مفكرتها. كان القرار مستعجلاً وغير محسوب، اتُخذَ بعد إجهاد حاد وأخذ منحى عجيباً بعدها. عندما كانت في حالات استثنائية تسافر في إجازة كانت تختار أحد بلدان البحر المتوسط في قسمه الأوروبي ولكنها لم تكن واثقة من الجو خارج موسم السياحة. لقد شاركت في اجتماعات ومؤتمرات في جوهانسبورغ ولكنها لم تتوافر على معرفة بأفريقيا. لم تكن القارة التي تتخيل نفسها وهي تلعب دور السائحة فيها.

كما لم يكن هناك ما يُنتقد من أجله فندق «جولدن باي» ما دام كان بعيداً جداً عن صراخ الطواويس ورائحة القردة في المدرج. لقد حجزت في الفندق الوحيد المقبول بشعور موقن بالجودة (وفق الصور والوصف على صفحة الإنترنت) في هذا الجزء من البلد الذي كان المركز السياحي. تمليك إنجليزي وطرز متميز بسرادق واطئ وبناية رئيسية أنيقة مع مطاعم،

ومقاهي، وبارات وناد ليلي مع كازينو. أسفل متنزه الفندق عبر السلم الماهو غاني العريض يقع شاطئ السياح، حيث يتحرك الجنود للحراسة بزيهم العسكري التمويهى ومسدساتهم في أحزمتهم. كانوا يطاردون باعة الفاكهة المتجولين غير المرخصين، ويبعدونهم عن المنطقة المغلقة المسورة بضراوة ويحرص كبير على ضيوف الفندق. عليها أن تعتاد أمر أنها لم تكن على شواطئ البحر المتوسط بل هي خارج هذا العالم. وأن حمايتها على الشاطئ هم من السود وليس البيض.

وبما أنها قد ألفت بنفسها الآن في المجهول فقد كانت تتطلع إلى معرفة البلد وطبيعته، تتجول وحدها كما اعتادت أن تفعل عندما تكون في جنوب أوروبا. ولكنها أخطأت في حساباتها. بمجرد أن تجرات يوما على الخروج من منطقة الفندق المحروسة وتمشّت عبر شارع السياح المملوء بالمطاعم ومكاتب تصريف العملة والسوبرماركتات حتى هاجمها الشبان الذين كانوا يعرضون عليها أن يكونوا مرشدين سياحيين أو عشاقا. أوضحت لهم أنها لا تحتاج إلى مرشد ولا صديق، ولكنهم لا يأخذون كلمة «لا» بعين الاعتبار. التصقوا بها وطلبوا وطلبوا وطلبوا، محبسها، ساعتها، نقودها، قطعة من جلدها الأبيض. نفضتهم عنها وركضت إلى الفندق واشتكتهم إلى حراس الأمن عند المدخل الذين استمعوا إلى شكواها بقدر كبير من الجدية (ذلك يتعلق بسمعة البلد كهدف سياحي وبالتالي الناتج القومي الإجمالي له). حصلت على رقم هاتف للخط الساخن الذين يمكن للسياح استخدامه في حالة تعرضهم إلى تحرش ما. ولكنها لم تكن قادرة على

التعرف على من أقلق أمانها من بين هؤلاء حيث اختفوا في الظل تحت الأشجار وقد كانوا جميعا يشبه بعضهم البعض.

لم تتحرك من منطقة الفندق بعد تجربتها المزعجة مع «الجهلة» الثلاثة كما يطلق الحراس على هؤلاء الشبان الذين كانوا يحومون حول الفنادق السياحية أملا بالحصول على صفقة تجارية رابحة. لم تكن ترتخي إلا بعد اجتيازها حراس أمن الفندق ووصولها إلى المتنزه الفاره المحوط بجدار عالٍ، المملوء بالنافورات والمزدهم بأنواع الطيور والأشجار الاستوائية والأزهار بألوانها المختلفة والحدائق المسقية التي تتخللها ممرات أفوانية مبلطة تقود الضيوف إلى منحوتات أفريقية متميزة.

الفنادق بكراسي الاستلقاء الملونة كل وفق منطقة الشاطئ المعلمة له، قد صُفّت إلى جانب بعضها البعض على امتداد الساحل المطل على المحيط الأطلسي.

الشاطئ كان متنفسها وهروبها اليومي من محمية الفندق المغلقة. كانت تجلس في المكان نفسه، وعلي كرسي الاستلقاء نفسه كل يوم حيث تضع منشفتها منذ الصباح الباكر لحجزه. لو لم تكن تأخذ الاحتياطات اللازمة فلن تجد كرسي فارغا عندما تعود بعد الإفطار على مهلها والساعة تقارب العاشرة. في اليوم الأول كان عليها أن تعود خالية الوفاض من حيث أتت. لم يكن هناك أحد على الشاطئ، ولكن المناشف بحجم الشراشف كانت قد وُضعت على كل كرسي.

بعد أربع ساعات من الجهد في حرب المناشف (كلما كان الاستيقاظ والمجيء إلى الشاطئ مع المنشفة أبكر زادت إمكانية

الحصول على كرسي استلقاء في المكان الافضل بما يخص المنظر والمسافة من البحر) استدارت عائدة إلى كرسيها بروبها بلون النعناع وحداء البحر المطاطي اللين والمنشفة الإضافية على كتفيها. كانت تجلس معظم الوقت على الكرسي تتأمل من خلف نظارتها الشمسية الحياة على الشاطئ بخفية. لم تكن تجرؤ على غلق عينيها خوفا من أن يتسلل إليها أحد من دون أن تنتبه له. سواء كان من ضيوف الفندق الإنجليز نساء أو رجالا، أو من بائعي الفاكهة والعصير الذين يتسللون عبر الشاطئ المحلي في لحظة غياب الحراسة إلى شاطئ السياح من الجهة الأخرى من المتنزه الطبيعي المملوء بالقردة الحريرية الرمادية التي تثب من مكان إلى مكان في متنزه فندقها.

الباعة من الشاطئ المحلي كانوا فتيات في عمر طالبات المدارس (وبضعة أولاد كبار) يمشون بتوازن بارع مع صينية الفاكهة والمكسرات على رؤوسهم. كانوا مطاردين على الدوام من قبل الجنود الذين يبعدونهم. يضربونهم في بعض الأحيان على الظهر والكتف بالعصي. لكنهم يعودون ثانية من دون كلل بمجرد أن ينسحب الجنود بزيهم الضيق إلى مناطق أخرى من الشاطئ أو إلى الظل لكي يستريحوا مع سيجارة وكولا. كان من الواضح أن الحياة بالنسبة إلى الفتيات هي في تمكهن من بيع بضاعتهم للسائح المتمكنين ماديا، الآلهة البرونزية التي تتمدد على كراسي الفندق الزرقاء، أو تذهب أزواجا لجمع الصدف والمحار عند حواف الشاطئ.

في الأيام الأولى جلست وحيدة في عزلة تحت مظلتها.

شعرت بحرارة الإشعاع تسري فيها وتصل عظامها وتذيب البرد الشتائي حتى النخاع. تجنبت القراءة في مجلة Wallpaper التي اشترتها على عجل في المطار. كانت خائفة من أن تفقد سيطرتها في المحيط الذي لم تعتد عليه. اللغز كان كيف أنها وعلى الرغم من حالة الإنذار التي كانت عليها لم تشعر بالخطر يقترب منها ولم تلاحظ له أثرا من طرف عينيها.

من غير إنذار مسبق شعرت بإشعاع من قبل كائن بشري قريب جدا منها. ارتعدت غير قادرة على الحركة. كأن جسدها قد تسمّر في مكانه على الكرسي. تفضّد العرق من جبينها. كانت نظارتها الشمسية لصق صدغيها تحدّ من مجال رؤيتها. ظلّت جالسة في وضع ثابت غير مريح، سجينة القرب المفروض عليها. حرّكت يدها كأنها تنشّ ذبابة. ألم يكن هناك من أحد؟ هل كانت ضحية لخداع حواس؟ لم تجرؤ على أن تدير رأسها لترى إن كان هناك بالفعل من يقف إلى الجانب الأيسر منها. سمعت شيئا ما يمكن أن يكون نفسا مكتوما. كان هناك حذر متردد في ذلك التنفس غير المحسوس، شيء ما مؤثرو سريع العطب. كانت إحدى البائعات الصغيرات التي دنت قريبا جدا من ذراع كرسيها بوضع منسحب بعض الشيء بعيدا عن مدى النظر.

– هل تريدان شيئا؟

صوت طالع من زفير ناعم ملأ السؤال بأمل مشدود لرد فعل إيجابي منها. هل يمكن لمخلوق بشري أن يقاوم هكذا هجوم؟ هل يمكنها؟ كان ذلك هو السؤال. تمت لو أنها كانت قادرة على المقاومة. ولكن ذلك لم يكن ممكنا. صارت رقيقة، ذابت مثل تمثال الرجل

الثلجي تحت شمس الربيع. أصاب ذلك الصوت الناعم سمعها
وواصل طريقه عبر أذنها.

جمال قدسي، رنين جرس فضي خفيف مألها. لم يكن
بمقدورها شرح ذلك. لم تكن تؤمن بوجود ما يطلق عليه العالم
الآخر أو الأعلى إلى جانب العالم المادي. فقط ما يمكن قياسه
ووزنه، وسماعه ورؤيته بالعين المجردة أو الميكروسكوب هو الموجود.
في نظرها كل ذلك الحديث عن الروحي واللامادي كان من
الخرافات. ولكن هنا على الشاطئ «على مبعدة عشرة آلاف سنة
ضوئية من الوطن» حيث تتحد السماء بالبحر حدث الذي
لا يمكن توضيحه. صوت طفولي مرتجف تخلل جلدها ومسها.
لم تكن مستعدة لذلك إطلاقاً.

استجمعت شجاعته أخيراً وأدارت رأسها. الجسم الضئيل
وقف مزروعاً بالرمل، مستقيماً مثل شمعة في صينية ضخمة
على الرأس.

- تريدان؟ شدت ذراع رويها الصباحي.

- تريدان، تريدان؟ ألحت الطفلة.

استسلمت. شعرت بالإطراء لاختيارها هي، ومع هذا الإصرار
الذي هدم مناعتها.

- ماذا لديك؟

- كل شيء. كان شَعْرُ الفتاة المجعد بلونه الأسود الرمادي
مضفوراً بإحكام من جبهتها إلى رقبتها في شدات صغيرة
مشعثة. الفراغات بين الضفائر الرفيعة كانت أكبر من الضفائر
نفسها والتي بان من خلالها جلد رأسها ذو اللون البني الفاتح.

لا بد أن كل تلك الصفائر موجهة لمنطقة الجلد هذه الحساسة من الرأس.

«كل شيء»، ربما ببعض من المبالغة. بضعة أكياس مكسرات وعذق موز كان كل ما تبقى في صينيتهـا.
- بوس ليدي، الصوت كأنه كان مهدداً.

- أعطيني بضع حبّات من المكسرات، حفنة منها فقط، قالت لها. لماذا هذه الـ «حفنة منها فقط»، فكرت غير راضية عن نفسها. كانت المكسرات قد وُزنت ووزعت في أكياس نايلون بدا أنها قد استعملت كثيراً. همّت البنت بإفراغ كيس المكسرات في يدها. وكيف ستدفع لها الآن؟

- خذي بنفسك، قالت راجية من البنت أن تلتقط بضع ورقات من المحفظة التي كانت تحملها في حزام تحت رובהا الصباحي. هي لا تنزل إلى البحر لذا كان من الممكن أن تحمل معها محفظتها على الشاطئ. لا يمكن أن تتخيل نفسها من غير نقود أو بطاقة ائتمانية بحوزتها.

لم تكتشف قبل الآن كم كانت الطفلة نحيلة، مجرد جلد وعظم. كانت مفاصل يدها بسمك عيدان تنظيف الغليون. الجلد يميل أكثر إلى الرصاصي منه إلى الأسود. بلوزتها كانت متسخة ومنكمشة، ما جعلها تبدو كأنها قد كبرت عليها. وجهها كان عريضاً خشن المعاني، وأسنانها البيض كانت كأنها مبقعة بأزهار صغيرة بلون الصدا. كانت طويلة، وبدت أكبر عمراً من بقية باعة الساحل. برزت مثل «البطة القبيحة» بحركات مرتبكة غير مترابطة. أخذت وقتاً طويلاً في التقاطها إحدى ورقات

العشرين دالاسي في راحة يدها ذات اللون الكريمي من المحفظة لتريها إياها بفخر. هزّت رأسها قائلة: «شكرا لمساعدتك» على الرغم من أن العشرين دالاسي كانت سعرا مبالغاً فيه لحفنة المكسرات اليابسة. وضعت الفتاة الورقة في جيبها وظلت واقفة تدبك بقدميها الحافيتين من تحت تنورتها الطويلة. شعرت بحرج لتردها. الصفقة انتهت. لم يعد هناك من شيء بينهما. كانت بحاجة لتختلي وحدها. قد طال أمد هذا اللقاء الإجباري. أدارت رأسها بعيداً عن الطفلة لكنها ظلت تشعر بالقرب الكثيف والنفس القصير الحذر يعود إلى أذنيها. كأن المشهد سيبدأ من جديد، وطقسا غامضاً سيتكرر.

عليها أن توقف هذا الحصار فنهضت بشكل مفاجيء من الكرسي ووقفت بطولها أمام البنت التي وصلت بارتفاعها إلى منتصف صدرها. نظرت إلى قامة البنت الناشفة التي لم تشبه طفلة بقدر ما كانت تشبه فتاة شابة لم تشب، قد توقف نموها. نظرت إليها بعينين كبيرتين بريئتين وبمنتهى اللطف. هل يمكن أن تكون متخلفة عقلياً؟

- ما اسمك؟ سألت وفاجأت نفسها بالسؤال.
- مارياما، قالت البنت بصوت هامس تقريبا.
- إذن فنحن أخوات بالأسماء. قلبها بدأ يطرق داخل صدرها.
هل أرسلت المصادفة هذه المخلوقة التعسة لتعرض طريقها وتضعها تحت الاختبار؟

- أخوات بالاسم؟ هزّت البنت رأسها وبدت كأنها ستطلق ساقيها للريح لتهرب بعيداً عن هذا الوحش الأبيض مثلما تتخيله.

- اسمي أيضا ماريانا، أوضحت لها.
- ماريانا. انحنت وندت عنها ضحكة صغيرة من دون صوت.
- مارياناثان. أشارت البنت إليها بانفعال ثم نظرت إلى نفسها ثانية كأنها في عرض إيمائي مفرع.
- يسمونني نانا، قاطعتُها لكي توقفها.
- نانا، رددتُ البنت ويحلقُ فيها كما لو كانت من عجائب الدنيا أو هي رقم ثمانية.
- اسمي مارياما، مارياما.. بحرف الميم وليس ماريانا.
- حسنا.. مارياما بحرف الميم هل نذهب في جولة؟ قالت نانا وهي تشعر بارتياح غريب.
- ولكني.. في الشغل الآن، أعمل بيزنس. رمشت مارياما بنرفزة.
- سأشتري كل الصينية، كم تطلبين؟
- مائة دالاسي، قالت مارياما وفتحت عينيها على اتساعهما.
- سحبت نانا ورقة من فئة المائة من محفظتها حول خصرها، وقفت ممسكة بها. نظرت مارياما إلى الورقة بجوع وتركت بقايا بيع اليوم لها. وضعت الموز والمكسرات على المنشفة في الكرسي الذي كان منطقتها الخاصة أثناء وجودها على الشاطئ.
- هل تقضين العطلة هنا وحدكِ؟ قالت مارياما بشعور مختلط من التعجب والشفقة.
- خذي هذا، أمرت نانا بدلا من الجواب وأشارت إلى صينيتهما المعدنية.
- وضعيها على كرسيي، واصلت بثقة سائح زائفة.

- سيسرقونها في الحال. مارياما نظرت بهلع ولم تشاركها كما يظهر تقييمها للأمان على شاطئء السياح. استسلمت نانا لمعرفة مارياما بالمنطقة ورأت من زاوية عينيها أن المسرحية الصغيرة قد أيقظت انتباه ضيوف الفندق الذين جلسوا وقد توجهت وجوههم صوبهما. كان كرسي نانا أقصى الصف حدّ صف كراسي الاستلقاء البيضاء التي تعود إلى الفندق المجاور والتي احتلت قطعة الشاطئ التالية. ما رآته العيون من خلف النظارات السود لم يكن بمقدروها بالطبع معرفته. ولكنها لا تحب أن تكون تحت المراقبة. لا تحب أن تُرى، أن يصدر حكم عليها، أن يقيّمها أحد، أن تزنها وتقيسها النظرات الأجنبية. مبادرتها البريئة، جولة للمشي بمحاذاة الشاطئ برفقة بائعة الشاطئ الصغيرة لا يجب أن تكون مثار تدخّل فضولي وشكوك حول دوافع مشبوهة. في لحظة وجدت نفسها ممسكة برشاش تحصد جمع السياح المستلقين المبحلقين. كانت هذه الاستعارات من أفلام الإثارة وألعاب الكمبيوتر جزءا من وعيها، على الرغم من أنها كانت بطبيعتها مسألة مثل يوم هاديء في غابة من أشجار البتولا عند خليج في بحر البلطيق.

لم تدع نانا عدم ارتياحها لهذا العدد من النظارات الشمسية من صنف الألف يورو أن يزعجها، والتي كانت مصوبة نحوها هي ومارياما التي أنزلت بحركة أنيقة الصينية إلى الأرض. كانت أصغر وأخفّ مما بدت عليه عندما كانت مستقرة فوق قامة البنت النحيلة. من دون صبر عرضت نانا عليها حمل الصينية في حقيبة الشاطئ ولكن مارياما رفضت وأصرّت على حملها بنفسها. عنادها غير العملي أزعج نانا.

كان بإمكانها حمل الصينية في سلتها المصفورة الجميلة التي اشترتها من بوتيك الهدايا والتحف في الفندق والذي حوى كل ما يشتهي القلب ابتداء من السلال المصفورة والحقائب، والقماش المطبوع، والسجاد المنسوج إلى الأقنعة المخيفة والطبول بمختلف الأحجام. كل شيء قد وضع بعناية وفق المنشأ: نيجيريا، بوركينا فاسو، أوغندا، غانا، كونغو، كينيا، سنغال، تنزانيا. كانت تزور هذه القاعة الفسيحة جيدة التهوية التي تقع عند مدخل الفندق كل مساء قبل العشاء بشكل أشبه بالقسري. تتأكد إن كان هناك كنز صغير ما قد فاتها أن تتنبه إليه. عليها أن تستنشق القارة السوداء في الشكل المكثف للبضاعة المعروضة وتفوز بآخر طراز لتصميم أفريقي بثمن زهيد جدا بحساب اليورو.

استعدت مارياما للانطلاق بانتظار أن تجمع نانا أشياءها. لم تترك غير المنشفة ملقاة على كرسي الاستلقاء الذي لم تشأ أن تفقد حقها به. وضعت حقيبة الشاطئ على كتفها وانعطفتا معا تجاه الماء عبر الساحل حيث جمعت أكوام من الصدف بألوان رقيقة من الباستيل.

عندما ابتعدتا مسافة من كرسي الاستلقاء وشعرتا بهواء البحر المالح المنعش أخذت مارياما بيدها. اهتزت نانا كأن مسأ كهربائيا اعتراها. تجمدت يدها، لم تستطع تحريكها، أو سحبها. بقيت جامدة باردة تحضن يدي مارياما الصغيرة الحية الدافئة. لا تتذكر أنها مرت بشيء شبيه بهذا. لقد كبرت من دون تماس جسدي واختارت بالفطرة أن تتجنب الاحتكاك بالآخرين. كانت تخشى حتى المصافحة وتجبر على القيام بها كواجب بما يتعلق

بعملها. التماس مع بشرة غريب كان يملأها بشعور من عدم الارتياح ودوار يبعث على الغثيان. ولكنها تعلمت أن تتقبله.

كنوع من رد فعل صاّد سألت مارياما عن عمرها.

- خمس عشرة سنة.

- ولماذا لست في المدرسة بدلا من بيع الفاكهة والمكسرات؟

- أنا أذهب إلى المدرسة قبل الظهر. ارتجف صوتها.

- هل أنت متأكدة من ذلك؟ قالت نانا. على الشاشة في

الطائرة كان هناك فيلم عن الأوضاع في البلد، أظهر أن كثيرا

من العائلات كانت على درجة من الفقر لا تمكنهم من إرسال

أطفالهم إلى المدارس. وقد كانت الأولوية للأولاد على الرغم من

أن الرئيس قد قرر مؤخرا أن يدفع البنات نصف القسط المقرر

للمدرسة. ربما كان تصريح مارياما مجرد حلم. أنها لا تشبه بنتا

قد تعلمت الكتابة والقراءة.

مشيتا بمحاذاة الساحل مع الريح العاصفة بشكل مائل من

جهة البحر. الأمواج بزידها تهدر تجاههما. وجدت نانا حجة

مقنعة كي تفلت يد مارياما الجافة الغريبة كأنها جلد وعظم.

كانت الأصدا ف من الجمال بحيث يصعب تركها في مكانها. وقفت

وانحنى واختارت لها مجموعة مناسبة لتزيين الحمام في بيتها.

تابعت والأصدا ف تخرخش في حقيبتها. مارياما تأخرت خلفها.

- هيا أسرعى، قالت لها، خجلة من ظهورها كالمراه البيضاء

الطويلة مع الأجيرة الصغيرة التي تتخلف في السير مسافة

محسوبة. لم تكن ترغب في أن يُحكّم عليها أخلاقيا أو أن تكون

عرضة للضحك فتشبّثت بمارياما. تابعتا السير حتى وصلتا

نهاية المنحدرات والأحراش التي امتدت إلى الماء طوال الساحل.
اقتрحت نانا أن تجلسا وتستريحا على الرمل قبل عودتهما.
جلست مارياما مع صينيتهما من الصفيح في حضنها. التصقت
بها كأنها أعز ما تملك.

- هل لديك ما يؤكل؟ ساندويتش؟ سألت بطبيعية ونظرت
إليها تلك النظرة البريئة بعينين مفتوحتين. كان على نانا أن
تعتذر لما لم تتزود به. أكلت مارياما إحدى الموزات التي باعتها إلى
نانا ولكنها لم ترغب في شيء من المكسرات. كما لم تكن دعوتها
إلى مطعم الفندق أو بار المسبح ممكنة بعد النزهة. كان الدخول
إلى منطقة الفندق ممنوعا باتا. بالطبع لم يكن ذلك لكل
الغامبيين ولكن للفقراء والمعوزين الذين يحومون حول مدخل
الفندق وعلى الساحل. ومارياما كانت من ضمنهم. لم يكن
بمقدورها حتى مرافقتها كضيفة لها.

- هل تصيرين متعهدتي، سيدتي؟ ثانية تكلمت بصوت مُصرّ
ملحاح.

- ماذا تعنين؟ شعرت نانا بعدم ارتياح إزاء طلب جديد وندمت
على إقدامها تجاه هذه الطفلة. اعتقدت أنها عثرت على امرأة
شابة تخالطها وتخفف من وحدتها وتسعد بها ولكنها أخطأت
الحساب. كان الأمر صفقة عمل مدبرة.

- أن تتعهدتي بدراستي سيدتي؟ كررت. هذه الـ «سيدتي»
أزعجت نانا. بدت كأنها للتهكم.

- لا أعتقد أنك تذهبين إلى المدرسة. ولكنك شاطرة لمعرفة
أن الأوروبيين يغمون بفكرة تعلم الأفريقيين وحصولهم على

دراسة، رَدَّت عليها نانا بشعور غريزي بضرورة الانسحاب من البداية.

- أنا لا أكذب سيدتي، قالت مارياما وقد كشفت عن غضب غير متوقع. نظرت إلى نانا بوجه يعلوه الاحتقار. بدأ الهلع يدب في جسدها. وعلى الرغم من كل شيء فمارياما لديها الامتياز بأنها تلعب على أرضها.

- هلا عدنا؟ قالت نانا ونهضت ونفضت الرمل من على رويها. شعور فجائي بالعوق لأنها لم ترتدي ما يقتضي من ملابس. كان تجردا جعلها هشة.

- سألقي هنا. قالت مارياما وهي تراقب ما حولها.

- كُفَى عن هذا الهراء، قالت نانا بإقناع الأم.

- تعالي. مدَّت يدها لمارياما.

- لا، سأنتظر أصدقائي هنا، باقية هنا. رفضها كان بمنزلة صفعة بالوجه، عرض لتهميشها كغريبة في منطقة مارياما بعيدا عن شواطئ الفندق.

نسيت نانا أنها كانت أكثر من مجرد كائن تعيش يقف على الرمل، أن لها حياة خارج منطقة السياحة، حياة عامرة بالأقارب، الجيران، الزملاء، أن لها عائلة بتاريخ طويل. كان ذلك ما أفزعها، وجود مارياما عندما كانت هي خارج الصورة اختزلها إلى مجرد حياد بلا وجه كجزء من تيار السواح المجهولين. ما الذي تفعله هنا، في هذا المكان الموحش، هذه البقعة من الكرة الأرضية التي دمرها المناخ؟ عرض سفر درجة أولى، إزاحة فجائية، هروب من اليومي المبرمج. لَمْ بحق السماء تترك نفسها تُدَحَر من قبل

رغبة عنيدة لفتاة نكرة؟ مجرد كائنة جبانة طارت مباشرة من
حاضنتها الغربية إلى هنا. أدنى صدمة، أدنى مقاومة تواجهها
ضد مخططاتها الجاهزة تولّد كآبة ورعبا لديها. عليها أن
تتماسك وأن تظهر للفتاة من هي ومن أين أتت.

- هل أصابك شيء؟ صدر الصوت الحذر ثانية مقرمشا مثل
موسيقى حلوة.

- هيا ستأتين معي الآن، قالت نانا بانفعال وشدت بقوة ذراعها
النحيلة. عضت مارياما شفتها ألما.

- أنت تؤلميني، قالت بتأثر وشكوى.

- سأنادي أصدقائي. صفرت مارياما بشفتيها. ظهرت من
الأحراش فتاة بدت أصغر سنا من مارياما ولكنها أجمل وأقل
تعاسة.

- من أنت؟ قالت نانا منزعجة من صداد بدأت تشعر به.
ولكنها لم تشأ أن تظهر ضعفا وتغط رأسها داخل الحقيبة بحثا
عن حبوب مسكنة وقنينة ماء.

- أنا أختها، قالت الفتاة بثقة افتقدتها مارياما.

- عندي عائلة كبيرة، العديد من الأخوات والإخوة، أوضحت
مارياما بتحرر أكبر بحضور أختها. وقفتا معا. تلف الأخت ذراعها
حول مارياما.

- أنا أساعدها.

- بماذا؟

- أولاد السوء. إنهم يطاردون مارياما ويسرقون بضاعتها
ونقودها وأحيانا صينييتها وكل شيء. لذلك أنا من يضربهم.

- لا تبدين قوية.
- ولكنها الأقوى من بين الفتيات على الشاطئ، أكدت مارياما.
- هل تبيعين الفاكهة والمكسرات أيضا مثل مارياما؟
- إنها لا تصلح للتجارة، إنها حارسي، قالت مارياما بدلا منها.
- اسمها مادلين مثل جدتنا، أضافت بزهو.
- ما عمر مادلين؟ سألت نانا.
- أنت تهتمين كثيرا بالعمر. قالت مارياما مقطبة الجبين.
- انسي الأمر، قالت نانا. لم تحسب حسابا لوجود الأخت.
- نانا اعتادت التعامل شخصا مع شخص، شعرت بأنها أفلتت زمام الأمر في الموقف. شرعت بالمشي عودة إلى الفندق. كانت الأختان تسرعان بالمشي من خلفها. ألقت الشمس بقبضتها على الشاطئ المفتوح. الرمل بدرجة الغليان، حرق قدمها عبر الحذاء المطاط.
- تزيد نانا من السرعة. الفتاتان كانتا على جانبيها تمسك كل منهما بذراع.
- هل أنت غاضبة سيدتي؟ قالت مارياما بصوتها الناعم جدا والذي جرّدها من سلاحها وجعلها تنفتح. توقفت وتملّصت منهما.
- دعوني، كلتاكما، قالت وقد ندمت بمرارة على مبادرتها حول متنزه الشاطئ. كانت أساسا غاضبة من نفسها، لأنها فقدت الشعور بالتصرف المناسب، عصّت جهاز إنذارها الداخلي وخاضت متجاوزة الحد بين المحليين والسياح. الحدود كانت ضرورية لمصلحة الكرة الأرضية، كان من الأهمية على الأخص ألا يتم تجاوز الخطوط الطبيعية الفاصلة.

أن يلتزم المرء جانبه من السياج ويبقى مُسيطرًا.
- ولكنني صديقتك، قالت مارياما في محاولة منها لتصحيح
الوضع. استدارت الأخت، المحاربة الصغيرة ووقفت تراقبهما من
على مبعدة.

- مزاجي سيئ، لست على مايرام، تعللت نانا. مارياما تناولت
يدها بحذر وهذه المرة شعرت نانا بالحركة أكثر طبيعية.
- لا تخافي، الناس الأغنياء دائما خائفون. قالت لمواساتها
وضغطت على يدها. حيلة بسيطة قامت بتبديل الأدوار وكان
لمارياما اليد الطولى.

- هل تحبين بلدي؟

- لا أعرف شيئا عن بلدك. قالت نانا متبرمة لكنها فاجأت
نفسها باحتفاظها بيد الطفلة في يدها. أهكذا وبهذه السهولة
ومن دون ألم تتعافى من فوبيا عانت منها مدى الحياة؟ تفضّد
العرق تحت روبها الصباحي. وحذاؤها المطاطي من غوتشي أخذ
يلذعها برغم بطانته الخفيفة من الجلد.

- ولكنك تعرفيني يا سيدتي. بصوت لا يُقهر. أدركت بخشية
كبيرة أن مارياما لن تتركها ثانية. أدركت أنها ألقت بنفسها
طُعما. وفتحت الطريق لقوى الظلام. مارياما تقسّس كل
ما لا تود معرفته والذي أخفته بعيدا في الثقوب السود لوعيتها
تحت الخانة التي تدعى نظام العالم. لقد استسلمت نانا في
لحظة سهو لنبضها التلقائي وهي الآن في ورطة.

واصلتا يدا بيد في عودتهما بمحاذاة الشاطئ. أخذت نانا
أنفاسا عميقة من أجل أن تخفّف من توتر أعصابها وتهدأ.

- سأنتظرك كل يوم وسأعطيك سعرا مناسباً للنزهة على الشاطئ، واصلت مارياما بتفاؤل. نانا كانت قد وقعت في الشرك ولكنها تجنبت التحرر منه. كبتت إشارات الخطر وركزت تفكيرها على الشاطئ والموج والصدف، على الألوان الصارخة والحرارة الاستوائية، على المرتفع بدرجات سلمه صعوداً إلى الفندق حيث يقف الجنود المسلحون في حراسة للشاطئ. في جزء من الثانية رأت الشاطئ وقد تغطى برمل بلون دم قان. هزت رأسها لتنفض الرؤية البشعة عنها وحاولت أن ترتخي. كانت في عطلة ويعد أسبوع ستكون بعيدة جداً عن «قلب الظلام». ستكون في بلدها ثانية في الأجواء الشمالية لخط العرض المعتدلة، في شقتها هناك، العش الدافئ حيث لا يمكن أن يصلها مكروه.

كانتا قد عادتا إلى الفندق حيث كراسي الاستلقاء. كانت معظم الكراسي فارغة ومتروكة. تناولت نانا كاميرتها الرقمية من حقيبتها تنوي التقاط صورة لمارياما، لتثبت لنفسها ولزملائها أن الطفلة لها وجود حقيقي في الواقع. كان مزاجها هنا قد تحسن.

- لا سيدتي، لا أحب.

- ولكنني سأدفع لك مارياما، قالت نانا مستسلمة. فهمت أخيراً قوانين اللعبة الأساسية. البيع والشراء كان دستور العالم. لا شيء في هذا العالم مجانياً. لكل شيء ثمنه. كيف أتت على نسيان مبادئ ما يتعلمه الأطفال والذي درسته فوق ذلك في الجامعة؟ لابد أنها الحرارة وتأثيرات الحواس القوية التي جعلتها تفقد رشدها.

- ستسرق كاميرتك روعي وأنا لا أبيع روعي بالمال.
- كفي عن هذا الهراء مارياما.
- أوكي ١٠٠ دالاسي. تنهدت مارياما ويدت كأنها قد أقرت أمامها بذلك.
- أهلا بك في القرن الحادي والعشرين، قالت نانا مازحة.
- ابتسمت مارياما غير واثقة.
- هل نحن أصدقاء؟ سألتها.
- ما وراء هذا؟
- أنتظرِكَ غدا.
- متى؟
- بعد الظهر.
- أوكي، نلتقي هناك. تناولت نانا منشفتها وتوجهت صوب سَلَم الفندق حيث رُسم على كل درجة في السَلَم عبارة فندق جولدن باي بالذهب.
- نسيتِ صورتكِ، قالت مارياما وحملت الصينية الفارغة على رأسها. وقفت جاهزة للتصوير وانتقلت باحتراف بين الأوضاع المختلفة. التقطت نانا بضع صور لها مع المحيط الأطلسي كخلفية بموجه الذي علا أمتارا. مدّت مارياما يدها ودفعت نانا المبلغ. لقد فهمت كل منهما الأخرى. وها هي تشعر بأنها صارت في المستوى عينه من جحيم السياحة هذا الذي يوهم بأنه الجنة. أسرعَت مارياما بخطوات سريعة لتبتعد عن شاطئء الفندق متجهة صوب الشاطئ المحلي الذي يقع على مبعدة من المنطقة المغلقة. لم تر نانا إلا حشدا من الناس تقرفصوا حول قدر

للطبخ فوق جمر الحطب. تتصور أنها عوائل قد أعدت وجبة طعام لها على الشاطئ، شكرت من ثم الأجداد بإيقاع الطبول الذي أبقاها مستيقظة حتى الصباح. وفي انتظارها ليلة أرق أخرى مع الطبول المدممة التي اخترقت سدادات أذنيها. بقيت واقفة تتأمل مارياما. في ضباب القيقظ اللامع بدا كأنها كانت تسير وتسير من دون أن تتحرك من مكانها. بين الحين والآخر تتعثر وتقع، من المحتمل بسبب التعب الذي سيطر عليها بعد يوم عمل وجولاتها تلك صاعدة نازلة طوال خط الشاطئ. ظلها الصغير يتضاءل ويتضاءل حتى يبلعها الضباب وتختفي.

احتفلت نانا بحدث اليوم بفتح زجاجة شراب مع طبق محار للمقبلات. شربت مع نفسها ورفعت الكأس وحيّت زوجين إنجليزيين في الطاولة إلى جانبها. كانت ترتدي تصميمًا أفريقيًا من قماش قطني أسود بنقش متعرج أصفر، اشترته من بوتيك الهدايا مبكرا في الصباح، وقد سُلّم إلى استقبال الفندق قبل طعام الفطور وبين وقت الضحى وحتى المغيب تم تصميمه على الطراز الأفريقي التقليدي في صالون خياطة محلي. الشيء الوحيد الذي أضافته هو حزام من جلد الظباء انتقته على عجلة من قسم الجلود في البوتيك. القفاطين الكبيرة الواسعة بقماش فضفاض لم تكن مما يناسب ذوقها ولكن التصميم الأفريقي يزنّره حزام عريض بدا حقا أنيقا مع قوامها الطويل المتأرجح الرخو بعض الشيء.

كرّم الزوجان إيماءة نانا بدعوتها إلى طاولتهما لتناول وجبة العشاء معهما. تم اختراق حاجز الصوت لديها فشعرت بتواصلها

مع كل العالم. كان يسعدّها رؤية مارياما ثانية في الغد، وأخذت تناقش هذين الودودين بانطلاق. تحدثوا عن درجة تصنيف الفندق، معدات الغرف، مستوى الخدمة، وجبة عشاء اليوم والجودة التي تخص الفندق وما هو مفقود فيه. كل ما يدور في رؤوس السياح التي تئزّ وأذهانهم المتعبة. منحوا درجات الاستحقاق وشربوا بإسراف كأنهم ينوون إغراق الحزن. هل كان هو اشتياقهم إلى محيطهم المعتاد؟ هل كان الشك في حقهم بالوجود الآن وبالتحديد هنا؟ هل كان الخوف من الظلمة التي تترصد عبر النوافذ؟ لصفير الأصوات ومجيء الليل؟ هذا الخوف المبطّن والقلق أنتج مرحا شديدا وحركة رشيقة سريعة لتبديل الشرشف الأبيض.

- خمس نجوم تماما، صاح بن. ملأت زوجته اللطيفة بياترس الكؤوس فصلصلت، مهددة على ترفهم المرتعش وسط البحر الأفريقي الهائج.

لم يكونوا قد تبادلوا معلومات شخصية تخصهم بعد. تجنّبت نانا قدر الإمكان التحدث عن نفسها. أخفت نفسها خلف قناع محايد ومجهول. كانت تشعر بنفسها مختلفة وتبرز بشكلها الأفضل في العمل وكل ما يتعلق بالجانب المهني. اللقاءات الاجتماعية والأحاديث الجانبية كانت تكلفها جهدا مثل تكليفها بتنفيذ عمل يقع خارج قدراتها.

حالما يتحول الحديث ويصير شخصا وعاطفيا تنسحب. لا روح ولا مشاعر لديها لتفرّغها.

- نانا هل أنت بخير؟ مرّ صوت بياترس متخللا شرودها.

- عفوا.

- شردت بعيدا. ربما تفكرين فيهم هناك في بلدك؟ قالت بياتريس بلطف.

- ليس لي أحد.. هناك.

- لا بد لنا من أحد. أظهرت بياتريس مراعاة بشكل غير معتاد ما جعل نانا تستغرب ذلك. هل رأيت شيئا لم يمكن للآخرين أن يروه؟
- بالطبع. سارعت لتقول.

- عندما نكون في الخارج نشتاق إلى الوطن وعندما نعود يتملكنا الشوق للسفر، أكملت بياتريس كأنها تحدث نفسها.

- ما الذي أتى بك إلى هذه البقعة من الأرض؟ قاطع بن قائلا.

- المصادفة، اللحظة الأخيرة... سفرة لقضاء عطلة، تمتعت نانا.

لم تكن ترغب في الكشف عن أن سفرتها كانت اقتطاعا من وقت العمل لتفادي الإجهاد والضغط النفسي تم تنظيمها من قبل مدرب الحياة المسؤول عن ذلك في الشركة.

- إذن أنت لست بالبيزنس، خبيرة بأفريقيا أو شيء من هذا القبيل؟ كان بن هو الرقة بعينها.

- بعيدا جدا عن هذا. جواب نانا المختصر لم يبطل من عزيمة الاثنين اللطيفين اللذين جعلها تفتح بسؤالهما الجريء والمباشر.

- سفرة لقضاء العطلة فكرة جيدة، أكد بن الذي كان رجلا قصيرا ممتلئا نصف أصلع بقميص بنصف أكمام، وينطال سفاري وحذاء بحارة. كانت بياتريس أطول منه، كتفان عريضتان

معصّلتان، قامّة رشيقة ملفوفة بفستان بزهرات صغيرة من قماش قطني خفيف. لم تستطع نانا رفع عينيها عن بياتريس. هي ترى النساء أجمل وأكثر جاذبية من الرجال، ولكن ليس بالضرورة أكثر ذكاء.

- أريد أن أعيش .. عالماً آخر. كان على نانا أن تخلق سبباً مقنعاً لاتخاذها خيار هذه السفرة غير التقليدية.

- وما المجال الذي تعملين فيه إذن.. عندما لا تقيمين هنا؟ تبنت بياتريس السؤال.

- أنا مديرة في راوار العالمية. تم انتقائي للتعين بعد حصولي على الماجستير. أخذت نانا دورها في الحديث كأنها في مقابلة عمل. لم تكن معتادة على التحدث عن نفسها.

- ممتازة، انبرت بياتريس قائلة. احمرّ خدانا. كانت تتحرج من الملاحظات.

- هل أنت نابغة نانا؟ أمال بن رأسه وأطرف عينيه.

- لم لا؟ تممت بياتريس بارتياح.

- أنا إنسانة بعقلي ليس بمشاعري، قالتها بموضوعية كأنها كانت تتحدث عن شخص وهمي.

- هكذا تعبير لا يمكن أن يأتي به إلا الناس الحساسون، ابتسمت بياتريس. ترحابها كان طبيعياً جداً إلى درجة أن خوف نانا المزروع من الناس الذين لا تعرفهم تلاشى.

- هل أنت طبيبة، محللة نفسية؟ لا، لا أظنك كذلك، قالت لبياتريس. لطالما تلقّيت جلسات منهم من دون أن يحالفها الحظ. لم يكن لديها الصبر لتتم كل برنامجهم.

- تخمين جيد. لست محللة نفسية ولكن أنثروبولوجية.
- ضربت بياتريس يديها قائلة.
- هذا ما حلمت به أنا أيضا ذات مرة ولكن خانتني شجاعتي.
- قالت نانا باندفاع.
- أي شجاعة؟ سألت بياتريس.
- أن أعيش بين الغرباء بعادات غريبة في ظروف غريبة.
- تجنبت أن تقول «بدائية».
- إن كان المرء يشعر بنفسه غريبا بين غرباء فهذا بسبب كونه هو غريبا عن نفسه، قالت بياتريس. أطلق بن ضحكة عالية.
- هذا موضوع «بي» المفضل.
- بن يعمل في مملكة الحيوانات، أجابته بياتريس.
- بيطري رجاء، صاح بن ماذا يده صوبها.
- نحن في منتصف الفترة لمشروع السلامة البيولوجية لمصلحة مركز «أبوكو» للثروة الحيوانية، قسم الصحة والإنتاج الحيواني تحديدا.. لا يبعد كثيرا عن الفندق، أضاف كنوع من الاعتذار لأنهما يقيمان في فندق خمس نجوم.
- نحاول ضبط خطوط ميزانية المشروع، تسلمت بياتريس الحديث.
- تبادلا الحديث عن تجاربهما بالأمس عندما كانا في الأدغال عند أحد مربى الدجاج بما يتعلق ببرنامج التلقيح «keep the birds from flu». شريكهما كانت له وظيفة وزارية جديدة في الدولة يرتدي بدلة رجالية ضيقة، اشتكى الانفجار في الأسعار المخفضة الأوروبية لمعامل تصنيع الدجاج المجمد التي دمرت السوق المحلي لمزارع البلد الصغيرة.

- لعلمك فقط، أنهى بن كلامه بنبرة تهكمية من نفسه.
- لن نزعجك أكثر يا حصائياتنا الموثوقة بخصوص الزراعة والتوعية الصحية للأغذية، أضافت بياتريس. اكتفت نانا بهزة خفيفة من رأسها. العمل في مجال المساعدات كان بعيدا كل البعد عن عالمها لكي يثير الاهتمام لديها.
- طلب بن المزيد من الشراب واثقا بأن المطعم سيبقى مفتوحا مادام هناك ضيوف والموسيقي الوحيد بالجاكت والرباط كان يعزف الأغاني القديمة الكلاسيكية المعروفة على الكي بورد. بدأ المكان يفرغ. كثيرون كان عليهم الاستيقاظ باكرا في الغد في جولة سياحية. الصباحات الباردة كانت تستغل لرحلات سيارات الجيب المتعبة في الريف.
- إذن أنتِ تعملين ضمن الاستثمار وسوق الأسهم؟ سألتها. نانا هزت رأسها بالإيجاب.
- من المؤكد أنك تعملين ٢٤ ساعة؟ قالت بياتريس.
- أنا متزوجة من عملي. اعترفت نانا بصوت خفيض.
- حرّكت بياتريس يدها محتجة.
- إنه الشعور بالواجب الذي فيك.
- لا أسميه واجبا. أنا أستخدم نفسي بأقصى ما لديّ وأقدم ما هو مطلوب مني. سميه تسديدا معقولا لكل ما استثماره المجتمع في دراستي العليا الباهظة التكاليف.
- العمل وباء عصرنا، صرنا جنود عمل، قالت بياتريس.
- لا تحبطني من عزيمة صديقتنا، اعترض بن منزعجا بعض الشيء.

- أقولها كما هي لا غير، بن نحن نعمل ولا نعرف من نحن،
قالت بياتريس مصرة بهدوء.

- العمل آخر ذيلة تبقّت لنا، قال بن بمرح مقتبسا ذلك من
فن غرافيت من على أحد الجدران في لندن سيتي.

- أنا سعيدة بلقائكما، قالت نانا بتلقائية.

- ونحن كذلك عزيزتي. أضاءت عينا بن اللتان تشبهان عيني
سنجاب.

- أتوقع أنك لا تعملين ليل نهار فقط ولكن يمتد ذلك إلى
اللاوعي والأحلام، مستمرة بياتريس بالقول.

- أنا استغل كل فهرسي الإبداعي.

- جميل أنك مازلت تستخدمين الكلمة «إبداع». تذكرني بتلك
الأيام التي كنا فيها نؤمن بالمستقبل وكنا جزءا من صف العولمة
الإبداعي. بياتريس بدت جميلة، فاتنة، فكرت نانا مع نفسها.

- أعيش مثل راهبة والعمل صلاتي، مرّ القول عبر رأسها مثل
سطر شعري. نظرت بياتريس إليها. أحبت نانا نظرتها الفاحصة
الهادئة.

- أملنا الوحيد أن نصير فقراء من جديد. الفقر وحده الذي
يمكن أن يعيدنا إلى الطريق كبشر في عالم إنساني.

وجّهت بياتريس انتباهها إلى بن ثانية.

- ألا تجدان في هذا رومانسية عالية؟ اعترض بن.

- لا أعني العوز والتعاسة، ولكن الاعتدال والاحترام لأسلوب

حياة مستدام وقنوع، الفضائل القديمة بمفهوم حديث. شاب وجه

بياتريس الشاحب لونا. تساءلت نانا مع نفسها إن كان للزوجين

أطفال أم لديهما ما يكفيهما بعملهما. لو ترك لها اختيار والدين كانت اختارت هذين الزوجين. تمت أن تكون طفلتها.

- الغنى يشوه العقل ويقسّي الحواس ويدّعي الخلود، تابعت بياتريس. بدوا كأنهما يديران حواراً خاصاً بينهما لن ينتهي بوجود نانا.

- كل الحضارات اضمحلت من داخلها. أقرب بن.

- الإمبراطورية الرومانية، هزت بياتريس رأسها موافقة ووضعت يدها على ذراعه. شعرت نانا بأنها كانت متعبة، غير معتادة كما هي الآن على اللقاءات الاجتماعية خارج مجالات العمل الاعتيادية. تمت لو كان بمقدورها الانسحاب إلى غرفتها في الكوخ لترتمي على سريرها. بينما بدا كل من بياتريس وبين على العكس نشيطين محبين للحديث على الرغم من أن الوقت متأخر.

في النهاية كانوا الوحيديين في المطعم. وقف نادل متهيئاً عند الباب المطل على المتنزه ينظر بعين فارغة في القاعة. اثنان آخران يقاومان تثاؤيهما، بينما يقومان بتعديل الموائد. لم يطلب منهم أحد دفع الحساب ومغادرة المطعم. للضيوف مطلق السيادة وحق البقاء طوال الليل إن شاءوا.

- شراب؟ اقترح بن. لم يكن بمقدور نانا إلا أن تقبل الكأس الأخير وتندم بالوقت عينه. ولكن بن لَوَحَ للنادل الذي جاء في الحال مع الشراب والقائمة في علبة خشبية صغيرة بغطاء مقوَّس. نظرت بياتريس إلى بن ونهضت. وضع بن فئات ورقية من الدالاسي في العلبة التي خبأ أصحاب المطعم بداخلها هدايا صغيرة من الشيكولاتة وأقراص اليانسون لتنظيف الأسنان.

- لنبق على تواصل، قال بن بلطف وهم بمصافحتها كأنه
حدس أنها لا تحب أن يمسها غريب. بقيت جالسة بمكانها هادئة
تستمع بالشراب، عارفة أن الفاتورة تم دفعها.
لم تتمكن من النوم ليلا. ولم تكن هي لتتوقع ذلك بعد حفلة
المساء الحية، كؤوس الشراب من بعدها. هذا عدا أصوات الطبول
المددمة المدمرة للأعصاب التي كانت في محل ما بالخارج في
ظلمة الليل. بلعت جرعة مضاعفة من الحبوب المنومة ولكنها
لم تستطع أن ترتخي. استلقت وتقلبت على الفراش بين الشراف
المنشأة ورأسها مملوء بخطط لصباح اليوم التالي مع مارياما. هل
تشتري لها هدية من بوتيك الهدايا في الفندق أم أنها تفضل
الدفع نقدا؟ عليها أن تستعد جيدا وتكتب كل أسئلتها على ورقة.
ربما كان بمقدورها أيضا تقديم شيء لعائلتها؟ وجدت نفسها في
نوع من حالة غبطة. وقفت وتخبطت في الظلمة وعادت بحضن
مملوء بالقناني إلى سريرها وأفرغت الواحدة بعد الأخرى.
لم تستطع أن تستوعب ذهنيا الجو الذي كان مفرط الإثارة إلا عن
طريق ضربه بيد من حديد. هل كانت المشاعر هي التي استبدت بها.
أم كان ذلك مجرد خيالها الذي قادها من خلف الأضواء ومنحها
وهم أن تكون على تواصل مع كل ما هو حي، الأشجار، النباتات،
الحيوانات والبشر؟ أم هي الأرواح الأفريقية التي اقتحمت الجدران
والأبواب المقفلة والنوافذ وسلبت منها عقلها؟
لم تستطع البقاء في السرير. احتاجت لأن تتحرك. نهضت
وارتدت ملابسها لتقوم بنزهة حول الفندق خارجا. كانوا قد
نصحوا النزلاء بعدم المشي من دون مرافق في المنطقة ليلا.

على الرغم من جولات حراس الأمن الدورية. تضع كل التحذيرات جانبا وتتجاهل تعاليم الفندق الأمنية. في العادة لا يمكن لها أن تتجاوز لوحة «حظر تجوال» أو الأحمر في المرور لكنها شعرت بأنها محجوزة وتحتاج إلى هواء.

بقميص طويل الأكمام، بنطلون من الكتان وخطوات واثقة بحذاء الركض مشت عبر الباب إلى الخارج وأقفلت الباب مرتين من خلفها. استقبلها عطر ورود مبهر دافئ ونباتات جافة مثل مخدر. كان الظلام يحف المكان حول الأكواخ، العشب كان ناعما مثل سجادة من الإسفنج حيث الأقدام تغطس بأمان على قاعدة ثابتة. وجدت نفسها في حالة من السلام ومن دون خطر. كانت مثل طفل مقمط داخل تلك العتمة. من أين أتاها شعور الأمان الخداع الذي لم تشعر به يوما في قارتها هي، لا في وضع النهار ولا بعد حلول الظلام؟

ابتعدت عن الساحل بين الأكواخ المظلمة التي تمكنت من تمييز خطوطها في اللمعان المنعكس لمبنى الفندق الرئيسي والإضاءة الخافتة لممرات المتنزه. سرعان ما اعتادت عيناها الظلمة وتمكنت نوعا ما من التعرف على المكان. من دون إنذار ومثل نبت من الأرض انتصبت قائمة أمامها تماما. شعرت بقبضة قوية على ذراعها وصرخت. كان أحد حراس الفندق. أضاء وجهها وعرف في الحال أنها من نزلاء الفندق.

- آسف مام، لا يجب أن تكوني هنا في هذا الوقت من الليل، قال لها معاتبا، بلغة مجروحة تقريبا. لو حصل لها مكروه سيفقد وظيفته، أصر بقوله. نزهتها تلك التي جاءت من دون تفكير كانت تهديدا لأساس وجوده.

- عذرا، قالت منزعة لشعورها بسلب حريتها. الحارس واصل بمصالحة أكبر.

- إن كنت في حاجة إلى هواء نقي يمكنك مرافقتي في جولتي ودعيني بعدها أرافقك الطريق إلى الكوخ، عرض الحارس عليها. شكرت لطف الرجل الذي كان والظلمة واحدا. لم تكن ترى منه إلا الخطوط الفسفورية لزيه الرسمي. كان شيئا كماليا أن يكون حارس أمني إلى جانبها لكي تنسى كل ما تحرك هناك في الظلمة.

- أليس عدد الجنود كبيرا على الشاطئ السياحي؟ باشرت المحادثة.

- من أجل أمانك مام.

- لا بأس بالأمان، ولكن هذا العدد من الجنود... مخيف.
- قرار رئيسنا، يقلقه جدا أمن سواحنا. عندما يُمشط الشاطئ ينسحب جنودنا ويتركونه للشرطة الاعتيادية. درسوا بشكل أفضل ما يخص السواح. كان الحارس يحرك يديه والخطوط المضاءة على أكمام الجاكت تتأرجح عاليا وأسفل.

- هل تعرضت إلى مشاكل؟ واصل معها.

- لا، إطلاقا، ولكن الجنود يزعجون باعة الفاكهة الصغار.

- لأنهم يزعجون السواح، إنهم يخربون شغلنا.

- إنهم لا يفعلون شيئا. لم تستطع نانا أن تحجم عن الدفاع

عن صديقتها الجديدة.

- السياح يشتكون مام، لا يريدون إزعاجا على الشاطئ.

- أليس مسموحا بيع الفاكهة والمكسرات على الشاطئ؟

- فقط من هو مخول ولديه ترخيص. بدا الحارس متعبا ومنزعجا.

- ما الذي يحصل لهم إن لم يكونوا مخولين؟ سألت نانا بحذر.

- سيسلمون إلى الشرطة ويوضعون في الحجز، حتى تأتي عوائلهم وتدفع الغرامة.

- أليس في هذا مبالغة؟ اعترضت نانا.

- الأمر جاد، مخالف للقانون. أوضح لها مَدَاحلا.

- أمل أن تكون صغيرتي بخير.

- إن التزمت بالقوانين. أكد الحارس. لازمت نانا السير من خلفه بخط مائل، دليلها الخطوط المضاءة على بدلتة. زاد من سرعته. تساءلت نانا إن كان الحارس من أصحاب النظام والقانون الذين يكرهون اللانظام. أم هو مجرد الخوف من اهتمامها بطفلة عرضية على الشاطئ الذي بدا غير مناسب، فأظهر عدم تعاطفه مع «غير المخولين»؟ مرّوا بأحد زملائه في الممشى الضيق من البلاط. تبادلا سلسلة من التحايا الحارة.

- إنه أخي، قال الحارس باقتضاب وواصل جولته مع نانا التي كانت تتبعه. توقف فجأة كأن برقاً أصابه وأشار إلى شجرة.

- هل ترين البومة هناك سيدتي؟ إنها ساحرة، روح شريرة، قال بصوت مرتجف. لم تستطع نانا رؤية شيء في الظلمة. تناول الحارس حجارة من على الممر وألقى بها بكل قوته على البومة.

- يجب أن تُقتل باللمحة، ولكن الحارس وللأسف ممنوع من حمل السلاح. استدار وانطلق بنصف قوس حول الشجرة والبومة.

- هل تعتقد حقا أن البومة ساحرة؟ قالت نانا لاهثة.

- أنا لا أعتقد، إنها حقيقة. وزاد الحارس المرعوب من سرعته.

من دون أن تلاحظ نانا كانا خارج منطقة الفندق. أدركت فجأة أنها انطلقت خلال الليل بثقة تامة أن الرجل الذي لا تعرفه سيرافقها بأمان عبر الظلمة. لعنت عدم انتباهها وخبلها. من أين استمدت أفكارها؟ هل كانت بكامل قواها العقلية؟ فكرت مع نفسها بينما كانا متوجهين صوب مشهد من جمال خرافي. حول نار برتقالية جلس أولاد وبنات بمختلف الأعمار كبارا وصغارا متلاصقين في حلقة، سيقانهم ممددة وكعوب أقدامهم تجاه النار. نساء يرقصن بحلي ثقيلة وزينة بتصميم جميل للرأس، تمايلن في سلسلة طويلة داخلات خارجات من الحشد المتجمع حول الأطفال. الأجواء كانت قاتمة تعتمد فيها عواطف محبوسة. لم يكن من مناظر لجذب السواح ما شهدت. شعرت نانا بعدم ارتياح للصدى الذي أفاقه إيقاع الطبول العميق. بحثت عن الحارس الأمني، أرادته أن يرافقها إلى الكوخ ولكنها لم تعثر عليه بسبب الدخان المنبعث من النار والزحمة المتحركة للقمامات الراقصة التي توحدت مع العتمة لذا لم يكن مرئيا غير الحركة. شعرت بيد على فخذه فاستدارت. من خلفها وقفت امرأة عجوز تطوى وجهها بتجاعيد ناعمة. كانت ترتدي كمًا من الأساور من صدف اللؤلؤ وحلقة عريضة مخددة من الذهب حول أحد زنديها. على رأسها كانت ربطة باللونين الأحمر والبرتقالي.

- أين أنا؟ سألت نانا ومسكت بيد المرأة.

- بأياد أمينة، أجابت العجوز باختصار بالإنجليزية. يبدو

أن الكلام كان غير محبذ خلال هذا الطقس. لم يكن لدى نانا خيار آخر غير البقاء حيث هي. وقف الجميع يدا بيد في الحلقة الخارجية من الحشد والعتمة الراقصة.

برغم الخطر الذي من الممكن أن تتعرض له كغريبة في حفل الليل كانت نانا هادئة بشكل غريب. وجدت نفسها في حدود ضبابية بين عالم البشر والأرواح، وفكرة الموت لم تفرعها. كان لديها شعور بأنها بلغت نهاية الطريق. الشيء الوحيد الذي أحزنها هو أنها لن ترى مارياما ثانية وتريها نواياها الحسنة. ناولت العجوز نانا عودا بلون قهوائي فاتح لكي تعلقه. كان عصيرا مُر المذاق.

لم تجرؤ أن تبلعه والعصير تجمع في فمها وانتهى بأن سال من زوايا فمها ومن ثم إلى حنكها. ناولتها العجوز قطعة قماش قطنية جففت بها فمها. بصقت العود على الأرض ورفضت أخذ المزيد. هزّت العجوز رأسها متأثرة حتى ترنحت أقراط أذنيها الثقيلة بقوة رواحا ومجيئا.

شرعت تدفع نانا إلى الأمام صوب النار حيث كانت سيدة الطقس برداء طويل تجبر الأطفال على تناول شراب ما. تركت نفسها تساق مثل ثور وحيد تائه إلى طاولة الذبح والمصير المنتظر. أكلة لحوم البشر كما تظهرها الرسوم القديمة للطرائف حيث الملوك الزوج يأكلون المبشرين البيض كانت مطبوعة في لاوعيتها. هذا التصور المعتاد كان بمنزلة صافرة إنذار داخلية يمكن استدعاؤها في المواقف المهددة بالخطر. لم تفكر في مقاومة شيء أثناء ذلك أو الدفاع ولكن على العكس أن تخضع وتستسلم.

كانت بعيدة جدا عن نصف الكرة الأرضية حيث بلدها، إلى درجة أنها فقدت الإحساس بوجهتها.

كانت مع العجوز، دخلتا حلقة الأطفال. الحرارة المنبعثة من النار كانت لا تطاق. أدارت نانا ظهرها ووضعت يديها على وجهها. شعرت كأن جسدها يغطس في ماء مغلي. يبدو أن الأطفال المجتمعين لهم جلد سميك فلم تقرصهم حماوة النار. أمسكت العجوز جيدا بنانا. كانت تحت حمايتها. لم يلحظ أحد وجود نانا. كأنها كانت غير مرئية ولا وجود لها، كأن الطقوس كانت تجري في واقع ثان غير الذي وجدت فيه.

اندفعت حلقة الأطفال قريبا من النار ولحس لهيبتها كعوبهم. صراخ قوي امتزج مع الإيقاع الحامي للطبول ووصل قمته. بعض الأطفال نهض من الحلقة، تلووا وداروا حول أنفسهم مثل مجانين بينما كانوا يتقافزون على أقدامهم الملسوعة. اخترقت تأوهاتهم وشكواهم الطبول المدممة. انحنى نانا وسألت العجوز عمّن يكونون.

سحرة. صوتهما الرفيع غرق في الصخب. نهض كل الأطفال من الحلقة. ركضوا تجاهها بأيادٍ ممدودة يريدون جرّها إلى الجنون. أمسكت نانا رأسها بيديها وأغمضت عينيها. كان الصراخ العالي وصوت الأنين كأنهما أتيا من داخلها وتفجرا إلى الخارج عبر جمجمتها. في كل مرة تفتح عينيها كان الأطفال في كمّ من أصداق المحار البيض الصغيرة يطوفون بلا وزن بعضهم حول بعض كما في كابينة فضائية في طريقها إلى ظلمة الكون الوامضة.

استيقظت نانا متأخرة في الضحى بشعور كمن يتأرجح
عاليا تحت السقف وينظر إلى نفسه مستلقيا بأكمله ممددا
على السرير. لم يفارقها الإحساس باللا وزن. أخذت نفسا عميقا
لتعيد اتصالها الأرضي وتبعد صداد رأسها النابض. ليس لديها
من تشبيه للحالة غير أيام الدراسة والخمار الشديد. تمارين
التنفس ساعدتها لتذكر اختتام الليلة الماضية حيث وجدت
نفسها تقف وحدها عند جمر الحطب المشتعل على المرج الممتد،
حيث سجادة العشب الكث المقصوص ذكرها بملعب غولف. هل
تعرضت إلى خداع في الحواس حفزته المادة المخدرة للعود البني
الذي أعطته العجوز إياها؟ حارس الأمن تمشى صوبها.

- عليك للأسف المجيء في الصباح سيدتي، قال. أوضحت نانا
أنها ليست لاعبة غولف. نظر إليها مُربكا كأنه لم يقابل أوروبيا
قط لم يلعب الغولف من قبل.

- ما الذي حصل؟ أكان صيد السحرة؟ سألت غير واثقة بما شاهدته.
- هل أنت مهتمة بالفولكلور؟ لدينا متاحف جيدة في بانيول،
قال بحماسة. وصفت له نانا الطقوس كما عاشتها.

- خيالك قد ذهب بعيدا سيدتي، قال الحارس بغضب وبدأ
كأنه يغطي على شيء محرم.

- لا، لا، رأيت ذلك بأم عيني، قالت نانا معارضة. كانت منفعة،
صور متداخلة من أفكارها تزدحم وتدور في رأسها. أمسك
الحارس ذراعها بقوة وبقبضة محكمة قادها إلى المرج عبر أشجار
الماغنوليا الملتوية إلى كوخها. وقد فقدت إحساسها بالوقت ولم
تدر إن كان الصباح قد طلع أم مازال الليل لم ينته بعد.

نهضت نانا وارتدت ملابسها على عجل. أهم نقطة في برنامج اليوم هو الموعد مع مارياما. لا تحسب أنها ستحصل على كرسي استلقاء في وقت متأخر من النهار وسترضى بموقع في الخلف على الشاطئ. التفكير في مارياما جعل حادثة الليل تشحب. أعطتها أملا لم يكن لديها من قبل، لا تفهم كيف، ولا تعرف من أين أتى. كانت لديها رغبة في معاشة يوم مارياما، عائلتها، بلدها، وأن تضع الحياة الهشة الصغيرة داخل إطار من واقع أفريقي خام والذي يمكنها تعديله عبر وسائل اقتصادية صغيرة. شدّها الشاطئ أكثر من المطعم وقررت أن تتجاوز وجبة الفطور. وضعت على عجل برتقالتين وكتابا في حقيبة الشاطئ. لم تكن تخطط لقراءة الكتاب (الذي لم تكن منتبهة حتى إلى عنوانه). كان درعا لها على الشاطئ، أو في المطعم، ليشير ليس فقط إلى اختيارها بنفسها لوحدتها بل إلى حاجة شخصية عميقة، إلى أنها كانت مرتاحة لرفقة نفسها، توليها الأهمية وتفضلها على تعرّف سطحي ما.

وضعت مكياجاً كاملاً وغادرت الغرفة كالعادة بالبيكيني وروب صباحي، مع قبعة من القش ونظارة سوداء وحنائها المطاطي الناعم الذي لا تستغني عنه.

في منتصف الطريق بين الكوخ والسلم نزولا إلى الشاطئ قابلت الحارس الذي قادها إلى حادثة الليلة الإكزوتكية. لم تشعر بانزعاج إزاء شكّه بتجربتها الليلية، مجرد استغراب بارد لكونه مازال في العمل.

- اضطررت إلى مواصلة العمل، مشكلة مع الموظفين، أوضح قبل أن تبادر نانا لتسأله عن السبب في عدم حدوث تغيير

بالحراسة بين الفريق الليلي والنهاري. بوعي لما يعنيه أمان السياح وبالتالي صناعة السياحة. واصل جولته الثابتة مع قوله بلطف: «يوما ممتعا».

أسرعت نانا متابعة في الاتجاه المعاكس صوب سَلَم الشاطئ. كانت تتطلع بفرح مثل طفل للجلوس على الشاطئ لقضاء فترة الانتظار متخيلة ما سيبدّدان الوقت فيه هي ومارياما. أوشكت أن تنزلق على درجات السَلَم التي كانت ضيقة قياسا بقدميها الأوروبيتين الكبيرتين، لذا تعين أن تنزل بقدمها بالعرض. فكرت في موقف حدث في اجتماع للأزمة المالية عُقدَ في هونج كونج.

- إنهم يطولون ويطولون، سمعت رجلا صينيا غاضبا يقول عن البعثة الأوروبية التي فاقت المشاركين في المؤتمر. عضو من البعثة البريطانية قال: «آسف سيدي، كثير من الفيتامينات» الأمر الذي نشر بعضا من المرح بين الواقفين قريبا. مشترك روسي صاح: «أوقفوا التمويل، لا مزيد من الفيتامينات للأوروبيين».

ضرب وجه نانا ضباب البحر الحاد. كان عليها أن تتشبث بقبعتها التي اشترتها من المكسيك خلال رحلة عمل. احتاج الشاطئ فجأة. انزاحت كراسي الاستلقاء التي انقلبت هنا وهناك. كان الهواء ثقيلًا بحبات الرمل التي ضربت نظارتها الشمسية. تناولت ربطتها الحريريّة ولفّتها حول أنفها وفمها. كان هناك زوج من الصيادين يجران قاربهما إلى الشاطئ. ذهبت نانا إليهما. كان هناك سمك مفضض رخو في قاع القارب الخشبي الطويل الضيق.

- هل تعرفون بنتا اسمها مارياما؟ بدأت بتلمس الوضع.

- نعرف المئات، قال مرة واحدة.
- هناك واحدة، تباع الفاكهة والمكسرات هنا على الشاطئ.
- أصرت نانا.
- هي على العموم لن تظهر اليوم، نظر الصيادان بوجه قاتم إلى البحر من حيث تهب الرياح العاتية.
- بعيدا بمحاذاة الشاطئ كان زوج من السياح يقاتل للتقدم بوجه الرياح المضادة لهما.
- هل تستمتعين ببلدنا؟ قال أحد الصيادين.
- أجل، جدا، قالت نانا وهي تتفحص الطريق إلى الشاطئ المحلي، الذي خمنت مجيء مارياما عبره.
- إذن أنتما لا تعرفان تلك البنت الصغيرة؟ مارياما؟ ألحت نانا بسؤالها. الرجلان كانا منشغلين بالشباك المنشورة على الشاطئ.
- هي تشبه الأطفال المتسولين، بشرة رمادية، شعر رمادي، بدلة متسخة وأقدام وسخة.
- هذه يمكن أن تكون أي بنت من البنات على الشاطئ.
- لا، البنات الأخريات نظيفات ومرتبّات، صاحت ليعلو صوتها على الرياح. نظر الرجلان إليها وهما يهزان رأسيهما.
- المَعذرة لهذه العاصفة، لا يجب أن يكون مثل هكذا جو الآن، هذا ليس طبيعيا في هذا الفصل من السنة، قال أحدهما بمنتهى الجدية. نظرت نانا فجأة إلى نفسها بعينيها. لا بد أنها تبدو مضحكة بربطتها الحريرية الخضراء التي غطت وجهها بدءا من النظارة الشمسية وإلى أسفل، إرهابية بروب صباحي. لم تعرف كيف تواصل الحديث حقيقة وسألت إن كان زوج السمك الصغير

في قاع القارب هو حصيلة صيد اليوم. أدار الصيادان ظهريهما لها معترضين وبدأ نقاش داخلي صاخب.

أدركت متأخرة أنها وبتعليقها العفوي حول صيدهما البائس قد جرحت كبرياءهما وكانت بنفسها السبب خلف الإهانة التي لم يمكن تلافيها بعد ذلك.

تابعت السير مشيا على طول الشاطئ بعد أن تركت وحيدة. على الرغم من الشمس المشرقة جعل العصف من المكان بقعة فارغة مهجورة. زحف السياح متجمعين حول مسبح الفندق. الصيادون كانوا قد ذهبوا إلى بيوتهم والناس المحليون حرصوا على الابتعاد احتراماً للعاصفة التي كانت في طريقها من المحيط الأطلنطي. لم تفقد الأمل في أن مارياما ستظهر على الرغم من أنهما لم يتفقا على مكان ووقت محددتين.

جالت على الشاطئ نحو ساعة من الزمن. في السماء العملاقة من فوقها كانت الغيوم قد بدأت تتجمع فوق البحر سودا منذرة، بينما كانت على اليابسة لاتزال بلون رمادي فاتح. لن يتطلب الأمر إلا بعضاً من الوقت حتى تزخ السماء المطر. خضت حدة العاصفة بعض الشيء في نفس محبوس مشؤوم. الشاطئ كان خالياً من الناس تماماً. حتى الجنود انسحبوا. لم يكن هناك من بشر غير نانا بزيها الإرهابي الغبي. قررت أن تذهب لتغير ثيابها إلى لباس أكثر ملاءمة. بنطلون سميك من الجلد، جزمة من الجلد طويلة وذلك الجاكت الرياضي الخفيف المقاوم للريح والماء. قفزت درجات سلم الشاطئ بقدر ما سمح لها ذلك الروب الصباحي غير المريح. تذكرت في منتصف الطريق إلى أعلى أنها

نسيت وأبقت قاصة النقود والحلي مفتوحة حين استلّت بعضاً من أوراق الدالاسي النقدية لاستخدامها عندما تلتقي مارياما. انطلقت راكضة على المرج إلى الكوخ.

وصلت مقطوعة الأنفاس. فتحت الباب ودخلت إلى الغرفة المنظمة التي تعبق برائحة الكلور. كانت القاصة مبنية في الجدار بين طاولة الكتابة وخزانة المدخل. بابها كان شبه مطبق. كانت متهينة لتوقع الأسوأ ولم تجرؤ على فحص المحتويات. كل شيء كان في محله، بطاقة الائتمان، الجواز، النقود والحلي. أي أمانة! يؤلها تفكيرها السلبي في الفقر الذي يعيشونه. أطبقت الباب وأقفلته بالشفرة. جرى العرق من جسدها. اضطرت إلى أخذ حمام سريع لكنها لم تتمكن من أن ترتخي. كانت تخشى أن تكون مارياما تبحث عنها على الشاطئ. كانت تسمع صوتها الناعم يناديها عبر خيوط ماء الدوش الناعمة. أسرع لتضع عليها قطع الملابس التي ألقته على السرير. لفّت الربطة الحريرية حول شعرها. شعرت بأن الجزمة ضيقة، فقد اعتادت قدمها الحرية في حذاءها المطاط الناعم.

حالما نزلت إلى الشاطئ انفتحت السماء وهطل المطر في حبال متينة. وقفت نانا تحت سقيفة وظهرها تجاه التلة الترابية التي حجبت الفنادق عن الشاطئ الذي فقدت السيطرة عليه. وضعت حقيبتها على رأسها لتحميها من المطر. كانت تبحث عن القامة الصغيرة على الرغم من أن عقلها يقول لها إنه من غير المحتمل أن تظهر مارياما في جو يمنعها من التعاطي مع السياح. ظلت واقفة ولم يكن لها غير أن تترك المطر يهطل وينزل داخل تلافيف

عقلها الذي كما يقال نسخة مصغرة من الكون. (*) «Il pleure dans mon coeur comme il pleut sur la ville» كانت صورة ملائمة للسوداوية التي شعرت بها بلا حد، حيث تقف مثل فأر غرقان وماء المطر يسوط الرمل.

أصاب التشنج رقبتها وظهرها بسبب الوقوف فمشيت متابعة بمحاذاة التلة الترابية والحقيبة مازالت على رأسها ونظرتها مشخصة صوب خط الأفق الواطيء الذي رسمته أسطح الصفيح خلف الشاطئ العام المحلي. مرّت شواطيء الفنادق الواحد تلو الآخر، بكراسيها المبتلة التي تم صفّها في صفوف ومراتب ووجهها صوب البحر والشمس المختفية. اقتريت نانا أخيراً من الشاطئ المحلي وأبطأت في مشيها. كان أمامها ما يشبه محلاً للقمامة وليس شاطئاً للسباحة.

قائمة محدودة كانت قد عاندت المطر وراحت تنبش في الزبالة بدقة وانتظام، تقلّب وتدور كل قطعة قمامة قبل أن يتخذ القرار إن كان سيتم إرجاعها إلى الرمل أم إلى كيس البلاستيك.

الحاجز الأمني صار أوطأ وأوطأ وانتهى من حيث ابتدأ الشاطئ العام. في الجزء الأخير المنخفض من الحاجز كانت قد حُفرت جحور في الحاجز الترابي. بعضها بعمق بضعة أمتار فقط. وأخرى كانت عميقة جداً حتى ضاعت في الظلمة. سمعت نانا أحداً ينادي باسمها. نظرت في بعض الجحور ولكن لم يكن هناك من إشارة لحياة. نفضت عنها الصوت مثل وهم. لم تعرف ما الذي ستفعله. لم تكن لديها الجرأة لتواصل داخل الشاطئ

(*) يبكي في قلبي كما تمطر على المدينة.

المحلي وهي تخوض في الزبالة إلى الحجل. المطر الشديد هداً،
ثم تبعته ريح رطبة. علّقت نانا حقيبتها على كتفها وقررت العودة
إلى منطقة الفندق والتفكير في كيفية قضاء الوقت بقية اليوم.
في طريق عودتها مرّت ثانياً بالجحور الغامضة من دون أن
تواصل التفكير فيها. وضعت خطة لتناول العشاء مع بن وبياتريس
في المساء، ولم تركومة خرق متوقعة في فتحة أحد الجحور قبل
أن تشعر بشدّ طرف بنطلونها وتسمع صوت مارياما المؤنب.
- انتظرتك طيلة ما بعد الظهر.

ناولتها نانا يدها لتساعدها في الوقوف على قدميها. لقد
بدت هياتها أكثر رثالة من اليوم الذي قبله. كانت مبتلة تماماً
وقد لصق ثوبها على جسدها الذي كان مجرد جلد وعظم.
صينييتها قد انقذت صوب الشاطئ مثل قطعة قمامة. تناثرت
بضاعتها القليلة حول المكان في الرمل خارج فتحة الجحر.
- ما الذي حدث؟ سألت وهي توشك على لفّ يدها حول كتف
مارياما لكنها سحبت جسدها. لأنها لم تعتد الملاطفات أم لأنها
تعرضت إلى تقرب الكثير منها؟

- لقد أمسكوا بي.

- من الذي أمسك بك مارياما؟ سألت نانا بحذر. هزّت
مارياما رأسها. فكرت نانا أنهم ربما الجنود الذين عاقبوها بسبب
إصرارها على اقتحام منطقة الفندق أو الأولاد الكبار الذين
أطلقت عليهم أختها الصغيرة المزعجين.

- هل لديك ما يؤكل؟ كان وجه مارياما المدور شاحبا ومتقلصا.
لم يكن لدى نانا غير البرتقالتين ووافر من الدالاسي. تناولت

برتقالة من الحقيبة وسألت مارياما إن كانت تود أن تقشرها لها.
هزّت مارياما رأسها موافقة وجلست منهكة على الرمل. قشرت
نانا البرتقالة بسرعة وفاعلية بسكين الفاكهة التي جلبتها معها.
أخذت مارياما، من دون قول كلمة، قطعة البرتقال ومدّت يدها
بأوتوماتيكية للتي بعدها. قضت على البرتقالتين. وعندما
انتهت بقيت في مكانها تبذل بضياغ أمامها.

- بيزنس، سيدتي، ضاع شغلي، قالت.

- سأشتره كله... التقطت نانا من حقيبتها بضع مئات من
الورق من عملة الدالاسي. نظرت مارياما بضعف إلى الورق
المتسخ برائحته المنفرة.

- ... تعويضا لمبيعك، واصلت نانا بتواضع.

- وماذا عن صينيّتي؟ عارضتها مارياما بحزن.

- سأعطيك كل ما يمكن شراؤه بالنقود. أكدت لها مارياما.

- ليس الصينية، إنها تعود إلى خالتي، عائلتي. ستغضب عليّ

كثيرا وستضريني بقوة.

- أنتِ تعملين لدى خالتكِ إذن؟

- هي تذهب إلى السوق لتشتري الفاكهة والمكسرات التي

أبيعها على الشاطئ، همست مارياما ونظرت برعب لما حولها.

- لم أفهم تماما، هلا توضحين لي؟ شجعته نانا. كان لديها

القليل من الشك بشأن مارياما التي تجعل من الموقف دراميا عن

عمد من أجل أن تدفع لها المال.

في الوقت ذاته احتقرت نفسها لسوء ظنها الوضيع تجاه

طفلة فقيرة تقاوم من أجل أن تعيش وربما تعيل أسرتها فوق هذا

عن طريق خدمتها للغزو السياحي من عبدة الشمس.

- أنا أستيقظ قبل شروق الشمس لكنس بيت خالتي وتنظيفه
وعليّ إيقاظ الصغار وإطعامهم إن كان لهم طعام. بعدها أذهب
إلى المدرسة. وأبيع الفاكهة والمكسرات بعد الظهر على الشاطئ.
وعندما أعود إلى البيت من الشاطئ أعدّ الطعام وأعتني بالصغار.
أعمل كثيرا، ليس لي وقت كثير لأعمل واجباتي المدرسية. خفضت
مارياما بصرها منكسرة.

- هل تذهبين حقا إلى المدرسة مارياما؟ عمركِ خمسة عشر
عاما وسيصير ستة عشر عن قريب أليس كذلك؟ سألت نانا
تستنطقها.

- أنا أذهب إلى المدرسة، في الصف العاشر. نظرت إلى نانا
نظرة ثابتة.

- من الذي يدفع تكاليف مدرستك؟

- أنت، سيدتي، أتمنى، صدرت سريعة من فم مارياما.

- إن قررتُ مساعدتك، وأنا أؤكد على «إن»، عليك أن تساعدينني
في الاتصال بمدرستك.

- لا، عليك أن تدفعي إلى خالتي، هي تعمل في بنك. لديها
حساب بنكي. صوتها كان بنبرة حادة وعدائية.

اقترحت نانا على مارياما أن ترافقها إلى حيث السلم عودة إلى
فندق جولدن باي. هزت مارياما رأسها استسلاما وشرعت تجرّ
قدميها وهي تتبع نانا التي انزعجت من سير مارياما من خلفها
فتوقفت تنتظرها. بدت مارياما في غاية التعب والتعاسة. قالت
لها نانا إن بالإمكان أن يفترقا الآن إن لم تكن لديها طاقة على

مرافقتها طوال الطريق وعرضت عليها أن يتواعدا من جديد للقاء في الغد. تحول لقاؤهما إلى علاقة عمل حساسة طالما صارت نانا بمنزلة مستثمر الآن. أصرت مارياما على مرافقتها إلى السلم. كان الشاطئ مازال فارغا و«خطرا».

- في العام الماضي تم طعن زوجين هولنديين، ذكرتھا الحارسة الصغيرة بذلك.

ولكن الجنود بدأوا بتطهير الشاطئ، أكدت لها ناسية أنها هي ذاتها تعد أيضا هدفا من قبلهم.

- أين والدك؟ فتحت نانا موضوعا جديدا.

- يعيش والداي مع إخوتي الصغار في قرية بعيدة جدا. فقراء جدا، كل شيء صعب.

- لم لا تكونين مع عائلتك؟

- أمي، هي الزوجة الثانية، مريضة. لا يمكنها أن تعتني بي. لهذا فأنا أعيش عند خالتي. هذا جيد بالنسبة إلى تربيتي وسأتعلم بشكل أفضل بما يخص شغل البيت. الوالدان يكونان ناعمين مع أولادهما. يحبانهم كثيرا ولا ينتبهان جيدا إلى تصرفاتهم السيئة.

- ولكن ألا عليك أن تهتمي بمدركستك بدلا من عملك على الشاطئ؟ سألت نانا ناسية أنها في أفريقيا.

- البيزنس ضروري لعائلتي. نحن فقراء كما ترين.

- تقصدين عائلة خالتك؟ مادلين ليست أختك ولكن ابنة

خالتك؟

- إنها العائلة. ونحن أختان، أصرت مارياما.

- من الذي يدفع لمدرستك؟ شعرت نانا بأنها الممول القادم،
لها كامل الحق لتطالب بمعرفة ميزانية مشروع المدرسة.
- خالي، الرجل الكبير، قالت مارياما بتلقائية.
- خالك؟ واصلت نانا تحقيقها. أومات مارياما برأسها.
- هل تدفعين نقود المدرسة مما تحصلين عليه من عملك على
الشاطئ بعد الظهر؟ طرحت ذلك كتوضيح محتمل لـ «بيزنس».
- الرجل الكبير لم يعد قادرا على دفع تكاليف مدرستي، قالت
مختصرة.

- هل تذهبين إلى المدرسة فقط قبل الظهر؟
- أنا أذهب إلى المدرسة، أكدت مارياما. لم يكن هذا جوابا ولكن
نانا لا تود أن تضغط عليها. لم تكن كذلك واثقة فيما لو كان ذلك
مجرد مقولة جاهزة تُسلمها مارياما إلى السياح ذوي القلوب
الطيبة، كتصنيف انتمت إليه نانا الآن. كان لديها خيار بين أن
تقلل من شأن الحقيقة وتدفع لها مبلغ تمويل مناسباً تريح
به ضميرها. أو أن تنسى مشروع المساعدة هذا وتترك مارياما
للسياح الذين يأتون بعدها وتعود إلى بلادها من دون أن تفكر
فيما خلفها. كانت لديها فرصة جديدة كل أسبوع لتقتنصها
وتختطف واحداً أو أكثر من المتبرعين.

- ستتوقف خالتي قريباً عن العمل في البنك، قالت ومن
جديد كانت قد تخلفت في المشي. تكاد لا تستطيع جرّ قدميها.

- لماذا؟

- هكذا، قالت بغضب وضربت الرمل بحدائنها المطاط بحجمه

الكبير جداً.

- عليك أن تفهمي أن عليّ أن أعرف وضعك الاقتصادي إن مؤلت دراستك، قالت نانا بصبر تربوي. شعرت بأنها تشارك في شبكة من الحقائق والأكاذيب الخفية. بقيت مارياما صامته. ربما لم تفهم منطقها أو أنها حرصت على ألا تنفضح، فكرت نانا مع نفسها. من أين لها هذا الشك المزروع؟ هل هو في الجينات أم في تربيتها؟

افترقتا عند سلّم الفندق واتفقتا على اللقاء في الغد بعد الظهر. وكما حصل في اليوم الماضي لم تشأ أو لم تستطع مارياما أن تعطي وقتا محددا للقاء. في المقابل اقترحت أن تسلكا الطريق ذاته كما فعلتا ليلتقيا عند طرف الشاطئ عند سلّم فندق نانا. قالت نانا إنها ستكون على الشاطئ بعد الثانية ظهرا وذكّرتها بأن سفرتها لم يبق منها سوى ثلاثة أيام وتنتظر من مارياما أن تعدّ لزيارة مدرستها من أجل عقد اتفاق حول دفع تكاليف دراستها مباشرة إلى إدارة المدرسة. ذلك كان الأكثر عقلانية وأمانا، أوضحت نانا لها مع شعور بأن كلماتها سقطت على حجر.

دسّت بالإضافة إلى ذلك بعض النقود الورقية في يد مارياما كمقابل لحرص مارياما على وصولها «سائلة» إلى فندق جولدن باي.

في اليوم التالي كان الطقس جميلا واقتضى أن تعاش الحياة تماما. نزلت نانا مبكرة إلى الشاطئ مع منشفتها كسلاح واحتلت كرسيا في الصف الأول مقابل البحر. لم تستغل ما احتلته إلا بعد الغداء وبذلك قصّرت من فترة الانتظار حتى تطل مارياما في فترة ما بعد الظهر كما هو مؤمل بعد أن تنتهي من عملها

مع خالتها. جلست في مكانها في الساعة الثانية كما وعدت ولم تتحرك من مكانها. كانت متوترة مخافة أن تخطئ إحداهما الأخرى. صارت مارياما جزءا من فهمها لنفسها. فكرة غريبة وافتها وهي جالسة على كرسي الاستلقاء بروبها الصباحي المسدود بينما كانت ترشف الماء من القنينة التي جلبتها معها وتتصفح رواية اشترتها من المطار من دون أن تقرأ. أجل، فكرة أنها وجدت روحها في مارياما. «الرابط المفقود»، ليس بمفهوم دارويني ولكن المربع المفقود الذي بحثت عنه في تطورها الفردي نحو «إنسانة كاملة» والذي كان تعويذة مدّربها في الشركة التي تعمل بها. فجأة وافاها شعور صاف بأن مارياما كانت كل ما لم تكن هي عليه، نصفها العذري الذي انفصلت عنه منذ بدء الخليقة.

كانت نانا شاردة بعيدا في تأملات فلسفية عندما فاجأها بن وبياتريس اللذان جاءا يتمشيان يدا بيد على الشاطئ ودارا يقصدانها حيث كانت. كان من الواضح أنهما تفرّغا لما بعد الظهر. نهضت نانا وحيّتهما. تعاملهما الطيب الباعث على الثقة كان ذاته عندما كانا في المطعم للعشاء. اقترحا أن يلتقيا لاحقا في الفندق وأخبراها في الوقت نفسه أنهما سيسافران في الغد. لقد أنهيا مهمتهما وبالإمكان الآن ترك المسؤولية لنظيرهما المحلي في وزارة الزراعة.

كانا يودّان رؤية نانا لتوديعها قبل أن يفترقوا. شكرتهما لدعوتهما. أكمل الزوجان المشي على الشاطئ بالاتجاه المعاكس لخطة نزهتها مع مارياما.

ظلت نانا جالسة وحدها. هي تكره الانتظار. الدقائق زحفت

مثل حلزون. قارب العصر على الانتهاء وأغلب نزلاء الفندق تركوا الشاطئ. مَرَبها بعض الفرسان يمتطون أحصنة قصيرة من دون سروج بإيقاع متمهل. كانوا يسيرون على حافة الشاطئ حيث الرمل أكثر ثباتاً متوجهين صوب غابة القروود وغروب الشمس. يُسِت نانا من رؤية مارياما وأقرت أن مغامرتها الأفريقية قد انتهت. حرصت دوماً على توقع الأسوأ لئلا تنتكس خيبة من توقعاتها. شعرت في الوقت عينه باللمسة الأنعم تحطّ على كتفها ونفخة في رقبتها كأنها آتية من روح.

كانت مارياما ترتدي ذات التنورة المنقوشة البالية كبقية الأيام ولكنها أتت من دون صينية البيع على رأسها. لقد وقفت وانتظرت بفارغ الصبر لكنها لم تتمكن من الانطلاق بالسرعة المطلوبة من المكان. كانت تخشى أن يمسك الجنود بها ويضعوها في السجن، همست لنانا التي تجنبت الانفعال مع بوحها الدراماتيكي. جمعت بسرعة أشياءها وتركت لمارياما أن تحمل سلة النزهة التي حجزتها من المطعم كي لا يتكرر ما حدث قبلاً.

سارتا معاً يدا بيد تجاه الحرش بشجيرات المشوكة مقابل النتوءات الصخرية الواطئة. كانت الأمواج تضرب الشاطئ خفيفاً وقد تبعهما صراخ طيور البحر مثل كواليس صوتية تزين المشهد وحدها. كلما ابتعدتا عن الفندق ازدادت مارياما ارتخاء.

- خالتي تدعوك إلى البيت غداً، قالت بحماسة.

- ولكن المدرسة مارياما، يجب أن أتحدث مع أحد من مدرستك قبل أن أسافر.

- ليس المدرسة، خالتي... كررت مارياما منزعجة.

- شكرا للطفها، عليك أن تسلمي عليها وتشكريها عني.
- خالتي ستشرح لك عن المدرسة.
- ولكن متى أزور مدرستك إذن؟
- في اليوم التالي، قالت مراوغة.
- أكيد مارياما؟
- أكيد، وعصرت يد نانا بشكل طبيعي.
- أريد أن تفهمي أنني أود مساعدتك ولكن بشكل منظم، تابعت نانا بوثوق.
- لم تنم الليل كله وقد قررت أخيرا أن تدفع تكاليف دراسة مارياما لمدة سنة إن توفقت بعقد اتفاق مع مدرستها. تمت من كل قلبها أن تكون مارياما قد صدقت بكلامها حول المدرسة. ألا تكون قد خدعتها وجعلت منها سائحة غبية ساذجة.
- أنت راعيتي سيدتي؟ قالت بفرح غامر.
- نعم، أود أن أكون راعيتك، شرط أن تكوني في المدرسة.
- لا عليك إلا أن تسألني خالتي عن المدرسة. هي تهتم بما يتعلق بمسألة تكاليف المدرسة، أكدت مارياما. لم تفهم أو لا تريد أن تفهم شروط نانا للتكفل بمصاريف دراستها. عليها أن تثق برغبة خالتها للتعاون معها.
- ما اسم خالتك؟
- روزي.
- اسم جميل، كم عمرها؟
- كبيرة.
- ولكن ما عمرها؟

- لا أدري... كبيرة، قالت متضايقّة.

جلستا على منشفة نانا في طرف الشاطئ توليان ظهريهما للشجيرات المشوكة. فتحت مارياما سلة النزهة ووزعت الوجبة في صحنين وضعا على مفرش مربع من الخام. اثنان من ساندويتش خيار، واثنان من السالمون وآخران من الجبن، وكأس بعنق طويل ونصف قنينة نبيذ أبيض لنانا وكولا لمارياما. تركت كعكة الخوخ وكيس حلوى في السلة.

شريتنا نخبا وشرعنا بأكل الغداء المتأخر. تلفتت مارياما حولها كأنها بانتظار أحد أو مخافة لمجيء أحد.

- هل تبحثين عن ابنة خالتك؟ سألت نانا وهي تقضم ساندويتش السالمون اللذيذ.

- نحن نلتقي بعد العمل هنا.

- لم تعيشين عند خالتك؟

- إنها بحاجة إلى المساعدة في البيت وبإمكاني الذهاب إلى المدرسة. في القرية هناك مدرسة ابتدائية فقط. بدت مارياما فجأة بالغة متزنة.

- ولديك الوقت لعمل الواجبات المدرسية؟

- بالتأكيد سيدتي، مبكرا جدا في الصباح.

- ألا تشتاقيين إلى والديك؟ استفسرت نانا. قفزت مارياما ورمت بالساندويتش بحركة عنيفة بعيدا في الماء.

- لا أريد أن أجيب عن كل أسئلتك الغبية. وقضت أمام نانا ويدها إلى الجانبين وصاحت كأنها الغضب عينه.

- أنتم السياح تسألون كل الوقت عن كل شيء.

- آسفة مارياما اعذريني.
- ليس عندك شيء تقولينه غير الأسئلة، أسئلة، أسئلة، كُرتت وهي على حافة الهيستيريا.
- ولكن ما الذي تريدينه؟ قولي، قالت نانا مفزوعة.
- ليس لديك حق أن تعرفي أي شيء عني.
- تعالي واجلسي هنا مارياما. لا أريد غير أن أكون راعيتك، هذا كل ما في الأمر.
- أنا أجالسك وأنت تدفعين لي في المقابل، ولكن لن تحصيلي على أي شيء عدا ذلك، صرخت فاقدة السيطرة على نفسها.
- لا مزيد من الأسئلة، ولا مزيد من الأجوبة. أنهت بقولها.
- اهدئي مارياما دعينا ننظر إلى الأمر بشكل عملي. كيف سأصل إلى خالتك في الغد؟ الوقت والمكان؟ سأستقل التاكسي من الفندق.
- أراك في محطة الباص عند سوق سيرا كوندا. هدأت مارياما.
- أين تسكن خالتك؟
- خالتي هي الزوجة الأولى، لديها بيتها الخاص. ستشعرين كما لو كنت في بيتك عندها. أوضحت مارياما.
- متى نلتقي؟
- حوالي الخامسة بعد الظهر. سنواصل بالتاكسي إلى خالتي، سأدّل السائق على الطريق، تابعت.
- هلا أعطيتيني عنوان روزي؟ قالت نانا. نظرت إليها مارياما نظرة يائسة.
- دعينا نعد. أنا مشغولة، قالتها بنبرة عمل. جمعت الأغراض

بسرعة وفاعلية ووضعت الملاعق والشوكات والصحون في السلة.
- ولكن ألا ننتظر ابنة خالتك، قاطعتها نانا وظلت جالسة مكانها. لم تكن لديها رغبة في ترك الهدوء الرائع والمنظر اللانهائي للمحيط الأطلنطي.
- لن تأتي مادلين اليوم، قالت مارياما باختصار وحملت السلة.

- مادلين؟

- نعم، مادلين، اسم فرنسي. جدتنا مسيحية، أخبرتها بنفاد صبر وأسرعت بالانطلاق من دون أن تتمهل لتنتظر نانا. لم تكن هناك يد بيد هذه المرة. كأنها كبرت بضع سنوات وغادرت طفولتها خلال الساعة.

- مادلين هي ابنة خالتك، ابنة خالة روزي، صح؟ سألت نانا وشعرت كأنها أمية.

- أكيد. قالت مارياما بوسع صدر.

- مادلين لديها مشاكل. تابعت

- أية مشاكل.

- خالي. إنها بنت جميلة، هو يريد لها أن تعمل لديه.

- أن تعمل بيزنس على الشاطئ؟

- العمل في المدينة، البنات الجميلات لديهن مشاكل أكثر

بكثير من القبيحات. قالت بنضج وخبرة حياة.

- اضطررت إلى البحث عنها، إنها بحاجة إلى مساعدة،

واصلت مارياما وزادت من سرعتها. بدأت نانا تشعر بالندم لأنها

تركت لنفسها أن تنسحب إلى الأسفل بهذه السورة التي كانت

تدور أعمق وأعمق نازلة بها إلى ظلمة بلا قاع.
كان عليها أن تسرع في المشي لتلحق بمارياما التي قاربت على
الطيران فوق الرمل الثابت لحافة الشاطئ.
- ما الذي حدث لمادلين؟ سألت نانا لاهثة.
- لا تسألي، أمرتها مارياما بصوت حازم، سأعثر عليها.
- بإمكانني مساعدتك.
- لا مساعدة. خالي سيقْتلك. صوت مارياما حاد الجرس
تجمع في نبرة حاسمة.
- ماذا عن خالتك؟
- لا يجب أن تذكر شيئا لها. أعطيتها فقط نقود الستة أشهر
القادمة للمدرسة، قالت مارياما وانطلقت في الرمل بخطوات
حاسمة.
افترقتا مسرعتين عند جيش كراسي الاستلقاء المتقدمة
للفندق. أعطت نانا ضمة نقود أكثر وأكبر لمارياما من اليوم
الماضي. تقبلت المبلغ بملامح محترف وطلبت من نانا الحضور
عند محل توقف الباصات في الخامسة بعد الظهر وراحت تركض
بأقصى سرعتها صوب الشاطئ المحلي.
جلست نانا في البار تنظر سارحة في لائحة المشروبات. كانت
ترتدي زي حفل مبهرجا اشترته من محل راق لبيع الملابس
المستعملة في لندن. تنورة من التافتا بلون أخضر مائي، فوقه
تول أسود بالترتر مع كارديكان أسود ضيق بأكمام قصيرة. لم
يدعها كل من بن وبياتريس أن تنتظر طويلا. حيّوا بعضهم
البعض بحفاوة وانتقلوا إلى إحدى الطاولات المدورة وغطسوا في

الأرائك ذات اللون الأحمر الغامق.

كانوا الضيوف الوحيديين. ترجى بن النادل أن يخفّض من صوت الموسيقى الآفرو التي صمّت الأذان ووضع كرّاس يحمل لوغو بتصميم أرابيسك لحرفي الباء متعاكسين الواحد في ظهر الثاني.

- هذه شركتنا الاستشارية. ناول بن الكرّاس لنانا. ارتاحت لتعرّفها إليهما. كانت لديها رغبة في التواصل معهما وتأمل بتمتين صداقتهم.

- شركة صغيرة بطموح كبير، تابع بن. نظرت بياتريس إليه بحب. كان كلاهما يرتدي زيا خاكيا. تصفحت نانا الكرّاس.

- نحن بحاجة إلى استشاري اقتصادي، قالت بياتريس بحيادية.

- أليس ذلك في مجالك؟ رفع بن كأسه.

- أنا لست مثالية. قالت نانا بصوت خفيض.

- سمّوها إذن هواية، قال بسرعة بديهية.

- نحن لسنا مثاليين، نحن واقعيون، ونود أن نواصل تعاوننا مع المنظمات الإنسانية الكبرى عبر المساعدات الخارجية للتنمية إن استطعنا أن نثبت لهم أن مشاريعنا معقولة ومريحة على المدى البعيد.

- ولكن لمّ أنا؟ سألت نانا.

- هناك شيء ما يقول لي إنك المناسبة لذلك، إننا من عائلة واحدة إن جاز القول، هل أنا محقة عزيزتي؟ تكاد نظرة بياتريس إلى نانا تكون أمومية. قدّرت نانا أن بياتريس تكبرها بعشر سنوات

كأقصى حد ولكن الأمومة أو أن تكون أمومية أمر لا يحدده العمر،
بإمكان الأطفال أن يكونوا أيضا أموميين.

- إنها مشاعر نادرة، حدثت نانا نفسها.

- مثل نبتة حساسة يجب أن نعتني بها ونرعاهها، أضافت
بياتريس.

- جدية أنثوية أكثر من اللازم، همهم بن.

- نحن لسنا متزوجين، نحن شركاء عمل. نظرت إليه بوله.

- إنه زواج أيضا بشكل ما، أكد بن، حياتنا مرهونة بالعمل أولا
وأخيرا.

- ما هو تصوركما للتفاعل بين شركتكما الاستشارية ومنظمات
المساعدات خلال الخمس سنوات المقبلة؟ نانا المحترفة سرعان ما
شرعت بالعمل.

- إذن أنت تفكرين في تقديم خدمة لنا كأصدقاء؟ أشرق وجه بن.

- هل هناك من شيء عليّ الإلمام به عدا ذلك؟ قالت بفاعلية.

- تجدين كل الأوراق مع متعلقاتها جميعا في الكرّاس.

- نتطلع إلى زيارتك لنا في لندن. جففت بياتريس العرق

على جبهتها. بدت شاحبة بشكل غير طبيعي. نظر بن إليها
نظرة جانبية بقلق.

- بياتريس ليست قوية البنية كما تبدو. قال.

- أعتقد أنكما ستستمتعان معا في الحديث من دوني. نهض

بن من مكانه.

- لا، ابق، لا أستطيع البقاء وحدي، قالت بياتريس. ما جعل

نانا تجفل. هل تشعر بياتريس بالوحدة بصحبتها؟ هل هي

لا شيء؟ أخذت نانا تتصفح الأوراق. شعرت بأنها فارغة، ويدوار في رأسها.

- خذي وقتك الكافي قبل أن تقرري، قال بنُ لنانا. نهضت بياتريس ووقفت إلى جانبه. كم كانا ملائمين لبعضهما. كم كانا زوجين جميلين، متزوجان أم لا، فكرت نانا وقالت إنها ستدرس الوثائق وستعلمهما عندما تحسم أمرها.

- إنك صديقة حقيقية، قالوا معا.

- في العام المقبل، لندن، قالت بياتريس برسومية كأنها كلمة الدخول.

- العام المقبل، لندن، أتت نانا على تكرار ذلك بتلقائية. تأثرت جدا عندما غادرا. خيبة تملكتهما ولم تستطع السيطرة عليها. ظلت جالسة وطلبت مشروباً مجدداً لتصحوا. لاحظت أن كلا من بياتريس وبن لم يمسا كأسيهما على الطاولة. كانت نسخة أخرى أكدت شعورها بأن الله والناس قد تخلوا عنها.

لم تكن تدرك أنها قد علقت الكثير من الآمال عليهما. ما حقيقة تلك الآمال؟ هي لا تعرف. لم يعطها بن وبياتريس أي وعد بما يخص الصداقة. لكنهما أظهرتا لها الثقة بالعرض الذي يدعوا للإطراء في أن تكون الاستشارية الاقتصادية لهما، المهمة التي كانت من ضمن اختصاصها والتي كانت تود التفكير بشأن قبولها. العام المقبل، لندن، تمت في سرها وطلبت كأساً أخرى لتكنس اليوتوبيا الجديدة التي فكرت بها.

في الصباح التالي علقت لوحة «بدون إزعاج» على مقبض

الباب وبقيت في غرفتها حتى يحين موعد ذهابها بالتاكسي إلى سيرا كوندرا. هي في حاجة إلى بعض من الهدوء والسلام لكي تنهي نفسها للقاء مع روزي. روزي اسم جميل يعبق بالورد والشعر. زحف وقت ما قبل الظهر ببطء. استنفدت كل ما كان لديها من موالح وماء وطلبت بتجهيز جديد. استلقت على السرير تقلب صفحات الرواية المملة التي جلبتها معها، المادة الوحيدة للقراءة عدا مجلة «الوول بيبير» و«فوك» واللتين علكتهما منذ مدة. تتمنى نانا أن تقرّبها الخالة من حقيقة الأمر بشأن مدرسة مارياما. قضت ما بعد الظهر في اختيار الملابس المناسبة. هي لا تود أن تظهر غناها ولكن من الناحية الأخرى لا تريد أن تبدو متواضعة ما يضعف سلطتها.

تركت نانا غرفتها وذهبت تجاه الممر الذي يؤدي مباشرة إلى مدخل منطقة الفندق. كانت قد طلبت قدوم تاكسي في الساعة الرابعة. لم يكن الطريق بعيدا إلى سارا كوندرا ولكن الوصول مبكرا أفضل من الوصول متأخرا. لقد دفعت مبلغا كبيرا للسائق لتتمكن من انتظار ظهور مارياما ليتوجهوا بعد ذلك إلى الخالة روزي. انتظرها التاكسي تماما وفق الاتفاق خارجا عند المدخل.

جلست نانا في المقعد الخلفي وأخبرته عن وجهتها. قبل أن يشغل السائق محرك السيارة طلب منها بإنجليزية وقحة أن تفصح عن اسمها ليتأكد من كونها الشخص ذاته الذي طلب منه الفندق التوجه به إلى سارا كوندرا.

- ماريانا جاكرا، قالت بذات الصلافة. تحرّكت السيارة بدفعة قوية رمتها إلى الأمام. تفصّد العرق على صدغيها. كانت

أعصابها مشدودة لقيامها برحلة وحدها ومن دون شبكة أمن. الحالة أفرزت حالة ثرثرة لم تكن من طبعها. لم يكن يعجبها التحاور مع الخدميين. كانت تخشى أن تبدو متعالية وزائفة. ولذا تفضل أن تكافيء بالدفع نقدا لقاء الخدمة الجيدة.

جلست نانا متوترة على الطرف من المقعد خلف السائق. لم تستطع أن تسيطر على نفسها. تدفقت الأسئلة من فمها. هل هناك ديمقراطية في البلد أو نوع من ديكتاتور ديمقراطي؟ هل كان الإعلام حرا ومستقلا؟ وماذا عن الفساد؟

- رئيسنا يعمل بجهد كبير، قاطع السائق وأفهمها أن هذا ليس موضوعا للنقاش. انتقلت بسرعة إلى المنتجين المحليين للدجاج. ألم يكونوا مهددين من قبل تصدير الوحدة الأوروبية للدجاج المجمّد الرخيص؟ خطر كل من بن وبياتريس بشوق ببالها. ومن دون أن تنتظر جوابا واصلت حديثها بشأن النظام المدرسي والذي صار بعد علاقتها مع مارياما أمرا شخصيا. هل هناك تعليم إجباري؟ هل هناك تعليم عال؟ هل للأولاد الأولوية؟ ما حجم الأمية في البلد؟ ظلت الأسئلة بلا جواب. كان السائق إما يهز رأسه وإما يغمغم بشيء ما يغرق في صخب خشخشة شريط الكاسيت. لاحظت نانا أنهما يعبران مواقع للبناء تلي بعضها بهياكل أسمنتية. ألا يمكن أن يوفر ذلك فرص عمل للشباب الذين يتدفقون إلى أوروبا؟ تساءلت نانا.

- عمال أجنب، قال السائق باختصار وركز على سياقته. كانت مواقع البناء من كلا الجانبين قد حلت محلها مجرد أرض بلون بني أحمر امتلأت بشدات جافة لأعشاب نامية وأشجار

عارية مشرّبة تجاه السماء . كانت الحقول أراضي بور . يا له من تبذير وضياع ، واصلت من دون انتباه ومن دون أدنى معرفة بالمناخ ونوعية التربة . كانت قد توقفت عن سؤال السائق وواصلت بريرتها مع نفسها ، تستنتج وحدها وتلعن هذه التعاسة التي من صنع الإنسان نفسه .

كانا يمرّان في الطريق بدوريات للتفتيش بين مسافة وأخرى ، بحراسة واحد أو أكثر ممن يرتدون الزي العسكري . كانوا يقفون على حافة الطريق أو يجلسون في أكواخ خشبية مؤقتة يلوحون للتاكسي أن يواصل السير من دون اهتمام . ما أثار استغراب نانا هو تلك المنطقة السياحية التي استوجبت كل تلك التجهيزات الأمنية وسألت السائق إن كان قد تم إيقافه يوماً . أغلق فمها بجوابه المعتاد ، «نوبروليم ، نوبروليم» .

أفكارها وتيار حديثها ذابا معا إلى مصدّ واقٍ لها ضد اضطراب الهلع لديها الذي زحف كما يبدو تجاه السائق الصامت . تخيلته يستدير من دون حركة متوقعة ويسير بها عبر طريق جانبي ضيق مملوء بالحفر إلى كوخ مشؤوم ويسلمها إلى مختطفين طالبوا بمبلغ ضخّم من شركتها «روار إنترناشيونال» . ويعيدا في الأفق تبدى الخوف مما ينتظرها في محل توقف الباصات وعند الخالة روزي بالأخص والتي تنوي عقد اتفاقية معقولة معها .

اقتربا من منطقة أكثر كثافة بالبنائات . بيوت مأهولة رمادية مسيجة بألواح مموجة من الصفيح . أكوام من القمامة طوال الطريق . جامع أبيض ، أبراج مربعة تنتهي بقبة خضراء بزخارف مذهبة . أماكن للبيع ببضاعة منتشرة تحت مظلات باهتة .

تم دفن أنصاف عجلات السيارات في الرمل على جانبي الطريق. انقاض عربة مقطورة أكلها الصدأ شبه كولاج شاهدته مؤخرا في زيوريخ. أوجه أسمنتية متقشرة بإعلانات ذات ألوان مشعة تم صبغها على الجدران الخام مباشرة. أجهزة تلفزيون قديمة متروكة وكمبيوترات مصفوفة بعضها فوق بعض في مخازن طويلة ضيقة. جلس بعض الرجال يأكلون في ظل شاحنة. طفلة صغيرة لم تكن أطول من عتبة الشاحنة الرافعة للبضاعة، والتي راحت تتنقل بين الرجال لتجمع أكياس البلاستيك. امرأة تمر بخطوات هادئة متزنة حاملة طاسة كبيرة من البلاستيك على رأسها وطفل مشدود إلى ظهرها. على الأقل أنها عاشت أجواء ما، ذلك ما حاولت نانا أن تهديء نفسها به على الرغم من أنها لم تكن راغبة في مشاهدة شيء في هذه الرحلة المقلقة والتي تمت أن تنتهي بأسرع وقت منها.

المرور توقف من دون أن تشعر وحشد من الأطفال حاصر التاكسي. اقتحمت أياد مدهنة النافذة الجانبية المفتوحة وطالتها، «توباب، توباب» صاح الأطفال بصوت حاد. لم يكد التاكسي يتحرك من جديد حتى حطت العجلة الأمامية في حفرة بحجم حفرة لغم. قفز السائق وجاء بمن يساعده ليرفع السيارة من الحفرة. وفي لحظة جهزت للانطلاق من جديد. صافح السائق من ساعده وربتوا هم في المقابل على كتفه. سألته نانا إن كان معروفا في المنطقة للسهولة التي حصل بها على مساعدة.

– عائلتي تسكن هنا، أهلا بك في بيتي، قالها بفخر. رجعت

نانا إلى الخلف في المقعد واتكأت وهي تأخذ نفساً عميقاً. خلافاً لما توقعته فقد قابلت إنساناً طيباً. لقد قللت من شأنه بتقديرها ولكنها ولحسن الحظ يمكن أن تصلح ذلك بالبقشيش.

- هل مازال الطريق طويلاً لنصل محطة الباصات؟ سألت بتوفيقية.

- لا أدري، حسب الظروف، قال وحك براحةً صفحة ظهره العريض.

استدارا ببطء صوب ما يشبه مركز المدينة. مرّت كثير من السيارات. شاحنات أمريكية أوروبية قديمة محالة على التقاعد. صفوف من التاكسيات الصفراء. محلات للأقمشة، موبايلات، سكاكر، صابون، ماكينات خياطة، أدوات، بهارات إلى جانب بعضها البعض على جانبي الشوارع. باعة يحملون بضاعتهم في صرر على ظهورهم وقفوا في الغبار الأحمر الذي يعلو الطريق بين السيارات. كان عند مدخل السوق حيث بوابة الاستقبال الخضراء جمع من الناس مع أكشاكهم المتلاصقة تحميها المظلات الملونة. اقشعرت نانا لفكرة أن تتحرك وحدها وسط هذا الحشد من الناس، مأخوذة من قبل هذه المتاهة العظيمة من الأحياء.

أوقف السائق التاكسي واستدار نحوها.

- محطة الباصات، أخبرها. المنظر الذي استقبلها غلّفه البنزين وغازات العوادم التي سرعان ما تخللت التاكسي فلم تستطع أن تتنفس. كانت هناك صفوف من الباصات بكل الأحجام والماركات. مملوءة أو نصف مملوءة بالركاب الذين ربطوا أمتعتهم على سقفها. نساء ورجال وقفوا منتظرين محاطين بحقائب،

أكياس بلاستيك وصناديق من الكارتون تحت دخان العوادم خلف الباصات. القمامة والقناني الفارغة هنا وهناك في كل مكان. طلب السائق أجرته. أوضحت نانا أنهم سيكملون الطريق. هي بانتظار ضيف، بنت مراهقة ستوضح له أين سيذهبون. فكر قليلا قبل أن يطلب منها عربونا للمشوار من الفندق. نانا ناولته المبلغ وضاعفت البقشيش.

أشعل السائق سيجارة بهدوء وغير شريط الكاسيت. كان الجو حارا لا يحتمل الوقوف في الشمس، وفجأة أزعجت ثرثرته عبر الموبايل. ولكنها لم تجرؤ أن تغادر التاكسي. كان الوضع على أية حال أكثر أمانا من الخارج. كانت تخشى أيضا ألا تعثر عليها مارياما في زحمة الباصات والتاكسيات. انشغلت تماما بمراقبة مارياما في هذه الفوضى الحارقة التي أحاطتهم إلى درجة أنها لم تلاحظ أن السائق قد غادر السيارة قبل أن يسقط نظرها على مقعده الفارغ. اسودت الدنيا في عينيها. وفي اللحظة الثانية تملكها الغضب تماما. يا لها من وقاحة أن يتخلى عنها وسط هذه الجلبة والفوضى. اتكأت وأغمضت عينيها. خرجت من العالم وامتنعت عن الوجود في هذا التاكسي في محطة الباصات في هذه القارة.

نقر حذر على المرأة الجانبية جعل نانا تستفيق وتنتبه دفعة واحدة بقشعريرة باردة برغم الحرارة الاستوائية الرطبة الثقيلة. كان وجه مارياما قد ظهر ضمن إطار النافذة. في هذه اللحظة شعرت نانا بأنهما ينتميان لبعضهما. فتحت الباب وأشارت لمارياما لتدخل في المقعد الخلفي إلى جانبها. أمسكت مارياما

بيدها وعصرتها كأنها لا تود إفلاتها أبدا ثانية.

- خالتي تنتظرنا، قالت.

- ولكن أين السائق؟ سألت نانا. رفعت مارياما كتفها جهلا

بالأمر.

- لا يمكن أن نترك خالتك تنتظر هكذا، قالت نانا مرعوبة.

- لا مشكلة، قالت مارياما بهدوء. انزع هدوؤها في نانا

وانتشرف في كل أنحاء جسدها.

- كيف عثرت علي؟ سألت هي.

- أنت بيضاء.. توباب، وكبتت ضحكتها. فكرت نانا كيف بدت

في تنورتها البليسية وقميصها السماوي البسيط من القطن

المصري.

مارياما كانت ترتدي تنورة أجمل، لم تكن بالية وكانت نظيفة.

لأبد أنهما سيكونان في رفقة أناس راقين، فكرت نانا ناسية للحظة

أنها تسكن عند الخالة روزي. كان شعر مارياما مضموما في

خصلات في كل اتجاه. لم تكن تسريحة لبنت في عمر الخامسة

عشرة. لأبد أن تكون نوعية الشعر السيئة بلونه الرصاصي

الشاحب تعود إلى فقر التغذية ونقص في الفيتامينات. عليها

أن تتحدث مع روزي حول ذلك. بدت مارياما أكثر جرأة ووعيا

عنها في الشاطئ.

- هل ذهبت إلى المدرسة اليوم؟ سألت نانا. هزت مارياما رأسها

بغموض.

- متأكدة؟ أصرت.

- يعني ما مقدار اليقين الذي تريدينه؟ أجابت بغضب.

- آسفة، اعتذرت نانا إقرارا بموقفها. إن غادرت مارياما التاكسي واختفت بين الجمع سيكون في ذلك ضياعها.

- ما هو عمل خالتك في البنك؟ واصلت نانا.

- لَمَ تأتيين بكل هذه الأسئلة؟ أنا لا أعرف من أنت. لا شيء عنك أبدا. انسحبت مارياما بعيدا وأخذت تنظر في النافذة.

- ربما كان لديك مسدس في حقيبتك، تمتعت، ربما تكونين إنسانة خطيرة.

- مارياما، ما هذا الذي تقولينه؟ قاطعتها نانا. استدارات مارياما ونظرت مباشرة إليها.

- كيف يمكنني التأكد سيدتي؟ صوتها كان له ثانية هذه النبرة الناعمة الحادة التي أيقظت فيها الكثير من المشاعر في نانا. فتحت الحقيبة ودعت مارياما إلى النظر بداخلها.

- انظري بعينك ولكن لا تلمسي شيئا، أضافت بعصبية. ألقت مارياما نظرة سريعة وعادت لتستدير وتنظر عبر النافذة.

فتح السائق في اللحظة نفسها الباب وانزلق خلف المقود. تقدمت مارياما في مقعدها وأوضحت له طويلا وبالتفصيل الطريق حيث سيتوجهون. كان على نانا أن تسيطر على نفسها كي تحجم عن السؤال عن المسافة التي سيستغرقها الطريق إلى الخالة روزي وكم تبقى منها. لقد أجم نقد مارياما فمها وأفقدتها شهيتها للسؤال. تحدثت مارياما بحيوية مع السائق كأنه من المعارف السابقين. لم تفهم نانا لغتهما الأصلية، وشعرت باللامان فجأة حيال الموقف. هل هي لعبة متفق عليها؟ أين هم ذاهبون؟

- لا تقلقي، نحن على وشك الوصول، بيت خالتي يقع في طرف المدينة تقريبا، قالت مارياما بتفهم مؤثر للموقف الذي وُضعتُ فيه وتابعت حديثها مع السائق. كانا كلاهما يتحدثان بسرعة ويصوت عال حديثا مُبَهراً تتخلله الضحكات. ركزت نانا على ما حولها خارج أمان التاكسي والفضاء المحمي.

خرجوا أخيرا من زحام المرور في المدينة. شعرت بأنهم يسيرون في ذات الطريق الذي جاء منه، محاذاة المجمعات المحمية حيث قعم الأشجار بلونها الأخضر الشاحب قد برزت من فوق السياج الأسمنتي أو من الصفيح الموج. ولكنها لم تكن على يقين فالمنطقة السكنية يشبه بعضها البعض.

كانت الرحلة في التاكسي أطول مما تصورتها. سرعان ما نصل التي قالتها مارياما لم تكن دقيقة. تباعدت المسافات بين المباني. فجأة ضغط السائق على الفرامل بقوة وقفزت هي من مكانها على المقعد. لذررها اكتشفت أن نقطة تفتيش قد أوقفتهم. دس رجل عسكري رأسه عبر النافذة الجانبية إلى الداخل وطلب أوراق السائق. أخذ السائق من الوقت الكثير ليجد الأوراق وناولها عبر النافذة بيدين راجفتين. تضحى الرجل الشاب الأوراق ثم توجه إلى زميله في الكابينة. شعرت نانا بالذنب في الحال، وراجعت كل الجرائم التي يمكن أن تكون قد اقترفتها خلال إقامتها في البلد. الوقت داخل التاكسي كان متوقفا. زمت مارياما فمها ولم يسهل التواصل معها. تعرق السائق وجفف رقبته وأعلى جبهته بقطعة قماش ملونة. وبدا كأن الأمر لن ينتهي قبل أن يعود الرجل مع عسكري آخر أكبر سنا وقد جاء بالأوراق. نظر إلى نانا نظرة

متفحصة. دمدم السائق بشيء ما، «سائحة»، «جولدن باي». سمح لهم بالمرور. أكد السائق أنها المرة الأولى التي يتم إيقافه فيها. فضلت نانا أن تنسى الموقف غير المريح ولم تكن لديها أسئلة. عادت مارياما لمواصلة حديثها الذي انقطع مع السائق كأن شيئاً لم يحدث. وصلوا إلى منطقة أدغال صفراء يابسة بأشجار منخفضة وجد الماعز الهزيل تحتها ظلاً له. بدت من بعيد بيوت متفرقة بألوان ترابية وأكوخ فقيرة من الصفيح.

توقف التاكسي أمام بيت واطيء يتكون من أربعة جدران من الطين وسقوف مستوية من الصفيح المموج. كانت نانا مرتخية بشكل يثير الاستغراب كأنه لا شيء يمكن أن يحدث بعد موقف نقطة السيطرة. ترحلوا جميعاً ومشوا عبر ممر ضيق من الحصى إلى الأرض التي كانت محاطة بسياج مضمضور. سيدة البيت ظهرت عند فتحة الباب. كانت بقامة ضخمة مرتدية تي شيرت أبيض وتنورة لفّ مشجرة. نظرت إلى مارياما باستنكار كأنها لا تحب مجيء الضيوف. تصورت نانا أنها ستزور مجمعا في سيرا كوندا وليس كوخا من الطين بعيدا في الأدغال، ولكنها لم تشأ أن تزعج مارياما بأسئلتها الاستجوابية. بدت مارياما متخوفة كأنها جمدت بحضور خالتها. قالت روزي شيئاً ما للسائق وحيّت بعد ذلك نانا بانحناءة ملوكية كأنها رأتها للتو.

جلس السائق على كرسي من البلاستيك عند المدخل. وتبعت كل من نانا ومارياما روزي إلى الداخل ودخلوا مباشرة في غرفة المعيشة المطلية بلون أخضر. كانت هناك طاولة طعام وكرسيان

ثقيلان وأريكة. عاليا تحت السقف كان هناك رف بتحفيات مختلفة وصور غير مؤطرة لأطفال كبار وصغار. فتحتان أخريان بستارة من القماش قادتنا إلى غرفتين أخريين. إحداهما غرفة نوم روزي. والأخرى للأطفال. ملأ الفراش كل الغرفة تقريبا. ينام أطفال روزي جميعا على هذا الفراش، أوضحت مارياما. أين تنام مارياما، كان بود نانا أن تعرف. أشارت مارياما إلى الفراغ الضيق المتروك بين الفراش والجدار وواصلت مسرعة تقود نانا إلى الفناء خلف البيت حيث حفرة في الأرض خلف حصيرة مضافورة من القش صنع منها تواليت ومكانا للنار مع قدر كبير مسخم، وكان بمنزلة مطبخ خارجي. تجنبت نانا التصوير. لم تكن عموما مهتمة بالكاميرا كما اعتادت عندما تسافر جنوبا.

ببساطة فقد فقدت الشهية لذلك. تجمع سرب من الأطفال حول نانا وحملقوا باستغراب منتظرين من حولها. لم يكن معها شيء لتعطيه إياهم فشعرت بالحرج. أبعدهم مارياما بإشارة من يدها. كان من الواضح أنهم يحترمونها.

أوضحت مارياما بحماس أنهم انتقلوا من سيرا كوندا بسبب التلوث الذي كان على وشك أن يقضي على حياتهم. على الأخص الصغار، تنهدت وحملت بذراعا طفلة بأنف يسيل. لقد حصلت روزي مع بقية الساكنين على قطعة أرض من الرئيس، وكان عليهم أن يبنوها بأنفسهم مع مساعدة الأصدقاء. ولكن الكثير مازال ينقص البيت. أشارت مارياما عاليا إلى سقف البيت من الصفيح الذي غطى جزءا من البيت فقط. لم يعن نانا أمر الانتقال إلا فيما يتعلق بمدرسة مارياما. هناك باص، تاكسي،

أوضحت مارياما بصبر. هي تعود إلى البيت في السادسة مساء بعد الانتهاء من عملها على الشاطئ. متى يكون لديها الوقت إذن لواجباتها المدرسية؟ كانت نانا تود أن تعرف. مبكرا في الصباح قبل أن يستيقظ الأطفال، أجابت مارياما.

- أين مادلين؟ سألت نانا.

- في المدرسة، قالت مارياما مختصرة وبدت متضايقة. أثار ذلك شفقة نانا فتجنبت الضغط عليها أكثر.

- كم طفل لدى الخالة روزي؟ سألت نانا في طريقهما إلى غرفة المعيشة. عدت مارياما بأصابعها ولكنها لم تفلح. لم تستطع روزي إعالتهم جميعا. كان بعضهم في رعاية العائلة أو بعض الأصدقاء. كما كانت مارياما برعاية روزي، أخت الأم الكبرى.

- لدى الخالة روزي الكثير من الأطفال، لدي العديد من الإخوان والأخوات.

- أبناء وبنات خال، صحت لها نانا، أين زوجها؟

- يعيش مع زوجته الثالثة. لم تتقبلها روزي أبدا، أكدت مارياما بفزع ممزوج باعتزاز.

لم تستطع نانا أن تفهم حقيقة العلاقة بينهم. لم تعرف غير ما قالته لها مارياما. أن روزي بحاجة إليها في شغل البيت وأنها ستتمكن في المقابل من الذهاب إلى المدرسة في سيرا كوندا.

جلست الخالة روزي على الأريكة وقد غيرت ملابسها. وتزينت بحلي ثقيلة والموبایل في حضانها. كان ثوبها بلون أخضر لامعا خيط بقصة بسيطة ضيقة. على رأسها كانت ربطة ملفوفة بشكل

فني من ذات القماش. أطرت نانا البيت الجديد وحيّتها برأسها مؤكدة ذلك. نبرة روزي إجمالاً كانت من قبيل البيزنس. باشرت بالدخول في الموضوع.

- أنت تودين أن تكوني راعية لمارياما صحيح؟ شرعت بشكل رسمي.

- أجل، إن أكدت لي ذهابها إلى المدرسة. أجابتها نانا بذات النبرة. نظرت روزي إليها رافعة حاجبها، ثم إلى مارياما.

- ما المشكلة؟ سألت بنبرة حادة. أخفت مارياما نفسها وهزت رأسها نافية بشعور بالذنب كأنها لم تفعل ما يجب عليها فعله.

- لا مشكلة، لا مشكلة، تمتت ونظرت إلى الأرض.

- ما هذا الـ «نوبروليم»؟ المشكلة مشكلة. هل تسمعين، هل تسمعينني؟ صرخت روزي بمارياما.

- ليس خطئي، دافعت مارياما عن نفسها. استدارت روزي إلى نانا.

- لم أتيت إلى هنا، إن لم ترغبني في مساعدة صغیرتي؟ كان صوت روزي قد وصل أعلى حد. أخذت نانا نفساً عميقاً قبل أن تجيب. كانت روزي مفاوضة صعبة المراس.

- أنوي بصدق دفع تكاليف مدرسة مارياما ولكن يجب أن أتأكد أين ستحط النقود. أقترح أن أدفع لإدارة المدرسة مباشرة. لم يزعج نانا أن تتفاوض مع روزي.

«هراء» هو ما بدا على محيا روزي، بمنزلة تحد فهمته نانا جيداً.

- أعدي لنا الشاي مارياما، أمرتها بغلظة فنهضت مطيعة.

كانت رقتها تؤثر في نانا.

كان السائق مازال جالسا خارج البيت ينفث دخان السيجارة بعد الأخرى. الشمس علقت منخفضة في الأفق وألقت بظلالها الطويلة ما بين البيوت الطينية الصغيرة التي بنيت حديثا. سرعان ما ستحل الظلمة وهي بعيدة جدا عن فندقها. طلبت روزي من نانا الجلوس عند الطاولة. صار الجو فجأة متوترا.

- إذن أنت لا تثقين بنا، قالت بنبرة ازدراء خفية، كيف تفكرين

هكذا؟

- أنت تسيئين فهمي. إن المشكلة عملية مائة بالمائة. كيف سأقوم بتحويل المبلغ ولئن. أنا مستعدة للدفع لمدة سنة مقدما. وهاهي نانا تستسلم بشأن شكها في دوام مارياما مسبقا. كانت راغبة في إرسال المبلغ لإدارة المدرسة تحت اسم مارياما لتتخلص من اتهام روزي لها.

- لدي حساب بنكي، قالت بكل معنى الكلمة ونهضت من الأريكة لترى لم تأخرت مارياما بجلب الشاي. لم يكن هناك من أبواب في البيت، فقط فتحات أبواب. زوج من دجاجات بيض مغبرات طلّت بفضول في الغرفة.

- آسفة ولكني أفضل الدفع مباشرة إلى المدرسة. تناولت نانا قدحا ساخنا جدا من الشاي. جلست روزي بثقل على الكرسي عند الطاولة أمامها. صرّ الكرسي منذرا.

- بيتك مريح، حاولت نانا مجددا ملاطفتها.

- لقد عملت بجد من أجله، قالت روزي باعتراف.

- هل تعيش مارياما عندك؟

- بالتأكيد، قالت بشعور بالمهانة، أنا بحاجة لها في شغل البيت.

- هذا ما قالت لي، لقد نسيت، قالت نانا معذرة.

- وأنت التي تعتنين بها؟ واصلت.

- اعلمي أنني الوحيدة في العائلة التي لديها حساب بنكي.

رمقت روزي نانا بنظرة متعبة يائسة.

- ومدرسة مارياما في سيرا كوندا؟

- أكيد. نظرت روزي لها بحزم.

- ما اسم المدرسة؟ اقتربت نانا من المنطقة المغمومة. لهثت

روزي. كان صدرها العامر يتأرجح صاعدا نازلا. بحلقت في وجه

نانا بوسع عينيها.

- أنت بالفعل لا تثقين بنا، قالت متوعدة، وواصلت نانا في

حقل الألفام.

- أريد زيارة مدرسة مارياما قبل سفري. قد ملّت من الكوميديا

هذه. كل ما كان يهمها هو أن تعطي مارياما دفعة إلى الأمام. كان

الأسهل هو أن تأخذها معها إلى الدنمارك وتعتني بها بنفسها

وتمول دراستها ولكن هذا الاحتمال لا مكان له في الواقع الفعلي.

نهضت روزي ووقفت وسط الغرفة ويدها إلى الجانبين. كانت

نانا تخشى أن ينكسر كعب حذاءها العالي. أو أن تنقلب بكل وزنها

وتستقر على الأرضية المنبعجة التي صبّت من الطين. ولكن لم

يكن هناك من إشارة إلى ضعف ما.

- أطلب منك مغادرة بيتي من فضلك، لقد أسأت استخدام

ضيافتي لك. أشارت روزي برأسها صوب فتحة الباب المنخفضة

حيث قطعة الأرض الصغيرة الجافة أمام البيت. لحظت نانا أن الشمس بدت منذرة بالمغيب على حافة الأفق. ليس إلا لحظات وتعم الظلمة. في اللحظة نفسها دخلت مارياما ومعها المصباح ونظرت إليهما. نهضت نانا عن الطاولة ووقفت وحقيبتها على كتفها مستعدة للمغادرة. كأن رأسها على مسافة بضعة سنتيمترات من السقف. وذلك كان أيضا مثيرا للإحراج. كان بإمكانها شراء الكوخ بأكمله عدة مرات بسعر طقم الإيف سان لوران الذي كلفها.

- لا تذهبي سيدتي، ماذا عن مدرستي؟ اندفعت مارياما صارخة بالقول وكادت تسقط المصباح من يدها. جلست نانا كأنها قد تلقت أوامر بذلك.

كان للطفلة سيطرة غامضة عليها على الرغم من احتمال التواطؤ مع الخالة روزي بكل سهولة لأجل تفريغها من نقودها. لم يكسر الظلمة المعتمدة في الخارج سوى بصيص ضوء يرفرف من البيوت القريبة. تناولت روزي المصباح وعلقتة في الخطاف في سلسلة متدلية من السقف.

- هل أنتِ حقا بلا قلب؟ هل أنتِ فعلا غير معنية بالناس الآخرين؟ هل تدرين أن الطفلة هنا ليس لديها خيار غير أن تذهب إلى المدرسة أو تتزوج من أحد الشيوخ المسنين لتصير زوجته الثالثة؟ وكل ما تفكرين فيه هو أين سترسلين نقودك و«هل بإمكانني زيارة المدرسة» وكذا وكذا كذا. لا تصدقين أن لدينا مدارس هنا في البلد. ولكني فخورة ببلدي. رئيسنا يعمل بجهد كبير من أجل شعبه. تحدثت روزي بغلو وبمستوى بلاغي مثل

مغنية أوبرا وسط ديكور عظيم. شعرت نانا بأنها مثار ضحك،
وبأنها في المكان الخطأ، بالغباء ويملابسها غير اللائقة مع
قامتها بطول ١٧٩سم.

- مَنْ تظنين نفسك؟ تأتين هنا في جولة سياحية مريحة
في الأدغال، قالت روزي بسخرية، تشربين شايي وتختفين من
جديد في حياتك المرفهة. لم لا تلتقطين صوراً؟ ألا توجد مادة
هنا؟ أليس في بيتي ما يكفيك من الجمال؟ أليس في بيتي ما
يكفي من التعاسة؟ شبكت روزي ذراعيها. كان مظهرها يقتضي
الاعتراف. ولكن لم يكن لدى نانا ما تقوله للدفاع. مقدرة روزي
في الكلام وروح القتال جعلتها خرساء إعجاباً بها. كانت تود
أن تدفع لتحفظ بمارياما. السؤال هو ما المبلغ الذي يجب أن
تدفعه؟

- كم؟ قل لي فقط كم تريدان، قالت نانا وهي تلعب لعبة
خطرة. كانت مقامة، شعرت بأنها على أرض ملعبها في الظلمة
باردة الأعصاب للكازينو التي هي ذاتها في كل أنحاء العالم، يتردد
عليها الشخوص الأشباح أنفسهم ببدلاتهم الأرمانى وساعات
الرولكس المقلدة اللماعة.

- لا سيدتي، لا تسير الأمور هكذا هنا، نحن أناس صادقون،
ولنا كرامتنا. هزت روزي رأسها وبدت حزينة. جلست مارياما
ساكنة في مكانها على الأريكة مثل فأر.

- أنت لا تثقين بنا لكني أثق بك. سأعطيك رقم حسابي
البنكي، اسم البنك وكل ما تحتاجينه. أخرجت ورقة متغضنة من
بين ثنيات ثوبها وناولتها لنانا. كان مكتوباً بالفعل رقم حساب

واسم بنك.

- ما المبلغ الذي يغطي تكاليف سنة دراسية كاملة؟ تمتعت نانا في محاصرة لروزي.

- ما يناسبك سيدتي، لدينا أكثر من ممول، لست الوحيدة. بدت روزي متعبة وغير مقتنعة. فكرت نانا بأنها لم تجلب معها هدية لروزي. لم لم تفكر حقا في هذا؟ لم تكن تنسى في بلدها أن تجلب معها هدية للمضيف يوما.

بحثت نانا في حقيبتها فوجدت علبة للحبوب مع حبتي ماس صغيرتين رصعت غطاء العلبة. أفرغت الحبوب في قاع الحقيبة وناولت العلبة لمارياما التي دسها بسرعة في حاشية البلوزة. شكرا للشاي، قالت نانا متوجهة إلى روزي.

- لم أعطيت مارياما هذه العلبة؟ سألت روزي بحدة ورفضت أن تصافح يد نانا الممدودة.

- مجرد هدية صغيرة لتتذكرني.

- لم عليها أن تتذكرك؟ قالت روزي باحتدام.

- سميه عقد صداقة بيننا. شعرت نانا بانها يارتقرب.

- إذن أنتما صديقتان، صحيح؟ صاحت روزي بمارياما.

- أجيبيني مارياما.

- دعك من لومها طوال الوقت، قالت نانا ونظرت إلى مارياما التي جلست جامدة بشكل غريب.

- يجب أن تخجلي من نفسك. وقفت روزي إلى جانب نانا لتشعر بحرارة جسدها. فقدت نانا السيطرة على نفسها.

- لا تقولي لي إن علي أن أخجل من نفسي فأنا لم أفعل شيئا

خاطئا . لم تستطع أن تمسك بدموعها . الزيارة الفاشلة والنقص الذي هي عليه قد أطاحا بها . شعرت بيد حذرة على ذراعها .
- لا بأس سيدتي . بدا صوت مارياما مثل موسيقى من عالم أعلى .

- سأتي معك في التاكسي .

- ولكن الوقت متأخر . أشارت نانا إلى الظلمة في الخارج .

- سأذهب إلى خالي في سيرا كوندا . هو يسكن قرب المدرسة وسيكون طريقي قصيرا غدا مبكرا ، أصرت مارياما . نظرت نانا إلى روزي لتفهم ردها غير المتوقع ولكن وجهها لم يفصح عما يجري خلف القناع . لم تتخيل نانا أن مارياما سترافقها إلى سيرا كوندا ضد رغبة روزي ولم تأت بمزيد من الاعتراضات . لقد عاشت ما يكفي خلال الساعات القليلة التي كانت فيها خارج نظام وهدوء الفندق وهي بحاجة إلى أن تستريح تحت التبريد داخل إطار ما هو معروف ومتوقع بالنسبة إليها .

كانت روزي توبخ مارياما بهمس عند التاكسي خارج البيت . تقبلت مارياما ذلك برأس مطأطيء وخضوع مهين ما قطع نياط قلب نانا . استدارت روزي من دون أن تتنازل وتوليها نظرة . أخيرا تمكنتا من الجلوس معا على المقعد الخلفي . كان التاكسي يسير عبر الظلمة ولا شيء غير ضوء المصابيح الأمامية . كانت زيارة نانا كما بدا قد تلخصت في الحصول على رقم حساب روزي . زيارة مدرسة مارياما والتحقق من كونها طالبة لم يكن قابلا للنقاش . هل كان هذا العالم الغريب الذي وجدت فيه نانا حقا بسيطا ؟ وضعت مارياما علبة الحبوب في يدها بخفية .

- فقط نقود، لا شيء آخر أرجوك، قالت بخوف، أنا لست لصة.
- آسفة، قالت نانا، لا أريد أن أزيد من مشاكلك.
- أنت إنسانة طيبة، همست مارياما. كانت كأنها قد حصلت على وسام استحقاق. اعتدلت نانا في جلستها وقالت أنا سعيدة بلقائها وتأمل في أن يبقيا على تواصل في المستقبل.
- ربما أزورك في بلدك كما زرت أنتِ بلدي؟ نظرت بأمل إلى نانا.
- هناك قانون لدينا يجعل استقبال أحد من أفريقيا مستحيلا تقريبا.
- مؤسف حقا، الضيوف هم ملح يومنا، مسكينة، قالت مارياما. لم تملك نانا إلا أن تعجب بقدرتها على قلب الأشياء تماما.
- ربما يمكنني أن أعمل مساعدة للعائلة في بلدك؟ اقترحت.
- هل تودين حقا الذهاب إلى أوروبا؟
- كثيرا. لقد أتقنت على يد الخالة روزي أعمال المنزل، وأنا جيدة في الاعتناء بالأطفال، ولكنها لا تعطيني نقودا لغداء المدرسة لذا فأنا جائعة دوما.
- ولكن عليك في كل الأحوال أن تنهي مدرستك قبل ذهابك إلى أوروبا، ألن تكلمي دراستك؟ قالت نانا وتجنببت سماع تعليقها الأخير.
- نسيت، قالت مارياما مفزوعة. فتحت نانا الورقة التي استلمتها من روزي برقم حسابها في البنك ونظرت إليها.
- هل تعتقدين أن بإمكانني استخدام هذه؟ هل ينفع ذلك؟
- «نو برويليم».

- ما عدد الذين حصلوا على رقم الحساب هذا؟
- العديد، العديد، لكننا لا نسمع منهم أبدا بعد أن يغادروا.
- قالت ببراءة ساذجة.
- من الذي يدفع تكاليف المدرسة إذن؟
- أنت، أنت تدفعين، قالت بحماسة.
- مارياما كفي عن ذلك. لن نتحدث عن مدرستك. لا أعتقد أنك تذهبين إلى المدرسة. فتحت مارياما فمها لتعترض. ولكن نانا أوقفها بحركة يدها المحتجة.
- لو تخبريني ما عمرك لأتمكن من الحصول لك على عمل au pair (*) في مكان ما في أوروبا.
- خمس عشرة، تقريبا ست عشرة، أكدت لها.
- أعطني عنوانك وسأعطيك بطاقتي التعريفية. التقطت نانا بطاقة من مغلف فضي وناولتها إياها. قلبت مارياما البطاقة وأدارتها وتفحصتها جيدا.
- لديّ عنوان صندوق بريد ولكني أفضل أن يكون لدي موبايل، قالت بسيطرة كأنها قد حققت للتو نصرا. بحثت نانا في حقيبتها ووجدت منديل تقديم متغضن. كتبت مارياما بسرعة ومن دون وضوح. كان على نانا أن تصحح لها الحروف لتتمكن من قراءة خريشتها.
- عندما تتمين السابعة عشرة يمكنك أن تعلمي مساعدة عائلة في الدنمارك.

(*) مساعدة عائلة عموما تكون بنتا شابة، تسكن عند عائلة في بلد أجنبي لكي تتعرف على ثقافة البلد وتتعلم اللغة، وفي المقابل تعين العائلة في يومها، وتعتبر كأحد أفرادها ولا تعامل كخادمة.

- ولكنني لم أكمل السابعة عشرة، أصرت مارياما. سألت دموعها على خدها.

- لا، لا تبكي، أرجوك. خشيت نانا فجأة من تورطها.

- لأنني حزينة لسفرك قريبا، قالت مارياما بصدق. خطر بذهن نانا التفكير مجددا فيما لو كانت متخلفة. أم أن البساطة كانت جزءا من اللعبة.

اقتربوا من سيرا كوندا. وأخيرا كان هناك شيء من تحضر ما. سألت نانا مارياما عن المكان الذي ستوصلها إليه. هزت رأسها - حيث يعجبك.

- ماذا تقصدين؟

- ذلك يعتمد على المكان الذي سأكون فيه.

- ومن سيقدر ذلك؟

- خالي، الرجل الكبير، همست. نظرت نانا إلى بدلتها الباهتة اللون التي جعلتها تبدو كبيرة السن وخشيت أن يحدث لها الأسوأ.

- وما العنوان الذي كتبته لي إذن؟ قالت نانا محتارة وهي تلوح بالورقة.

- هذا صندوق بريد خالي. ألا ترين C/O لويس سار، هذا يعني «care of»، قالت منزوعة. تنبعت نانا إلى الحول الذي كان في عينها اليمنى التي نظرت خارجا عبر نافذة السيارة، بينما اليسرى نظرت مباشرة إليها. شبكت نانا ذراعها حول كتفها.

- هل أوصلك إلى المجمع حيث خالك؟ اقترحت وعصرت كتفها بيديها. شعرت بجسم مارياما نحىلا جدا وهشًا.

- لا، عليّ أن أنجز أموراً مختلفة قبل الذهاب إلى خالي.
- ولكن الدنيا مظلمة وخطرة خارجاً.
- بالنسبة إليك، ربما ليس لي. أنا أعيش هنا كما تعرفين.
- قالت مارياما.
- تجاوزوا محطة الباصات حيث توقفت بعض الباصات ليلاً.
- سأل السائق إن كانتا تنويان النزول هنا أم تعودان إلى الفندق.
- لن أعود إلى الفندق. تحررت مارياما من نانا.
- اطمئني فأنا لا أستطيع أخذك معي إلى الفندق نهائياً.
- ترجّت نانا السائق أن يتوقف.
- سأسافر بعد الغد. هل نلتقي على الشاطئ ثانية؟
- بطاقتك تعطيني أملاً. أمسكت مارياما ببطاقة نانا أمام وجهها.
- وجدت نانا لفة نقود في حقيبتها فناولتها لمارياما.
- أفتقدك، قالت بصوت سريع غير شخصي.
- عديني أن تذهبي مباشرة إلى بيت خالك.
- كما قلت لك لدي بيزنس.
- ولكن يمكنك أن تعمل لي لدي. الـ «بيزنس» الذي ستنجزه في هذا الوقت قد أفزع نانا.
- عندي التزامات، قالت كشخص ناضج ولديه خبرة.
- التزامات حيال من؟ سحبته نانا بقوة إلى داخل السيارة.
- دعيني، قالت بغضب وتملصت منها.
- ليس لديك الحق في... هذا. ترجلت مارياما وشفقت الباب بقوة. رأتها نانا تركض بين الباصات المتوقفة.
- استدار السائق نحو نانا.

- فندق جولدن باي؟ قال. هزت نانا رأسها إيجابا وشعرت بنفسها مثل خرقة تنظيف معصورة.

قضت اليوم جالسة على كرسي الاستلقاء على الشاطئ العاصف شاخصة ببصرها بحثا عن مارياما. لم تدخل لتناول الغداء. كل ضيف مربها على الشاطئ كان هزيمة بالنسبة إليها. كل بائع عصير أو هدايا تذكاري كان خيبة لها. كان هناك صخبُ حياة حتى حل الظلام، ودعت طبول أوركسترا الفندق إلى حفل عند المسبح، ولكن لم يكن هناك من ظل لمارياما. على الرغم من تحفظها كانت نانا تتوقع أن تظهر مارياما، إن لم يكن لسبب فلأنها تعرف أن نانا ستدسّ مبلغا كبيرا من النقود في جيبها. ألم تكن نقودها كافية؟ فكرت بحزن وشعرت بأنها لم تعد مرحبا بها. هي تدعس الآن على ذات المشاعر التي حركتها مارياما فيها. لم تكن تتصور أن يرافق غضب عنيف شعورها القوي الذي تحسه تجاه الطفلة. لقد حصرتها مارياما في زاوية، وأن تغادر البلد من دون توديع. بمعنى الكلمة. إحداهما للأخرى كان أمرا لا يحتمل. عند المساء جلست نانا عند طاولة لشخصين في أقصى زاوية في المطعم تتناول وجبة بثلاثة صحون ولكن من دون شهية تذكر. افتقدت رفقة بن وبياتريس وامتلات باشتياق سوداوي تجاه كل الناس الذين اختفوا من حياتها بحضور مارياما. البعض منهم قد مات والآخر قد سافر، علاقات و صداقات قد تسربت في الرمل. زملاء مقربون انتقلوا واستقروا في فروع أخرى للشركة في الجانب الآخر من الكرة الأرضية. سرعان ما أفرغت نانا قنينة شراب. الموبايل الذي يجب إخفاؤه في صندوق الأمانات

في الغرفة وفق أوامر مدرّبيها في الشركة كان أمامها على المفروش الأبيض. شعرت بالندم لأنها لم تطلب من مارياما رقم موبايل روزي ولكن هذا قد وفر عليها سوء فهم جديدا قد تتعرض له. اكتفت بأن ترسل رسالة قصيرة تحية إلى بن وبياتريس كتأكيد على الصداقة التي أثرت فيها عميقا جدا.

بعد الفطور في اليوم التالي طلبت نانا تاكسي في الاستقبال. لقد قررت أن تعثر على مارياما في يومها الأخير. لن تستطيع السفر من دون أن تعلم ما الذي حلّ بها بعد افتراقهما عند محطة الباصات. الاحتمال الوحيد الذي كان لديها هو أن تسأل عن الخال في مكتب البريد في سيرا كوندا عن طريق عنوان صندوق البريد الذي يحوّل إلى مارياما.

للمفاجأة فقد كان ذات السائق الذي أوصلها إلى الخالة روزي. لابد أن يكون أخا، ابن عم، أو من أقرباء عامل الاستقبال الذكي، فكرت في ذلك وسألته عن اسمه مادام صار من المعارف القدماء. - مودو، أوضح السائق ودعاها للفضل في المقعد الأمامي. شكرته نانا لعرضه واعتذرت لحبها للمقعد الخلفي، ذلك من دون أن تذكر بالطبع خشيتها القرب من الناس الغرباء وروائحهم. توجهها صوب سيرا كوندا. قد أمنت الآن للطريق، مطاعم الكباب، المحلات، والصيدلية ببضاعتها المتنوعة التي تقع عند نهاية الطريق الرئيسي، ذلك أمدها بإحساس بالأمان. نقدت نانا السائق مقدما لتأجير التاكسي طوال اليوم. سيبحثان معا عن مارياما، البنات المراهقة من البارحة، أوضحت له. كان السائق حياديا في تعامله مع برنامج اليوم وانطلق بها من دون تعليق

إلى مكتب البريد. ترجمته نانا ليرافقها إلى الداخل ويترجم لها إن لم يستطع أحد فهم إنجليزيتها.

كان الجو خانقا داخل المبنى الكولونيالي الضخم الذي كان يشبه قلعة أكثر من كونه مكتبا للبريد. كانت هناك ثلاث مراوح في السقف حلت بدلا لجهاز تبريد. كان الطابور طويلا عند قمارة تسليم واستلام الرسائل. وقفت نانا في الخلف مع مودو.

كانت نانا تتوقع أن تكون خطتها المتسبعة هي ضياع لوقيتها الثمين. لم تكن تملك الحق في التعرف على هوية الشخص المختفي خلف عنوان صندوق بريد لويس سار. لم يتحرك الطابور عموما. ظلت نانا واقفة في مكانها فلم تعرف ما الذي يمكن فعله عدا ذلك. بدأت في التفكير فيما لو كان من الأفضل أن تعود إلى الفندق مثل الأيام الماضية وتنتظر على الشاطئ وتأمل ظهور مارياما بصينية الفاكهة على رأسها. لم تكن تحتل نانا أمر السفر من دون رؤيتها. حالما ستعود إلى بيتها وتدخل سباق الحياة المحموم هناك ستتبخر مارياما من عجلته. لم تكن تتصور أن عنوان صندوق بريد لدولة أفريقية كان شيئا ذا قيمة وهي لم تملك أعصابا للانتظار لأسابيع لوصول رسائل مرسلة والمزيد من الانتظار للرسائل التي تحمل جوابا لتعود، هذا إن وصلت أصلا.

- لا فائدة. استدارت نانا تجاه مودو.

- الطابور يتحرك، قال السائق رافعا كتفيه. بدا متعبا كأنه

قد كان يحتفل الليل كله.

- لم يبد أن خالتها أحببني. قالت نانا وهي شاردة بعيدا مع

أفكارها.

- ولم لا تحبك؟ كان مودو في عمل ولم يكن مهتما. ومع ذلك فقد ترك تعليقه انطبعا لديها.
- ربما لديك حق، قالت متفكرة. انفتحت قمارة أخرى وتحرك الطابور سريعا.
- كان هناك رجل طويل محترم بقفطان أبيض وطاقية مطرزة يقف مع حقيبة سوداء بحزام على الكتف. انحنى إلى الأمام صوب القمارة.
- لويس سار، صندوق ٩٩٩، قال. نهضت المراه في القمارة. لم تصدق نانا حظها. هل يمكن حقا أن يكون هو الذي أمامها؟ لمست ذراعه فاستدار نحوها متفاجئا.
- عفوا، لويس سار؟ أمسكت أنفاسها.
- ما الذي تريدينه؟ قال بتحفظ.
- أبحث عن مارياما. لم تستطع نانا أن تسيطر على انفعالها.
- مارياما! تبحثين عن مارياما؟
- لقد أعطتني هذا العنوان «C/O(*)»، لويس سار. أرته نانا الورقة المتغضنة مع خطها القاصر.
- نحن نتشارك في الصندوق ليس إلا.
- إذن هو أنت لويس سار، سعيدة بلقائك. مدت نانا يدها لمصافحته.
- أود وداع مارياما. سأسافر في الغد، أكملت بتلكؤ وقد شعرت بالعرق يتصبب أسفل ظهرها تحت قميصها الخفيف من الكتان. عقد الرجل حاجبيه ونظر بعيدا. شعرت نانا بالندم لقيامها

(*) Care of : بواسطة.

بتلك الرحلة الغبية وإقحامها لنفسها في مكان لم تكن لها علاقة به.

- هل هي في المدرسة الآن؟ تابعت بعد سكوت محرج. تغيّرت ملامح الرجل فجأة كأنه قد فهم شيئاً. وبدلاً من الإجابة اقترح عليها أن يزوروا المجمع. نظرت نانا بارتباك صوب مودو الذي قدّم نفسه ومدّ يده ليصافحه. تبادلاً نقاشاً طويلاً. شعرت نانا بأنها قد أهملت وبدأ صبرها ينفد. صار الهدف من رحلة اليوم بدلاً من العثور على مارياما هو الدخول في متاهة الثثرة حول كيفية الوصول إلى المجمع.

بعد رحلة طويلة طوال طرق وعرة بشكل أو بآخر عبر مناطق سكنية متشابهة امتدت على مدى البصر توقف التاكسي أمام مدخل المجمع خلف جدار أسمنتي عال. ترجل لويس سار وفتح الباب لنانا بأدب وأناقة. بدا أصغر سناً من انطباعها الأول عنه. كان مفهوماً بالنسبة إلى مودو أن يبقى في السيارة وينتظر. تبعته نانا لويس سار في دخوله الفناء المظلل. كان هناك أطفال صغار يركضون بصخب عراة تقريباً. في الزاوية كانت هناك طاولات مضضعة وكراسي وكومة ملابس كأن أحدا سينتقل إلى أو من المكان.

كان هناك رجل مسن يجلس على طاولة ويعدّ الشاي. صبّ الشاي في شعاع طويل في كأس مذهبة الفم من إبريق نحاسي مصبه كان بشكل منقار.

- أين مارياما؟ في المدرسة؟ لم تعد نانا تحتل السكوت.
- كيف عثرت على بطاقتك التعريفية؟ سأل لويس سار

- بسيطرة تامة وتوجه مباشرة إلى الرجل المسنّ.
- لقد التقينا على الشاطئ، أود مساعدتها.
- في ماذا؟
- في إتمامها لدراستها.
- إنها امرأة شابة الآن، قاطعها بنفاد صبر.
- ولكن هذه هي أمنيته الكبرى. لم أكن أرغب في التدخل لو لم تسألني.
- ليس هي من يقرر ذلك.
- الخالة روزي متفقة بشأن ذلك، عارضته نانا.
- أنا لا أناقش شأنا عائليا مع غريب.
- ولكن الدراسة ضرورية، همهمت نانا.
- مارياما تعمل بجد وتتلقى تعليما جيدا في إدارة شؤون البيت. ستكون زوجة رائعة. ابتسم وهو غارق في التفكير. بدأ قلب نانا بالخفقان. هل لويس سار هو الرجل الذي اختار ثالثة له، مارياما كزوجة ثالثة؟ أو لم يكن تهديد الخالة روزي بالزواج كما قدرته عاما وتجريديا، بل كان محمدا جدا وفعليا. تمنّت لو تعتذر لها عن أول الأمس، وخشيت أن يكون مشروع المدرسة قد ألغى بسبب تصرفها الغبي. أخذت نفسا عميقا وقالت:
- هل تسدي إليّ خدمة أيها العم لويس؟ أريد زيارة مدرسة مارياما.
- هل تسأليني عن ذلك؟ أطلق لويس سار ضحكة عالية ما جعل نانا تضحك على نفسها.
- لا أعرف شيئا عن مدرسة مارياما، قالها بفضاظة.

- إذن هي لا تذهب إلى المدرسة إطلاقاً؟ قالت نانا بخيبة.
- لا علاقة لي بهذا. حرّك لويس يديه.
- ولكنك تدفع نفقات المدرسة؟
- لا، لا أفعل.
- أخبرني أن خالها يدفع تكاليف المدرسة.
- الشباب لديهم أكثر من خال.
- ألا تخبرني أين أجد هذا الخال؟
- يبدو أنك لست ممن يستسلمون بسهولة. نظر لويس إلى أعلى قمة الشجرة الضخمة فوقهم وطلب منها الجلوس على كرسي بجانب العجوز الذي ناولها كأساً من الشاي بملامح جدية. الشاي القوي الدافئ قد أيقظها.
- أود أن أعرف إن كانت مارياما مازالت في المدرسة أم لا، تابعت بعناد.
- إنها تذهب إلى المدرسة ولكن ليس حالياً، أجاب لويس اضطراراً.
- أنا أنوي بجد أن أدفع تكاليف دراستها وكل ما يتعلق بذلك فوق هذا، طعام المدرسة، الزي الرسمي، الكتب. تمسّكت نانا بشكل كبير بقوتها الاقتصادية.
- لا تتدخل في عائلتي.
- أنا قلقة بشأن مارياما، أصرت نانا.
- مارياما تعود إلى العائلة...
- هل لي أن أسألك سؤالاً؟ قاطعته نانا.
- أكيد، «نوبروليم»، قال لويس وهو يتفحصها محاولاً سبر غورها.

- هل تنوي الزواج من مارياما؟
- أنا؟ انفجر لويس في الضحك ثانية.
- أنا لن أتزوج مارياما، سأتزوجكِ، قالها وفي لحظة صار جديا تماما.
- تعجبيني. أنت لا تخافيني، واصل.
- أنا أخاف من كل شيء، قالت نانا مرتعدة.
- أنت لا تخافين الموت ولكن الحياة، واصل القول بتنبؤ وهو يتفحصها بدقة. كان العجوز مركّزا على مسبحته وبدأ بعيدا جدا عن العالم من حوله. أفرغت نانا كأس الشاي وشكرته. عليها أن تغادر والسؤال إلى أين. تقرب الأطفال بحذر منها.
- توياب (*)، حلوى، حلوى، همسوا وهم ينظرون بخوف إلى لويس سار الذي أمرهم بالابتعاد. اختفوا في اللحظة ويحذر تماما كما جاءوا.
- نظرت نانا إليهم وساءها أنها لم تملك ما تعطيه لهم. في النهاية القصية من الفناء جلست امرأة على درجة السلم ترضع طفلا. الملابس كانت منشورة على حبل غسيل مشدود بين عمودين خشبيين مضعضعين. عند البئر كانت هناك دلاء صفراء من البلاستيك بحبل مشدود بالمقبض. فجأة مرّت بنانا صورة رؤية سابقة عاشتها كأنها كانت في هذه البقعة بالضبط. لحسن الحظ أنها لم تؤمن بـ «ما قبل» و«ما بعد».
- هل أنت بخير؟ سأل لويس سار باهتمام.
- أريد أن أزور مدرسة مارياما وأعقد اتفاقا بشأن تكاليف

(*) تطلق عموما على الأوروبي الأبيض الميسور الحال.

مدرستها، قالت بذهول. وضع لويس ساريده بحذر على كتف العجوز. انتفض جسده كأنه قد استيقظ من حلم.

- أيها الرجل الكبير، دعاه لويس سار ونظر بخشوع إلى القامة الضئيلة المتيبسة.

الرجل الكبير، عصف في رأس نانا، كان هو تحديدا من رغبت في مقابلته. علمت أن زوج روزي يسكن مع زوجته الشابة في القرية بعيدا بمحاذاة النهر. لا بد أن يكون الرجل الكبير خالا آخر. يئست من إيجاد توضيح لهذه العلاقات العائلية المعقدة.

- إذن هو أنت من يعتني بمارياما؟ انحنت نانا نحو الرجل الكبير. جلس لويس سار مقرفصا إلى جانبه.

- هي تأتيني عندما تكون لديها مصاعب. أمنحها مكانا تبين فيه. قال متضايقا.

- أية مصاعب؟ قالت نانا برعب.

- لتختفي هروبا من الشرطة.

- لماذا؟ سألت نانا منهكة لفكرة أن هناك المزيد من المعوقات التي تحول دون رؤيتها لمارياما.

- اللصوص على الشاطئ. السياح لا ينتبهون لأشياءهم ويتهمون الأطفال بسرقتها.

- أمل حقيقة ألا يكون قد حدث شيء لمارياما. فقدت نانا ثانية إحساسها بالواقع. لم تعد تشعر إن كانت هي أم أخرى غيرها التي تجلس تحت شجرة الكاشيو مع الخالين، متعمقة في حديث بلغة غير مفهومة. نهض الرجل الكبير ووقف غير ثابت في مكانه. لم تكن البدلة الرجالية ذات اللون الرمادي الفاتح

تناسب جسم المسن الضئيل.

- اعذرنا، وقت الصلاة. ساعد لويس الرجل الكبير للوصول

عبر الفناء إلى أحد غرف المجمع حيث فتحا سجادة الصلاة.

بقيت نانا جالسة في مكانها وقد حوَّطها الأطفال في الحال.

لامسوا بضحكات قصيرة مكبوتة الخصلات الشقر لشعرها

القصير بينما كانت تحاورهم بالإنجليزية محاولة أن تبعدهم.

ليس هي من يمكنها التعامل مع الأطفال لكنها لم تعد تشعر

بأنها على ما يرام كذلك. أرادت أن تخرج لتري مودو الذي

ينتظرهم في التاكسي. تخلصت من الأطفال وهي تشعر بأنها

ولجت داخل قصة لا تنتهي ولن توصلها إلى مارياما إطلاقاً.

استلقى مودو ونام في المقعد الخلفي للتاكسي. فتحت نانا

الباب وأيقظته. اعتدل في جلسته وتشاءب. وعلى الرغم من

إيقافه للسيارة بعيداً في الشارع تحت ظل الأشجار كان الحر

داخل السيارة خانقاً.

- أين تريدان الذهاب؟ قال نعلسانا وجلس في المقعد الأمامي.

- ننتظر الرجلين هناك، قالت نانا وأشارت إلى لويس سار

والرجل الكبير اللذين كانا في طريقهما خارجين من المجمع

وسط عراك بصوت عال. بدا من على مبعدة كأنهما أب وابن.

جلس الرجل الكبير على المقعد الأمامي إلى جانب مودو ولويس

سار في المقعد الخلفي بجانب نانا. لقد وُضعتُ على المحك مع

خوفها من تقرب بشر منها أو ملامستها وانسحبت تلقائياً إلى

أقصى مكان قرب النافذة. كانت أشبه أن يضع لويس سار حقيبته

البيضاء الكبيرة من القماش بينهما على المقعد. أعطى الرجل

الكبير الأمر إلى السائق بأن ينطلق.

- أين سنذهب؟ سألت نانا ومالت إلى الأمام نحو مودو الذي شعرت به الأكثر فهما لها.

- ألا تودين زيارة مدرسة مارياما؟ أجاب الرجل الكبير محله. لم يكن لدى نانا اعتراض ضد استلامه القيادة لو حرص على إيصالها إلى مارياما قبل انتهاء آخر يوم من سفرتها.

وقف التاكسي أمام عمارتين أسمنتيتين كل منها بثلاثة طوابق مع فتحة مدخل إلى فناء مدرسة كبير. كان هناك زحام طلاب حي في مجيء وذهاب. كان وقت تبديل الدوام الصباحي مع العصري.

- مدرسة، قال لويس سارو فتح الباب جهة نانا. كانت قد يؤست من إمكانية تحقق أمنيتها في زيارة مدرسة مارياما ولذا لم تكن متهيئة بالمرّة. نزلت إحساسا منها بالمسؤولية من التاكسي ومشت إلى الفناء. وقفت تحت ظل لنصف سقف وتطلعت من حولها. كان المكان مكتظا بأطفال المدرسة بزيهم النيلي والأبيض، البنات بقمصان بيضاء وتنورات نيلية وشعر مضافور بإحكام، الأولاد في قمصان بيضاء كذلك وينطلون نيلية. كان هناك خلاط أسمنت وسط الفناء. أكوام حصى ومواد بناء انتشرت هنا وهناك. اختارت نانا المدخل الذي صادفها حيث الباب مفتوح على مكتب واسع. في طرف طاولة طويلة في الغرفة كانت هناك امرأة في منتصف العمر بهندام جميل جالسة تعمل. على الأرض من خلفها جلس رجلان كل منهما على سجادة صلاة.

لا يبدو أن صلاتهما قد أثرت في المراه التي كانت منهمكة في

ضرب الأرقام على حاسبة. أشارت إلى نانا أن تقترب ونظرت عاليا إليها عبر نظارتها.

- تفضلي سيدتي؟

كان عليها أن تتماسك وتتذكر كيف وجدت في هذا المكتب أمام هذه السيدة. تحركت بتردد نحو طاولة الكتابة.

- هل يمكنك أن تخبريني إن كانت فتاة اسمها مارياما مسجلة هنا في المدرسة؟ شرعت بالحديث.

- اسم العائلة من فضلك؟ قالت المراه بفاعلية. انتبهت نانا إلى أمر جهلها اسم الأب لمارياما. عضت شفتها حيث اعتراها شعور بأنها لم تكن بمستوى الموقف الذي قد أطاح بها. شعرت بنوبة دوار وأوشكت أن تسقط فاستندت إلى حافة الطاولة. تصفحت الإدارية المشغولة أوراق السجل بينما ينزلق إصبعها على أعمدة الأسماء.

- مارياما فال، قالت، إنها حاليًا ليست في المدرسة. لست متأكدة من اسم الأب؟ مارياما أخرى انتقلت من المدرسة بعد الصف السابع. مارياما الثالثة تركت الدراسة تمامًا بسبب مشاكل عائلية.

- هل من الممكن أن تكون مازالت في المدرسة وهي في عمر الخامسة عشرة أو السادسة عشرة؟ كانت نانا تتصرف على سجيتها ولم تدر تمامًا ما أتت على قوله.

- لمَ لا؟ إن كان هناك من يدفع فكل شيء ممكن، قالت المراه بنفاد صبر.

لم تتقدم نانا خطوة في سعيها. وجدت نفسها في المكان ذاته

تماما الذي انطلقت منه. بقيت واقفة من دون أن تعرف ماذا تنتظر. حرّكت المراه من دون صبر إحدى قدميها وبدأت متسائلة. - إن شئت فبإمكانك أن تتبرعي لمدرستنا. نرحب بأي مبلغ كان، قالت بتعب ودفعت بصندوق معدني عبر الطاولة. وضعت نانا عشر ورقات من فئة المائة دالاسي في الصندوق الفارغ. - هل تعلمين سبب عدم وجود مارياما في المدرسة؟ سألت نانا مترددة.

- لم يتم دفع قسط المدرسة ولكنها على قائمة الانتظار. نحن نعتني بطلابنا ونراقبهم. نظرت إلى أوراقها وأعطت إشارة إلى أن المقابلة انتهت.

- شكرا لك، غادرت نانا مكتب الإدارة وترنحت بحذائها الفليني العالي متوجهة إلى التاكسي.

ألقت بنفسها على المقعد الخلفي، منهكة بسبب هذه الكوميديا التي لم تؤدِ إلى نتيجة.

- قل لي أين مارياما؟ قالت نانا. استدار الرجل الكبير صوب لويس سار وهز رأسه.

- إنها في العمل، قال.

- ماذا تعني بـ «في العمل»؟

- في مستودع عند النهر.

- لا أريد أن أسمع. وجدت نانا نفسها بتمرد داخلي.

- لا تريدين أن تسمعي، لا تريدين أن تري، ما الذي تفعلينه

هنا إذن؟

- لم تكذبون عليّ طوال الوقت؟ كانت نانا على وشك نوبة

هستيرية لاحتمالية تصادمها من جديد مع عجزها.
- تسميني... أننا كذابون؟ أريد الزواج بك، تذكرى. بدا صوت
لويس سار حادا.
- آسفة لم يكن قصدي إهانتك.
- ماذا كان القصد إذن؟ قال لويس سار ببرود. أصاب نانا يأس.
لم تشأ أن تكمل. قد حان الوقت لتعلن استسلامها.
- أرجوك مودو أن توصلني إلى الفندق.
- أنت تريدان رؤية مارياما قبل سفرك وسترينها. إصرار
لويس سار أخافها.
- لا، أوصلني إلى الفندق. كانت نانا على حافة البكاء.
- أنت تعرف إلى أين نحن ذاهبون؟ قال الرجل الكبير بكياسة
لمودو الذي استدار وبدأ مستفسرا من زيونته منذ الصباح الباكر.
لم تكن نانا قادرة على إعطاء إشارة واضحة. ضرب مودو بيديه
محتارا على المقود وهز رأسه متفهما الرجل الكبير.
بدت المنطقة بأكملها غريبة، مهجورة ومن دون لون. الشوارع
فيها خالية من البشر، عدا قامة امرأة وحيدة بحمل ثقيل على
رأسها. لم تستطع نانا أن تستدير. بل إنها لم تستطع أن تطلب
النزول. لن تستطيع أن تدل الطريق وتبتعد عن هذا العالم المفضل
حيث لم يكن هناك لا أسماء شوارع ولا أرقام بيوت وحيث الوقت
والمكان قد أُلغيا، وقد هيمن هدوء بحركة بطيئة كأنها كانت في
قاع البحر. هذه الصور الرمادية بالسكون والكآبة أرعبت هوية
نانا البحتة كسائحة. كان عليها أن تفكر فيما لو كانت ترفض
التعرف في الحلم على غير مارياما التلميذة الطموحة في زيها

المدرسي المكوي وضافئرها السود وفرصة مستقبلية لمقعد دراسي في جامعة للمتفوقين. أم تقبل النسخة غير المنقحة من حياتها فوق ذلك.

اقتربوا من النهر عبر طرق طينية مملوءة بالحضر وأدغال لأشجار منخفضة وعالية، أعشاب يابسة على الجانبين. اهتزت أحشاء نانا الداخلية حتى صعدت معدتها إلى بلعومها. كانت رائحة نتنة تنبعث من ماء آسن ومحاريات عفنة. غيوم من الحشرات تحوم أمام زجاج السيارة الأمامي. وهج الشمس اخترق سقف السيارة. وضع لويس ذراعه حول الحقيبة من الكتان البيضاء والطبل وبدأ شاردا بعيدا.

تبادل كل من مودو والرجل الكبير بضعة تعليقات لم تفقه منها شيئا. تركت لحالها وهي تقرّبواقع أنها لا تملك إلا أن تترك بقية برنامج اليوم بين يدي الرجل الكبير.

انفتح طريق الحصى وانتهى عند فسحة رملية تحت تجمع أشجار رفيعة ألقت ظلا بنقشات وامضة. كانت هناك جبال من أكوام شبيهة بالقمامة منتشرة في كل مكان، ولكن تبين أنها صدف محار. جلس أولاد صغار وكبار وأزواج من بنات يافعات متقرفصين عند أكوام الصدف مع دلاء من البلاستيك بين سيقانهم، وقد راحوا يقشرون ويطرقون دواخل الصدف. أوقف مودو التاكسي عند شجرة «بواب» حيث زُين جذعها بالإعلانات، أسماء وعناوين، أرقام هواتف ورسائل حب منحوتة في اللحاء. استدار إلى نانا ليحصل على ضوء أخضر من زيونته التي ستنقده أجره من أجل أن يتوقف عند وجهة لم تطلبها هي. هزّت رأسها موافقة وكانت

تعبه، ترجلت من السيارة بطمأنينتها المحدودة لتلتحق بلويس سار والرجل الكبير الذي كانت صحبته برغم كل شيء ضمانا لأمانها. الرائحة النتنة والهواء الرطب جعلها تتلقف الهواء.

توجه الرجلان قاصدين جسرا خشبيا ضيقا يربط بين ضفة النهر وبيوت خشبية عفنة بسقوف من القش مبنية على أعمدة في النهر. كانا يتحدثان بتركيز وصوت خفيض. أخذ لويس حقيبته معه وحملها على كتفه. لم تعرف نانا أين هي الآن، لا شيء غير أنها ستري مارياما وتلتقي بالواقع كما هو في هذه الأطراف. كانت تهديء من روعها بحقيقة أنها بهذا الذي تراه لم تعد هناك من مشاهد رعب في العالم لا تعرفها، إضافة إلى ما عرفته مسبقا عن طريق سلاسل الصور الديجيتال على شاشات التلفزيون المسطحة والكتب المصورة الباذخة من المناطق المنكوبة على الكرة الأرضية ومراكز النزاع والحروب القلقة.

وقعت عينها من على الجسر الخشبي المتأرجح على بضع نساء عند ضفة النهر حيث تدلت أشجار المانجروف على الماء العكر. كن يقفن والماء إلى خصورهن يحملن أكياسا من البلاستيك على ظهورهن. كان عليها أن تستنشق أنفاسا عميقة كي لا يسوء وضعها بسبب الحر والجو الرطب. أسرع لتلحق بالدليلين. استدارا بعيدا عن النهر وولجا ممرا ترابيا سالكا، كانت أشعة الشمس فيه منعكسة في صفيح اللعب المطروق كنوع من علامات طوال الممر. اختفى الرجلان في مبنى من دون شبابيك تغطيه النباتات.

تبعتهما نانا في العتمة. كان المكان كبيرا وواسعا وبحركة مستمرة بمحاذاة الجدران بشكل غير متوقع. دخلت نانا حذرة متعثرة وبالكاد شخّصت الرجلين أمامها ولكنها تبعت صوت خطواتهما على الأرضية الترابية الوعرة. وأخيرا وصلت الجانب الآخر حيث كان هناك مخرج ضيق. تبين أن البناية كانت مجرد قشرة فارغة، بقايا مستودع محترق. تلفتت نانا ورأت تحت الضوء الحاد بضعة أطفال متجمعين في زاوية مسخمة من البناية التي تشبه مخبأ طائرات ضخما.

تراجعت خطوات لتلقي نظرة إلى حشد الأطفال متاملة أن يقع بصرها على مارياما. كان البعض يلتف ببطانية، والآخر يجلس في كيس من البلاستيك، وآخرون على الأرض مباشرة. وقف البعض متجمعين يتلهون بسجائر باللون الوردي والأخضر الفاتح تلوّث الهواء برائحة حلوى شعر البنات. كانت أجسادهم بالكاد تغطيها قطع من القماش كيفما اتفق، إما مقاسات كبار كبيرة جدا أو لصغار صغيرة جدا. توجهت إلى اثنتين من البنات الصغيرات وقفتا أقصى المجموعة وسألتهما عن مارياما. انسحبتا بعيدا كرد فعل لهما وأدارتا ظهرهما لها.

وجدت نانا الرجل الكبير ولويس سار خارجا جالسين على مصطبة صدئة في محل للقمامة أصغر من السابق بخرداوات إلكترونية. وأجهزة تلفزيون قديمة، وأجهزة فيديو مكدسة في تلال عالية، وجبال من كمبيوترات وأجهزة مراقبة قديمة. انشغل بضعة أولاد كبار بإشعال نار بطريقة بدائية. سرعان ما غطى المكان دخان أسود كثيف أفرز رائحة منفرة قوية لا تحترق مطاط

ويلاستيك. عندما استقر الدخان نبش الأولاد في الجمر بأعواد من الخشب وأخذوا يجمعون قطع المعدن وموصلات ويضعونها بعناية في وعاء معدني كبير صدئ. ألقوا النار مجددا بوجبة وقود من الأجهزة الإلكترونية.

سَدَت نانا أنفها وفمها بالإيشارب وجلست إلى جانب مرافقيها. لم يبدُ أنهما كانا متأثرين بأبخرة المعادن الثقيلة ولا إزاء الأطفال جامعي الخرداوات الذين كانوا يعملون داخل هذا الدخان السام. - من الذي يعتني بهؤلاء الأطفال؟ حاولت من دون أن تتوقع جوابا. جاء طفل صغير من موقع النار راكضا إلى الرجل الكبير وشدّه من أحد ساقي بنطلونه. نهض الرجل الكبير وسار معه إلى كومة أجهزة تلفزيون تكدست كأنها تصور بحزن شهادة لانهيال العالم القديم. استغلت نانا الفرصة لتسأل لويس سار.

- أين مارياما؟ كانت تتمنى أن تنتهي رحلة اليوم هذه لتعود بأسرع وقت ممكن إلى الفندق كي تحزّم حقيبتها وتعود إلى بلدها، إلى خاصتها، بيئتها المعتادة، قبل أن تختفي تماما من وعيها. - ليست هنا. حرّك لويس سار يده.

- أين هي؟

- هذا ما يحاول الرجل الكبير فعله. بدا لويس سار متوترا.

- ما الذي يفعله الأطفال هنا؟

- يجمعون النحاس والنيكل من خرداوات الأجهزة الإلكترونية.

عمل جيد. الرجل الكبير يدفع لهم أجرا جيدا، أكد لها.

- وماذا عن الدخان؟

- الدخان ليس مشكلة.

- إنه سام، أصرت نانا.

- الأطفال الفقراء مرغمون على العمل، قال لها لويس سار غاضبا.

- وماذا عن النساء والأطفال هناك؟ أشارت نانا برأسها تجاه النهر.

- يقوم النساء بتخليص المحار من جذور «المانجروف» بقصّها بالسواطير. ويعدّها يتم تدخينه وبيعه إلى المطاعم. الأطفال يسحقون الصدف إلى مسحوق يتم استخدامه في الأصباغ والأسمنت، أوضح لها ببطء ودقة بينما هو يخرج بالدقة عينها طبله من الحقيبة.

- الأولاد الذين يعملون في بيزنس الإلكترونيات يتقاضون أجورا أفضل بكثير، واصل وهو يختبر جلد الطبل بأطراف أصابعه.

جاء الرجل الكبير صوبهم، منصرفا كليا إلى الحديث بانفعال في الموبايل. كان الولد الصغير من خلفه قد شرع في عمله اليومي بإيقاد النار بالمواد السامة.

- من أين يأتي كل هؤلاء الأطفال؟ شعرت نانا بالتعاسة لهذا المشهد السريالي.

- هاريون، هربوا... من أماكن مختلفة. وقف الرجل الكبير أمامها تماما.

- مارياما؟

- هي التي تعتني بالصغار هنا لي.

- ماذا عن مدرستها؟ كررت نانا تعويذتها.

- لقد حجزوها وسلموها إلى الشرطة. تدلى موبايل الرجل الكبير المعلق بخيط حول رقبته.
- نحن مضطرون إلى الذهاب إلى مركز الشرطة في الحال، قال. نهضت نانا كمن تلقى أوامر بركبتين ترتجفان.
- ستأتين معي. كان الرجل الكبير مجهدا ومنزعجا. ظلت نانا واقفة في مكانها تنتظر لويس سار الذي جلس مع الطبل بين ركبتيه وقد ضرب عليه ببضعة إيقاعات إيحائية عميقة.
- لديّ عزف في المساء.. هناك عرض للسياح على النهر. أشار إلى البيوت الخشبية العائمة التي ظهرت لهم أعاليها.
- زوجتي، ستعودين إليّ. أنا في انتظارك، واصل بصوته الواثق الهاديء. أجابته بضحكة عصبية قصيرة وهي تمسك برقبتها.
- انطلق الرجل الكبير من دون أن ينتظر نانا صوب التاكسي. كانت تلهث من خلفه مثل مراسلة تلفزيون مرفوضة محاولة اللحاق به.
- أريد توضيحا منك، صاحت. زاد الرجل الكبير من سرعته. كانت بدلتة الرجالية تخفق على جسمه النحيل.
- ما الذي حصل؟ وصلت نانا إلى جانبه.
- كانت على الشاطئ تعمل بيزنس. وجاء ذاك الشرطي وأخذها معه، ولكن لا لصوص في عائلتي. جلس الرجل الكبير إلى جانب مودو. ظلت نانا واقفة ونظرت من ثم إلى الخلف. كان العمال الأطفال مازالوا جالسين القرفصاء كما كانوا من دون أن يتحركوا بين الأوعية البلاستيكية وصفوف من الأكياس بمسحوق صدف المحار. ألقى الهواء حجابا لماعا قبل الغروب، حيث الشمس

لاتزال حاكمة بكامل قوتها قبل أن، ومن دون إنذار من لحظة إلى التي تليها، تغرق في النهر.

ظهر كما لو كان رؤيا في حلم رجل ممتليء قصير بقبعة محيكة على رأسه من خلف شجرة البوباب حيث توقف التاكسي. تناول دفترا مجلدا من جوف الجذع الملون وجاء إلى نانا وقدم نفسه كدليل مزرعة المحار ولفت انتباهها إلى أن الزوار عادة ما يتبرعون بالنقود للمدرسة القريبة التي أسسها أصحاب الشركة. تصفحت نانا السجل الذي يحتوي أسماء الزوار الأجانب، والبلدان التي أتوا منها، والمبالغ التي تبرعوا بها. كتبت نانا اسمها وضاعفت أعلى مبلغ مكتوب. رفضت عرضا بجولة مقابل ذلك وشكرته للزيارة. عد الرجل النقود وأعاد برضا الدفتر إلى الجوف في جذع الشجرة.

كان مركز الشرطة يقع في الشارع المشجر الأكثر زحاما والمؤدي إلى منطقة السياح. كان يحوي مباني واطئة متواضعة محاطة بأشجار المانجو. ترجل الرجل الكبير من التاكسي وصرع الباب بقوة. تبعته نانا من دون أية فكرة لما سيحتاجها فيه. دخلا عبر باب مفتوح في بناية جانبية. وحالما وطئت أقدامهما داخل البناية واجهتهما حجرة ضيقة مغلقة بقضبان بطوال الجدار الأخضر العفن. كان هناك خمسة عشر إلى عشرين معتقلا من الشباب المحشورين مثل السردين في علبة مضغوطين خلف القضبان التي امتدت من السقف إلى الأرض. بعضهم دس معصمه المجروح من بين القضبان.

الآخرون أشاروا إلى كدمات زرقاء وحمراء على أذرعهم

وسيقانهم. ورفع واحد بحركة سريعة التيشيرت إلى أعلى وأراهم خيوطا من الدم على ظهره. كل شيء تم في صمت استعراضي. قامة نحيلة صغيرة لطفل كبير تقريبا حيا بثقة الرجل الكبير الذي دسّ بخفية ورقة نقود بيده.

لم يبد الحارس البدين عند النضد في نهاية القفص آباها للرائحة الكريهة والشكاوى الخرساء من المحجوزين. كان جالسا لامباليا مع كومة أوراق مغبرة أمامه ينظف أسنانه بعود. من خلفه كانت صورة ملونة للرئيس وزوجته، امرأة في غاية الجمال من الشرق الأوسط. في نهاية النضد كانت هناك طاولة بمقعد مضافور. لم يكن هناك غيرها في الغرفة الضيقة وسقفها العالي غير خزانة للسجلات التي تركت مفتوحة الأبواب المثبتة باعوجاج بمفصلاتها.

تصافح الرجلان بحرارة طويلا. ترجى الشرطي من نانا الجلوس على الطاولة. جلست على الطرف كي لا يلوث المقعد المدهن بنظفونها الأبيض من الكتان. تحدث الرجلان الذي افترضت أنهما معارف بصوت خفيض يكاد لا يسمع. كأن للجدران آذانا. المروحة النعسة في السقف حرّكت الحرارة الثقيلة الرطبة في الغرفة المخنوقة.

- ... جيدة مثل الذهب، قال الرجل الكبير. تمتم الشرطي بشيء ما. فقالت نانا بعض الكلمات المنفصلة وتصورت أن تفاوضا يجري حول المبلغ الذي سيتم إثره إطلاق سراح مارياما من الحجز الذي لا أساس له. كانت على وشك القول إنها على استعداد لدفع ما يطلب ولكنها أحجمت. كانت قدرتها المادية تحديدا السبب

في جرّ الرجل الكبير لها معه. كان السؤال هو ما المبلغ الذي سينتزعونه منها.

توجه الشرطي فجأة بنظره إلى نانا والرجل الكبير يقول إنها التي تتكفل بمصاريف مدرسة مارياما.

نظر الشرطي طويلا إليها. لم تستطع الحسم هل كان في نظرتة ازدراء أم تعاون.

- إذن أنتِ.. راعية.. أطفالنا؟ بصق الكلمات من بين شفثيه. بأكمّام قميصه القصيرة وعلبة السجائر في جيب القميص كان لا يختلف كثيرا عن موظف متعرق ما في دائرة حكومية ما.

- جيد، جيد، قال مجاملا. هل كان ذلك إشارة إلى قبوله عرض الرجل الكبير وهو مستعد لتسلم مبلغ الرشوة؟ أدنت نانا حقيبتها لصق جسدها لتتھيا نفسيا لدفع مبلغ كبير.

تصافح الرجلان للاتفاق الذي تم. هزّ الرجل الكبير رأسه برضا وتمتم أن بإمكانهما الانصراف. نهضت نانا وكانت تنوي توديع الشرطي لكنه بدا بعيدا بأفكاره في أمكنة أخرى ولم يلحظ ذهابها. كان الرجل الكبير قد سبقها خارجا. أسرعّت نانا مارة بالقضبان والأيادي التي امتدت إليها. وبحركة أشبه بالسحرو زعت في طريقها نقودا وركضت عبر الباب تتبعها نداءات خفيضة من الرجال المحتجزين الذين لم يكن يقدم الطعام والشراب إليهم إن لم يدفعوا بأنفسهم مقابل ذلك أو أن تأتي العائلة بالطعام لهم.

وقفت في المكان بالخارج سيارة للشرطة محمّلة بوجبة جديدة من الشباب الذين قبض عليهم في منطقة السياح. رأت نانا ما فيه الكفاية وأكثر وهربت إلى التاكسي الذي كان في انتظارها. أخرجت

منديلا مرطبا من حقيبتها وجففت صدغيها ومسحت الوسخ والبكتيريا من على يديها. أوضح الرجل الكبير خطة الإنقاذ. إن سألته المبلغ الذي اتفق مع مفتش الشرطة بشأنه سيتولى الرجل الكبير بعدها شخصيا تسليم المبلغ في المكان الصحيح. إن وافقت ستنجو مارياما من التهمة.

نظر الرجل الكبير متفكرا عبر النافذة إلى جدار مركز الشرطة المتقشر.

طلبت نانا من السائق أن يوصلها إلى أقرب ماكينة سحب أوتوماتيكية، لتتمكن من سحب المبلغ المذكور في الحال. اتصل الرجل الكبير بدوره بصديقه داخل المركز.

توقفوا قريبا من بنك خاص عادي. سحبت نانا ما يكفي من عملة الدالاسي وأعطت للرجل الكبير ما أمر به من دون أن تعترض على حجم المبلغ. إن كان المبلغ الصحيح هو تعريف رشوة عادية أم سرقة ذكية، لم يكن باستطاعتها أن تحكم. رأت في تحويل النقود نتيجة منطقية للمغامرة التي خاضتها في عطلتها ولم يكن بإمكانها فعل شيء غير الوثوق بأن الرشوة كانت لمساعدة مارياما.

توجه مودو بالسيارة من دون أن يسأل إلى فندق جولدن باي. لم يتبادلوا كلمة واحدة قبل أن يتوقف عند مدخل منطقة الفندق. دفعت له المبلغ وفق التعريفة ليوم كامل مع البقشيش. وشكرته لصبره وقيادته الآمنة.

- أين مارياما؟ سألت الرجل الكبير في محاولة أخيرة لتحصل على يقين في كون مارياما حقا في وضع جيد.

- عند خالتها.

- هل كانت محجوزة مع الرجال الشبان؟

- الرجال والنساء كل على حدة. قال الرجل الكبير مع اشمئزاز
كان نانا قد كفرت.

- كنت أتمنى أن أراها قبل سفري، قالت نانا من دون أي أمل
بتحقق أمنيتها. كانت تتصبب عرقا بسبب التعب واشتاقت إلى
حمام طويل وإحدى مقطوعات بيتهوفن لرباعي وتري في «الأي
بود».

شرعت في الوداع بإعطاء الرجل الكبير بطاقتها التعريفية
وطلبت منه في المقابل رقم موبايله لكي يتسنى لها الاتصال به.
لديها خطط للمستقبل، قالت له، خطط عليه مساعدتها في
تنفيذها.

بالطبع ليس من دون دفع. لا سبب يدفعه إلى تقديم خدمات
مجانية. لديه تجارته. كان رجلا مشغولا بأكثر من مشروع في آن
واحد. يمكن أن يعتبرها شريكة له في مشروع. كان لديها مقترح
تود عرضه عليه بما يخص مارياما. استعدّل الرجل الكبير في
جلسته واستدار أخيرا نحوها.

- مارياما.. ليست للبيع، قال لها.

- يبدو أنك قلق حقا بشأن ابنة أختك. تجاهلت نانا رفضه الذي
أبداه وحاولت أن تقنعه بفرصة مارياما للمجيء إلى أوروبا والعمل
كمساعدة عائلة. في الوقت ذاته ومع عملها يمكنها الحصول على
كورس في اللغة ليكون لها مدخلا لدراسة جامعية. دراسة من
شأنها، وعلى المدى البعيد، أن تساعد عائلتها وإخوتها الكثيرين.

- ليس لديك الحق. ارتج صوته غضبا. هل يمكن أن يكون هو وليس لويس سار الذي اختار مارياما زوجة ثالثة له؟ أدركت نانا فجأة.

- قلقي عليها تماما بمقدار قلقك عليها، قالت مشتعلة بجمرها الداخلي. ترجل الرجل الكبير وفتح باب السيارة من جانبها. لم يكن لها خيار غير أن تغادر التاكسي. دفعة مباغطة جعلته يتراجع. نبشت في حقيبتها بطريقة محمومة وتناولت الموبايل ثم أخرجت منه الشريحة.

- أرجوك، أعط موبايلي لمارياما، هذا هدية الوداع لها. ناولته نانا الموبايل ولفة نقود كافية لتشتري لها شريحة جديدة وبطاقة مسبقة الدفع للتحديث. تناول الرجل الكبير النقود على مضض ولم يبد مقتنعا إطلاقا. ومن دون أن يودع نانا جلس في المقعد الأمامي إلى جانب مودو. وقفت بشعور أنها خسرت المعركة وخشيت أن يُضرمَ هذا الاضطراب العاطفي الذي عاشته النار في كآبتها في أية لحظة نتيجة إجهادها.

- مساء الخير سيدتي، سمعت صوت حارس الفندق من خلفها. ومن دون أن ترد التحية عليه انطلقت مارة به وعبر بوتيك الهدايا والمتنزه نحو الكوخ إلى غرفتها. كانت تنوي تغيير ملابسها والنزول إلى كازينو جولدن باي قبل المساء لتلعب الروليت حتى آخر دالاسي لديها. كالعادة فقد حولت مبلغا كبيرا إلى عملة الدالاسي ونسيت أنها لن تستطيع تحويله ثانية إلى عملة أخرى متداولة.

تبعات مارياما

أول ما قامت به نانا بعد أن خطت بقدمها داخل الشقة في المدخل، وقد تخففت من حمل ثقيل فرحة بوصولها أخيرا لبيتها، وقبل أن تضع حقيبة السفر جانبا وتنضو عنها معطفها وترميه اتصلت بمدريها.

- هل وصلت سائلة؟ قال ثايس متأملا نتيجة إيجابية لدوائه، عطلة للوقاية من الإجهاد النفسي والعصبي.

- لقد كنت بعيدة جدا. شعرت نانا بأنها لم تحط بعد.

- وهو المطلوب. المسافات هي الزيت للمحرك للأعراض النفسية الجسدية. باغتتها قسوة ثايس المرحمة.

- كنت بعيدة فقط، كررت مدافعة وقد أدركت تسرعها في الاتصال به، لكنها كانت في حاجة للتحدث مع أحد.

- الأمر يحتاج إلى أكثر من أسبوع لعطلة تحت الشمس من دون موبايل وريد، قال بحسم.

- لا أستطيع الابتعاد عن العمل أكثر من هذا. سمعت نانا صوتها بعيدا كأنه لغيرها.

- المهم هو أن عملي بشكل ممتاز ثانية، قال ثايس.

كان ما قصده لطيفا لكنه بدا مثل تهديد في أذن نانا. اختارت أن تتجاهله وتعد نفسها بأن تعود بسرعة إلى ما كانت عليه.

- لم أخطّ بعد. صوتها كأنه صوت لعبة أراجوز.

- ولا يجب علينا أن نتعجل في شيء.

- هناك أكوام من الملفات في انتظاري، مفكرتي مملأى بالمواعيد،

قاطعته.

- لن تحدث طويلا في الغد ونخطط، قال ثايس، بحنان

تقريبا.

- أمهلني بضعة أيام لأستقر، ترجمته بالصوت الغريب ثانية.

أصبح ثايس شخصا على درجة من الأهمية في حياتها

مع «روان» بدرجة أكثر مما كانت تطيق. يفرعها ضعف البشر،

سواء ضعفها هي أو ضعف الآخرين. الضعف يخلق الفوضى،

والفوضى هي الجحيم. على الرغم من أنها كانت ملحدة ومادية

كان مصطلحا «الروح» و«الجحيم» مستخدمين في تفكيرها.

كانت في الأساس ترغب في دراسة الفلسفة بتخصص في

ديكارت، ونظريته «أنا أفكر إذن أنا موجود» كانت تعويذتها التي

علقت عليها هويتها. كانت مدمنة فكر. منذ كانت طفلة وعندما

يعترضها شيء كانت تشفي جروحها وتعادل آلامها عن طريق

تأملها، وفلسفتها تنظر إلى سوء الحظ عبر مركب تفكير معقد.

لم تندم لإسقاطها دراسة الفلسفة لمصلحة الأساس المضمون في

دراسة الماستر في العلوم الاقتصادية، ولكن بقيت الفلسفة هواها

تطفو في المواقف الصعبة مثل شذرات وشظايا من تلك الفترة

قبل أن تكون لها هذه الحصيلة من العمل والخبرة، وقبل أن تكون

هي والحصيلة وحدة واحدة لا ينفصل بعضها عن بعض.
بعد بضعة أيام من العمل المضغوط الذي اقتضى اهتمام
نانا الكامل بدت مغامرة السفر فترة فوضى حصرًا، اضطرابًا
غامضًا، وهي في خضم إلقائه خلف ظهرها. كانت قد عادت
إلى عالم الواقع من الحلم المنذر والمعتم. كان هناك سبب لكل
شيء ولكن لا معنى، كما طمأنت نفسها. مازالت تشعر باللحظة
المبهجة إياها حين قبّلت العجلات الصغيرة للطائرة بمهبط
المطار في كاستروب بنفس عميق. راحة لا توصف انتشرت في كل
أنحاء جسدها الذي كان في حالة إنذار عالٍ طيلة إقامتها أيام
السفرة.

كانت خلفية سفرها في عطلة خارج فترة العطل الاعتيادية
للشركة هو التقييم الخاص بها للأشهر الأخيرة من قبل فريق
الإدارة. كانوا يقيّمون أنفسهم وبعضهم البعض باستمرار وفق
استمارة تقييم (القدرة، التواصل، الفعالية، جهد العمل،
المسؤولية) وفق مقياس سلّمي من ١-٧. وقد كانت أكثر من مرة
في أدنى السلم. انعدام الثقة من قبل الزملاء صار عامل ضغط
أدى إلى ارتفاع خطر في مستوى الأدرينالين لها. لقد خُصّصت
لها خمس جلسات عند ثايس وهو أحد مدربي «روان» من موظفي
الشركة الذين كانت مكاتبهم تشغل الطابق الأعلى لبناية الشركة
في شارع أمار. اعتبرت نانا جلسات معالجة الإجهاد النفسي
والعصبي المتأتية من ضغط العمل إثباتًا على أن «روان» تعدّها
موظفة قيّمة يستحق الاستثمار فيها والتطوير.

عن نفسها فهي لم تلحظ مشكلة أو خلافاً، ولم تفهم التقييم

المتدني الذي جاء من قبل المجموعة. شعرت بالغبن وتملكها غضب
حيال زملائها الذين لم يتمكنوا من تقدير استحقاق جهدها
في عملها. كانت تعمل لست عشرة ساعة في اليوم وعندما كانت
في حالات نادرة تعود من عملها في السادسة مساءً كانت تمزح
بقولها إنها تأخذ إجازة لنصف يوم. ولكن كما يبدو كانت هناك
هوة بين ما تراه في جهدها وحكم زملائها.

عادت نانا من عملها بشعور بالضيق. هرعت في طريقها
لأقرب محل بيتزاريا. ألقت بنفسها على الأريكة مع قطعتي
بيتزا وكأس من الشراب. كانت لديها ممانعة غريبة في داخلها
طوال اليوم ضد قراءة تقارير المشروع وملخصات اللقاءات التي
قفزت إلى صندوق تسلم الرسائل. كانت تعمل بآلية ويفعل الدواء
المخفض للخوف. شعورها الأول بالراحة بعودتها إلى البيت ثانية
بعد السفر والانغماس تماما قد بهت. أفرعها بأن العمل لم
يعد يثيرها، لم تعد تشعر بالنشوة بسبب المعارك التي تخوضها
مع فريق خدمة العملاء ومجموعة فريق الإدارة. اختفت تلك
الاستثارة التي تعود بها إلى البيت بعد عقدها لصفقة استثمار
كبيرة.

لم يكن هناك سوى التعب الذي يشبه الموت وسوداوية الرجل
الآلي التي لا حدود لها. لو علم زملاؤها بما حصل لها لكانوا
قد حكموا عليها بالفصل، بعد أن كانت العطلة المفروضة عليها
على العكس من الهدف حيث سحقت البطاريات ودفعت بها إلى
الحافة بمسافة أبعد بكثير. لأنه لم يكن هناك من حقائق أخرى
غير الحياة هذه تعيشها هي وهم في البناءات المستقبلية ذات

الوجاهة من الزجاج والستيل لـ «روار» العالمية ومساكنهم الخاصة الراقية المجهزة بالأطفال والفتيات مساعدات العوائل. كانت نانا تعرّف نفسها مائة بالمائة بتلك العوائل السعيدة/غير السعيدة لأن المجتمع يعود إليهم.

بدلاً من الانكباب على ملفات العمل التي عادت بها إلى البيت لكي تستعد للغد منحت نفسها ساعتين في مركز اللياقة الذي يقع على الجهة الثانية من القناة في مول فيسكة تورف. شعرت فجأة بحاجة لتمارين الروح خارج الجسد ناسية تماماً أن روحها قد بقيت هناك في الحرارة الاستوائية حيث لا تتمنى العودة. كان يمكنها النظر إلى «فيسكة تورف» من شرفتها في الطابق الثامن في صومعة الحبوب «كيا الصويا»، في «جيمينى ريزيدانس» وحقيبة اللياقة كانت تقف دوماً على استعداد عند مدخل الشقة في حالة التحرك السريع. كان إحماؤها بالركض عبر الممر الضيق وجسر الدراجات الذي ارتفع كأنه رسمة غرافيكية بين «بروكان» و«كالفة بوذانه». شعرت بأنها تتهرب من العمل وتريد للوقت المسروق أن يمرّ بسرعة. عندما لا تكون مدفونة تماماً في عملها يملكها شعور بالذنب مشئت وغير مريح.

دخلت نانا بعد تمريرها الكارت مركز اللياقة متوجهة مباشرة إلى المنزع. وخلال لحظات وجدت نفسها على حزام الركض. تفصّد العرق من مسامات جسدها وكل معمل أفكارها قد تقلص إلى صور مضببة على شبكية العين التي تحولت بعد ٣٠ دقيقة وبسرعة قصوى إلى فراغ من دون ألوان ملأته مختارات موسيقية على الآي بود.

كانت قد ألفت جدا المكائن إلى درجة أن بإمكانها أن تتم برنامج تمرينها وهي نائمة. ذابت سوية مع البنى الملتوية للأجهزة الحديدية التي انتصبت كمحض خيال من حرب النجوم وصعب عليها الانفصال عنها. بقيت جالسة محنية جذعها إلى الأمام على السرج ورأسها بين يديها مثل مفكر «رودن» وقد شعرت بأن جسدها قد انحل إلى كتلة عضلات من دون شكل.

عادت ثانية واستعادت تحت الدوش شكل جسدها متماسكا من جديد. كانت رشيقة وطويلة القامة مشرّبة بقامتها التي برز شكل عضلاتها بوضوح من تحت الجلد. كانت وحدها في حمام الساونا وقد بدأت أفكارها تأخذ شكلا وهي تستغرب كيف نشأ هذا الضعف الداخلي لديها، وكيف تحاربه. هل الضعف مبني في داخل كل إنسان لأن النجاح لا يدوم؟ هل حالها الحظ كثيرا وقد حصلت على أكثر مما يجب وأن أوان عقاب القدر؟ ولكن لم يمنحها أحد شيئا. كل ما كسبته ماديا ووصلت إليه في السلم الوظيفي كانت قد حاربت من أجله ودفعت ثمنه دما وعرقا ودموعا. لقد حصلت على ما طمحت إليه ووصلت إلى ما كانت تريد أن تصل إليه. من منطلق فلسفة تقول إن أمنيات الإنسان الداخلية اللاواعية تتحكم في عملية تحقيقه. بوجودها في «روار» تشعر بأنها في بيتها. هنا تضع كل طاقاتها العقلانية والإبداعية. هناك رابط قوي يشدها بالشركة. لقد طورت قدراتها المهنية، صارت محترفة وأودعت كل وجودها لدى «روار» التي كانت عائلتها الصغيرة والكبيرة في الوقت نفسه متفرعة في كل أنحاء العالم.

قامت في بيتها في «جيميني ريزيدانس» بخطوة كبيرة أخرى هاربة من العمل بالدخول إلى «Donor Sibling Registry»^(*)، حيث كانت زائرة دائمة. كانت هناك حاجة كبيرة تدفعها إلى مشاركتها أنصاف البشر من أمثالها بخبرتها وتجاربها، على الرغم من أن قانون الدنمارك الذي يحمي مجهولية المتبرعين يحول دون بحثها عن إخوة نصف أشقاء لها من المحتمل العثور عليهم. كان الموقع بيتها الثاني. كانت قيم «دي أس آر» الجوهرية هي الأمانة والصدق توائم تلك القناعة حول أن كل إنسان له الحق الأساسي في الحصول على معلومات حول أصله البيولوجي وهويته. «هناك إرثان دائمان نأمل أن نمنحهما لأطفالنا، الأول هو الجذور والثاني الأجنحة».

فكرت نانا في طفولتها والتحول الذي حدث لها بعد حفل التخرج من الثانوية عندما علمت بالمصادفة أن والدها كان عقيما ولم يكن الأب البيولوجي لها ولكن مجرد «بديل» لمتبرع مجهول. بضربة واحدة اختزل والدها إلى بويضة وحيمن مجهولين امتزجا معا وانقسما إلى خلايا جديدة شكلتها. شعرت كأن على جبهتها علامة يراها الكل تقول إنها نتاج اصطناعي. كانت حساسة جدا في تلك الفترة من الدراسة، غير واثقة من هويتها بسبب الكلمة المشهورة «طفلة بالتبرع» التي حولتها إلى شخص آخر غير الذي كانت عليه.

لم يكن القصد هو معرفتها للحقيقة بشأن ولادتها على الرغم من أن العائلة ودائرة الأصدقاء والمعارف كانوا يعرفون.

(*) مختصرها هو الحروف الأولى الثلاثة «دي أس آر» وهو موقع على الإنترنت بمنزلة سجل لتأكيد صلة القرابة بين أطفال ولدوا من مختلف الأرحام من حيوانات منوية تبرع بها شخص واحد.

ولكن أحد الضيوف وهو صديق قديم للعائلة، العم فرانك
وبتأثير السكر لفّ ذراعه حول كتفها بحبّ وناداهَا بـ «طفلي
بالتبرع». في اللحظة شكّت في المرسل الذي يدير عيادة أنيقة
خاصة للإخصاب، ولكن ذلك وصلها مثل خيال حروكل ما فعله
فرانك هو مدّهم بمساعدة متخصص بشأن ولادتها.

كانت شقة الوالدين الفارهة جدا تضجّ بالزوار السعداء.
دخلت رائحة الليلك والعشب المقصوص للتو عبر النوافذ المشرعة
وزاوية التزويد بالشراب في الشرفة مكتظة. منتصف كل هذه
الحركة شعرت نانا بالخيانة وبأنها قد تركت وحيدة تحت سماء
فارغة. حب الوالدين قد استراح على كذبة، والحب والكذب وفق
مصطلحاتها الأخلاقية لا يمكن أن يجتمعا. بتطرفها الشبابي
تخلّت عن والديها، على الأخص أمها التي لم تستطع أن تغفر
لها وأنكرت رؤيتها بعد ذلك. فضح هويتها البيولوجية كان
على درجة من العنف اضطرها إلى تلقي العلاج من أجل جمع
شظاياها. «الأطفال الذين يخلقون نتيجة تبرع بالحيمن إما أن
يعلموا بالحقيقة في وقت مبكر جدا وإلا لا يصح إخبارهم. إن
كانوا في سن المراهقة أو النضج فستكون الصدمة والغضب حيال
صمت الوالدين كبيرين جدا». ونتيجة لمرارة تجربتها الخاصة
كان هذا هو ما اتفقت عليه تماما مع زملاء لها يشاركونها القدر
ذاته في غرفة «المحادثة» على موقع «دي أس آر».

شعرت نانا بالخجل من ولادتها في مختبر جعل منها سلعة
من نتاج التلقيح الاصطناعي أو بإنجليزية أكثر لطفا في
التعبير ما يقال «الإنجاب بالمساعدة». لم تخلق من الحب،

ولا العاطفة ولا العنف بل من إنجاز علمي في محيط كلينيكي بارد. لم تستطع الكف عن التفكير في كلفتها، فيما لو كان والداها قد حصلوا عليها بسعر مخفض من الصديق!

كانت قبل أن تعرف السبب تلوم والديها لحبهما لها غير الكافي لأن يعطيها إخوة. غالباً ما سألتها إن كانت طفلة متبناة مادام أنها كانت شقراء ولم تشبه أياً منهما. كم كانت غبية وجاهلة. عندما كانت تفكر في نفسها قبل انفضاح السر كان يتملكها عطف على البنت الصغيرة التي ركنوها في عتمة مجهولة كضحية لخداع الوالدين. غضبها الجامح وحاجتها إلى الانتقام كانا من ضمن الأضرار التي تمت معالجتها مع الطبيب النفساني. لقد صارت سيدة الساكتين الكابتين، ولو كان الكبت جزءاً من نظام الكراتيه لكانت قد حصلت على الحزام الأسود. أغلقت نانا الموقع ودارت حول نفسها على كرسيها من دون استقرار.

أصابته نظرتها الشاشة المسطحة التي نسيت أن تطفئها عندما توجهت إلى العمل في الصباح. انزلقت الكاميرا داخلاً بين الأشجار خارجاً في غابة متحجرة. لمعت الجذوع الرمادية المفضضة المتينة تحت الشمس. جلست على تخته القدمين للكرسي الكبير وانتظرت حتى تجد الكاميرا شيئاً ما مثيراً بين الجذوع، نوع حيوان غير معروف، نبات نادر، متحجرات من زمن ما قبل التاريخ، حجر بركاني من نيزك. كان برنامج المجلة العلمية الأسبوعي هو الوحيد الذي يكسر رقابة الأخبار والبرامج الترفيهية. المجلة كانت تذكرها ببرامج الأطفال في طفولتها

وذلك الأمان وتلك الحرارة التي كانت تبعثها في صالة اللعب
الواسعة حين كانت تعتقد أنها مازالت من نتاج حب والديها.

في فترة ما قبل الظهر لليوم الثاني أحست نانا بجهاز الموبايل
يهتز في جيب سترتها. تناولته من دون رغبة ورأت على شاشته
رقما من غامبيا. شعرت بضيق شديد كأن تجربة مريرة تصعد
إليها من اللاوعي. من هذا الذي يقبل على الاتصال بها من
هناك؟ صحيح أنها نشرت بطاقتها يميناً ويساراً ولكن أن يستخذ
م أحدهم البطاقة هذا ما لم يخطر ببالها. نهضت وخرجت من
غرفة الاجتماعات. سرى صوت مارياما مثل صدمة كهربائية في
جسدها. لقد نسيت أنها منحتها أحد أجهزة الموبايل التي لديها
عندما سافرت.

- أوه، حبي، هل هي أنت حقاً؟ أية مفاجأة. خفق قلبها بشدة،
يحضره انفجار مشاعرها التلقائي الذي فاجأها. على الطرف
الثاني كان ذلك النفس الملح المحبوس الذي تعرفه جيداً من
الشاطئ السياحي.

- ما الذي حصل؟ لم لا تستطيعين الحديث الآن؟ مارياما؟
نظرت نانا بأسف إلى شاشة الموبايل. لقد انقطع الاتصال.
اتصلت في الحال ثانية ولكن لم يكن هناك جواب.

وكانها قد سقطت أرضاً خوفاً مما يمكن أن يكون قد حصل
لطفلتها الصغيرة (للمرة الثانية تفاجيء نفسها باختيارها
العاطفي للكلمات) منذ أن غادرت التاكسي ذلك المساء عند
محطة الباص في سيرا كوندا.

عادت نانا مكرهة إلى غرفة الاجتماعات وأخذت مكانها عند

الطاولة المستديرة برأس ملؤه مارياما التي عادت إليها بمعجزة.
مثل رؤيا تبدت قامة مارياما الهزيلة في زجاج النافذة وانحشرت
بينها وبين المجتمعين.

- ما قولك نانا؟ سمع صوت عال وواضح.

- رأيي كالسابق. تلعثمت نانا وتنحنحت.

- هذه هي المشكلة تماما، لقد عبرنا إلى نقطة أخرى، قال
كاما. أربع عيون بحلقت بلا تعبير في وجهها. احمرّ عنق نانا
وخفضت بصرها. عدم التركيز لا وجود له في اجتماعات فريق
العمل الذي كان بصدد عمل دراسة للفصل الذي مرّ على الفرق
الخمس لخدمة العملاء في القسم ووضع استراتيجية للفصل
القادم.

- وصلنا النقطة رقم أربعة، همس هانس لها.

- ألا يمكنكما التحدث على انفراد لاحقا، بدا صوت كاما
منزعجا.

- دعونا نكمل، قاطع جيرت مدير الاجتماع بصوته. هزّ مديرو
الفريق رؤوسهم وامتلأوا. كانت نانا ممتنة لتساهل زملائها
ظاهريا على أية حال. ما فكروا فيه في دواخلهم لم يكن ليعنيها.
لاحقا صادفت هانس خارجا عند ماكينة القهوة. كانت بعيدة
مع أفكارها التي تجمعت حول مارياما منذ تلك المكالمات المقطوعة.
وضعت القدر الورقي في حامله وأسرعت خلفه واعتذرت لعدم
تركيزها حيث لم ترد على تحيته. قال لها: لا بأس. هو الآخر كان
يتعارك مع حسابات تكلفة لم تتطابق مع توقعات عميل لديه.
هزت نانا رأسها متفهمة وشعرت بنوع من الخيبة وهو

ما أدهشها أن تتم إزاحتها بمعلومة محايدة من زميل. يمكننا تناول القهوة الساعة الثالثة في الكانتين، اقترح وواصل مسرعا لانشغاله. رحبت بالعرض على الرغم من وقتها الضيق.

ذهبت إلى الكانتين وفق الاتفاق. كان فارغا منتصف ما بعد الظهر. لقد جلست في غرفة الاجتماعات منذ افترقا ولم تكن قد تقدمت كثيرا بمراجعتها لصفوف الأوراق، البريد الإلكتروني ورسائل الموبايل القصيرة التي كانت تقفز خلال الاجتماعات. دفع هانس الكرسي بأناقة تحتها وجلب كوبى قهوة بالحليب. جلس قبالتها وقد بدا كأنه ينتظرها. كان بالفعل مهتما بسلامتها.

- عذرا، أنا لم أخطأ بعد. جففت نانا بضع قطرات من فوق شفيتها.

- لقد فقدت توازنك.

- عليّ أن أعيد ترتيب ما مررت به هناك.

- هل لديك بعض صور من هناك؟ سأل باهتمام.

- أنا مصورة بئس، ولكن ربما بعض الصور من الشاطئ.

لم تشأ نانا أن تريه صور مارياما التي كانت معها على اللاب توب.

- لا تنحرجي مني. أنا هاو. كانت يد هانس على بضعة

سنتميترات من يدها. كان طبيعيا جدا وداقنا مما أريكها لأنه

لم يكن كما يبدو ظاهريا. لم تجرؤ أن تنظر إليه.

- هل قلت شيئا خطأ؟ كان بؤبؤا عينيه صغيرين جدا، كأنهما

ثقبا إبرة سوداوان. فكرت أنه لا بد أن يتعاطى الكوكايين ولكنها

نفضت الفكرة عنها.

- لا، لا، لدي الكثير من عقود العملاء معلقة حاليا هذا هو

كل ما في الأمر.. بالإضافة إلى كما تعلم.. حياتي الخاصة. كانت نانا تفكر في مارياما. لم تكن لديها حياة خاصة.

- نحن نكون في أحسن أحوالنا عندما نركز على عملنا، قال هانس يساررها. أحببت نانا قوله «نحن».

- لم أجلب معي هدايا بالمرة، قالت بارتباك لم ينسجم تماما مع الحقيقة.

- وماذا فعل بكل هذه الخرداوات. اقتربت يد هانس منذرة. ربما كان وهما أنها شعرت بحرارة الجلد.

- لن أسافر إلى هناك ثانية، أكملت نانا وسحبت يدها بعيدا. لقد جلسا حقيقة براحة في طرف الغرفة الواسعة المفتوحة حيث يمكنهما أن يريا من خلالها كل الطوابق العليا. فكرت نانا مع نفسها في أن تلك الطاولة الرمادية والأكواب الخزفية بدت شيئا بيتوتيا. رن موبايلها. توقف هانس منتصف جملة وأخذ يحدد فيها منتظرا.

- دعه يرن، قالت. كانت تخشى أن تكون مارياما ثانية. تكاد تشعر بها تقريبا من خلال اهتزاز الموبايل الحاد.

- هيا ردي، أصر هانس.

- أرجوكِ اتصلي بي، جاء صوت مارياما. أسرعت بالاتصال.

- متى تأتين إلى غامبيا ثانية؟

- ليس الآن طبعاً.. ليس قريبا على العموم، شعرت نانا بالضيق.

- الوقت يمر.

- كيف حالك عزيزتي؟ قاطعتها نانا وبدت كأنها «مدرّب

الحياة» المسؤول عنها.

- أنا جائعة، دائما جائعة. أحلم كل ليلة بالخبز، جبال من
الخبز، أرجوك نانا لا تنسيني.

- ثقي بي مارياما، عليك أن تعتمد عليّ، جاءت نانا على
قول ذلك من دون أن تعرف ما قصدته بـ «ثقي بي» التي طلعت
من فمها من تلقاء نفسها.

- لا تنسيني... صوت مارياما غرق في قرقرة نصف مخنوقة
كان أحدا قد وضع يده على فمها. جلست نانا بتأنيب ضمير بعد
المكالمة.

ويشعور بالانزعاج من وعدها لمارياما بشيء ليس في مقدورها
أن تفي به وأنها قد تخلت عنها بمجرد مواصلة حياتها كأن
شيئا لم يحدث. كانت مريكة تماما وعادت لتتصل ثانية لكنها
لم تحصل على خط. ضربت الأرقام ثانية وأخذت تتصل بشكل
محموم، لكنها لم تحصل إلا على صوت زمجرة مزعج كل مرة.

- هل من خطب؟ قال هانس متعاطفا.

- لا ليس تماما.. مجرد مشاكل صغيرة. كان عليها أن تسيطر

على نفسها لئلا تنهار.

- آسف لسماع ذلك.

- لا أدري ما الذي يحدث معي.

- يبدو الأمر جديا. هانس كان قلقا حقا. أقلقته تلك الرقة

في صوته. ما الذي يريده منها؟

- لا عليك، أنا أدبر أمري دوما من دون.. لم تقل نانا كلمة

«مساعدة»، لم تشأ أن تظهر ضعفها. يكفيها أنها بتزكية من

المجموعة قد حصلت على مدرّب حياة يساعدها على التخلص من إجهادها. على الرغم من أن التدريب هذا كان من ضمن ما هو طبيعي أكثر من كونه استثناء في طاقم «روار» للموظفين لكنه كان دوماً للآخرين الذين كانت لديهم مشاكل وليس نانا. نانا لا تبكي أبداً، هذا ما اعتادت زميلاتنا في المدرسة أن يمازحنها به. صورة المحيط عنها كبنت بجلد سميك غير قابلة للجرح لم تكن تتناسب مع صورتها هي عن نفسها لحيوان لين، لكنها استطاعت أن تتطابق مع حكم الصديقات لا إرادياً.

بعد افتضاح أمر أصلها البيولوجي قال لها ذاك الرجل الذي كانت تناديه حتى تلك اللحظة بأبيها، متمتما بإذنها: «أنا في النهاية لست إنساناً أعلى» كنوع من اعتذار لعقمه ولنقص الشجاعة لديه ليخبرها بالحقيقة.

تبنت منذ ذلك الحين هذا التعبير الغريب قليلاً بشكله الإيجابي وكررت عدة مرات داخلها: «أنا إنسانة عليا»، حتى آمنت هي به. ما أكد ذلك هو تطورها الوظيفي ونجاحها السريع جداً. والأب الذي كانت مرتبطة به جداً احتقرته لاقتباس نيتشة العكسي. أرادت ألا تشبهه أبداً وكان عليها أن تذكر نفسها مراراً وتكراراً بأنه لا خطر لكونه لم يكن أباًها الحقيقي. بمكان ما والذي لم يكن لديها سيطرة عليه فقد أحبته لأنه كان كل ما لم تكن هي عليه.

- شكراً لمؤازرتك لي في الاجتماع، ما فكرت نانا بقوله أخيراً.

- العضو، قال هانس متلئناً. استغربت نانا طلبه اللقاء في

الكافتيريا بدلاً من الوقوف عند ماكينة القهوة وتبادل بضع

كلمات كما اعتادا عندما يلتقيان مصادفة. لم تكن هادئة بداخلها كما لم يكن هناك من شيء تقوله له. كان تركيزها ينصب في العمل الذي ينتظرها.

- شكرا للقهوة. قالت ونهضت.

- أنا الذي أشكرك لاهتمامك، قال هانس برسمية ونهض. رأت نانا فجأة أنهما متشابهان، نصف بشر لهما أحد الوالدين فقط أما الثاني فقد ظل مجهول الهوية. هل يرى فيها الشيء ذاته؟ لم تجرؤ نانا على سؤاله مباشرة. لم تشأ أن تكشف عن نفسها كطفلة بالتبرع إن كان شعورها بتقاسمهما القدر هو مجرد تكهن. ولكنها لم تستطع العثور على أسباب أخرى لاهتمامه ولطفه معها. لم تكن تشجع على المغازلة أبدا في العمل ولا تتحدث إلا نادرا عن نفسها أو عما كانت تفعله خارج «المعرض الزجاجي» كما يطلق على مبنى «روان».

عادت نانا إلى مكتبها من دون قدرة على التركيز. كانت مارياما تدور طوال الوقت في فكرها. حالما انتهت وهي جالسة من تقدير استثمارات للمباني والنفط الخام حتى لَوْنَت صورتها شاشتها الداخلية بحركة يد، ابتسامة، لمسة عابرة.

تسمع بين وقت وآخر صوتها الناعم المهتز كما كان على الشاطئ في جملة ما ظلت عالقة في آذانها: «أنت متعهد مدرستي» «هل لديك شيء للأكل سيدتي؟». ظنت نانا أنها ستخلي رأسها من مارياما بمرور الوقت حين تصير ذكريات العطلة على مسافة ولكن مارياما وعلى العكس من حساباتها ظلت عالقة في فكرها. لم تأخذ نانا عطلة منذ سنوات. سافرت كثيرا عبر عملها، جزء

في زيارة للعملاء، وجزء في اجتماعات في فرع «روان» لندن وفروع أخرى في أوروبا وخارجها إلى حد أنها لم تقو على حزم حقيبة سفر. إن صادف استثناء أن سافرت في عطلة كان العمل دائما في حقيبتها. ربما لم تكن تحتل السفر في عطلة من دون اتصال بالبريد والموبايل مع «روان». ربما هو انعدام الوزن غير المعتاد الذي جعلها على الأخص سريعة التأثر بانطباعات جديدة وساهم في أنها سمحت بحدوث هذا التأثير عليها.

ألفت نانا نفسها في حالة من الشلل. لم تستطع الاتصال بمارياما فقد كان موبايلها كما يبدو ميتا. حاولت أكثر من مرة تحويل مبلغ من المال إلى حساب الخالة روزي معنون إلى «مارياما»، ولكن الحساب لم يعد له وجود والمبلغ قد تم رفضه. هذا القلق السلبي قد اختزل وقتها إلى وقت انتظار. كانت منزوعة من نفسها والضعف الذي تسلل إليها مع مارياما وهذا الخوف العاطفي والتوجس الذي رافقها. لم تكن قد واجهت ثايس بعد بتبعات مارياما. أوشكت أكثر من مرة أن تفصح عن اختناقاتها ولكنها أحجمت. كان من شديد الإحراج أن تكون إنسانة غريبة جدا، تعيسة على الشاطئ قد أثرت فيها وحركت مشاعرها بشدة. كان العمل الخيري ولا شك تقليعة حلت موضتها وعمل منظمات المساعدات قد هيمن على التلفزيون لكنها لم تستطع إنقاذ مارياما.

هنا كانت المسافة بينهما كبيرة، ليس جغرافيا فقط بل ذهنيا أيضا وثقافيا. منطلقاتهما كانت مختلفة، كما فكرت بداخلها. كانت آخر جلسة لنانا مع ثايس بشأن الوقاية من الإجهاد.

هي بصدد تقييم الفترة وأخذ قرار فيما إذا كانت بحاجة إلى الاستمرار. بدأ ثايس متفائلا بالقول إن نانا قد تقدمت كثيرا وقد عادت تعمل بطبيعية. يمكنها الطيران وحدها الآن ولا تحتاج إلا إلى متابعة بسيطة. كانا موجودين في صف تدريس لشخص واحد تقريبا مع سبورة تستند إلى دعامتين. نظر ثايس إليها بهدوء منتظرا. ثم تناول القلم واستدار إلى السبورة البيضاء. بطنه الكبير كان محبوسا داخل القميص المشدود والمسافات المفتوحة بين الأزرار.

- دعينا نلخص... موضوعك قبل العطلة كان...؟ قال ثايس يساعدها لتشعر في الحديث.

- أن أنظم عمل يومي بشكل أفضل.

- كيف؟

- أن أقسم الوقت إلى حقول محددة مع تركيز تام على الحقل الواحد لكل مرة.

- وما أهمية ذلك بالنسبة إليك؟

- لأنني أريد أن أقدم أقصى ما لدي. أن أعطي «روان» كل ما عندي.

- هل هناك من شيء أهم في حياتك من «روان»؟ وضع ثايس بطاقة لاصقة على السبورة مكتوبا عليها: «روان».

- لا. فكرت نانا طويلا. انتظر ثايس بصبر على السبورة البيضاء.

- أليس كذلك؟ وسأكرر لك القول إنك لست الوحيدة، قالها

ليشجعها.

- بلى.. ربما.
- ربما؟ كان لدى ثايس كما يبدو الوقت كله لها. أحجمت نانا.
- كان الخوف رابضاً يلمع في الظلمة عميقاً بداخلها.
- ضوء غريب، قالت وعصرت عينيها. نظر إليها ثايس باستغراب.
- هذا ليس موقف علاج، قال محذراً. كان حرفياً وبأدواته يكسر الأساسات الحديدية التعب ويصب أساسات جديدة أكثر منها مناسبة.
- أعرف تماماً، قالت نانا بانزعاج من تلقينها.
- هل لديك مواضيع أخرى أو؟ تابع بفاعلية.
- دعني أفكر.
- فكري بصوت عال.
- لا، لنترك الأمر. لا تعتقد نانا أن مارياما تعود إلى العيادة هذه حيث تُعاد الحيوانات العاملة المحترقة بسبب العمل إلى حظائرها.
- ما الذي تسقطينه؟ أصرّ ثايس.
- لا، لا أستطيع. ودت نانا بشدة لو نهضت من المقعد الجلدي وهربت من الصف، ومن حياتها.
- لا أحد يجبرك على شيء أنت لا ترغبين فيه. جلس ثايس على المقعد المائل إلى اليسار مقابلاً لها. كانت تنبعث منه رائحة عرق خفيفة.
- أعرف جيداً. كانت نانا مترددة ومتعثرة.
- ولكن يمكننا أن نحرك بعض البيادق من أمكنتها ضمن

مدى وقت مقدور عليه، قال ثايس الذي يتعين عليه أن يقدم نتيجة لـ «روار».

- وأنا متهيئة لذلك، قالت نانا ولكنها كانت تعلم أن من شأن أي جواب حذر لها عن أسئلة ثايس البسيطة أن تكون له تبعات غير محسوبة يمكن أن تقلب حياتها رأسا على عقب.

- لست بقصد مطاردتك، قال ثايس بتريوية.

- أنا مضطربة، اعترفت نانا.

- إنها البداية. وضع ثايس ساقا على ساق توازنا مع نفسه كما يبدو.

- ليس لأنني لا أريد.. المواصله. قالت نانا بتردد.

بقي ثايس منتظرا.

- لا يمكن التوفيق بينهما، هناك مسافة كبيرة جدا، أكملت

نانا.

- ما الذي لا يمكن التوفيق فيه ولماذا؟ قاطع ثايس.

- لم يكن سفر عطلة عادية.

- لا، كان للوقاية من الإجهاد النفسي، ما المشكلة تحديدا؟

واصل ثايس مرتبكا.

- العمل يأخذ كل شيء.

- لا مجال لشيء آخر؟ اقترح وقد شعر بتورط عاطفي خلف

إشاراتها الملتبسة.

- أو على العكس أيضا... ربما. نانا لم تستطع أن تبلور فكرتها.

- ما هو الأهم؟ سأل ثايس، ونانا مطالبة بالإجابة عن سؤاله.

- بطريقة أخرى ما الذي يعني لك أكثر؟

- لا فرق.
- عليك أن تتولي القيادة بنفسك. ما الذي تريدينه؟ نهض
- ثايس وتوجه إلى السبورة وثبت بطاقة ثالثة عليها. شلها سؤاله.
- لديك احتمالان: أن تختاري أحدهما، حيث لا يمكن التوفيق بينهما، أو أن تحاولي تجاوزهما كليهما.
- لا أستطيع.
- ما الذي لا تستطيعينه؟
- تجاوزهما كليهما.
- إذن عليك أن تختاري.
- لا أستطيع. ألم بنانا شعور بالاختناق.
- حاولي، إن كنت تستطيعين تحديد المشكلة، قالها بروتينية.
- أريد الاثنين معا ولكن هذا مستحيل.
- لماذا مستحيل؟
- لا مكان له هنا. أشارت نانا إلى صدغها.
- هل هناك ما تريدين تغييره في حياتك العملية لتحصلي
- على مكان ووقت لتعملي شيئا خارج «روار».
- أما أو.. فقدت نانا صوتها.
- أي نتيجة انتهيت إليها؟
- لا يمكنني الاستغناء عن «روار».
- حسنا، هذا هو منطلقنا. وضع ثايس بطاقة أخرى على
- السبورة. لقد نال أولا ما تريده «روار» ويريده هو.
- منطلق؟ حددت نانا في وجهه.
- أنتِ اخترتِ «روار»، أوضح لها.

- أنا لم أقل ذلك، قالت. استدار ثايس ورمقها بنظرة.
- أنتِ اخترتِ «روار»، ظل يقول ولصق بطاقة أخرى على السبورة.
- تجري الأمور أسرع من تمكني من اللحاق بها. همت نانا بالنهوض من مقعدها.
- دعينا نبدأ من جديد. كيف يمكنك وصف علاقتك بـ «روار»؟
- قال ثايس بصبر محترف.
- «روار» هي عائلتي التي أستمّد الحب والدفاء منها.
- وما الذي تحصل عليه «روار» في المقابل؟
- روعي.
- هذا كثير. بدا ثايس غير مقتنع بجوابها.
- هل لك أن تقرّبيه أكثر؟
- محللو الأعمال يزعمون أن عليّة القوم في شركة ما هم العبيد العصريون. طرحت نانا أول ما خطر ببالها، مقتطفات من مقال قرأته في الطيارة أثناء عودتها من اجتماع في لندن.
- استعباد. تكسر صوت نانا. أدار ثايس لها عصير البيلسان.
- وضعت القدح في حامله على ذراع الكرسي من دون أن تشرب وانخرطت في البكاء.
- لم تكن هي المرة الأولى التي تنثال فيها دموعها في الصف المدرسي. حتى الموظفون مدبوغو الجلد، الذين لهم خبرة معتقة وقيم قديمة لا يتزحزون عنها، يمكن أن يصيبهم ضعف. لذا جرت دموع نانا. ناولها ثايس علبة المناديل الورقية وتركها حتى هدأت نوبة بكائها.

حرّك أمكنة البطاقات على السبورة وانتظر حتى تستعد ثانية وجلس على حافة طاولة من خشب البندق.

- هل يمكنك توضيح ما حصل؟ نظر ثايس بخفية إلى ساعته.

- كانت الكلمة *unternehmenskneche* (*) التي أصابتني.

كان وجه نانا متورما بسبب البكاء.

- اطمئني، سيأتيك الحل.

- لا أجد مخرجا، تنهنهت.

- من أين وإلى أين؟ نظر إليها ثايس يحضرها على الإجابة.

- آسفة، ماذا قلت؟ لم تذكر ما قالت قبل قليل. لم تكن على

اتصال بالجسد الجالس على المقعد الجلدي الأسود.

- سمعتك تقولين إنك لا تجدين مخرجا. أين تضعين إذن

«روار» في الصورة؟

- هنا لا يمكن وضع شيء بجانب أو فوق «روار».

- عدنا إذن إلى البداية. هل يمكنك أن تنظمي وقت عملك

بشكل أفضل، أكثر نفعا من شأنه أن يمكنك من الفوز بالوقت

لشيء آخر يكون مهما في حياتك؟ قال لها بتأكيد خاص على

«الآخر».

- لقد صرت تلك الصغيرة، قالت. نظر لها ثايس وهو يركّز

بنظره عليها.

- ما تقولينه هذا مهم. وضع ثايس بطاقة أخرى على السبورة.

- لم أكن قادرة على فصل «روار» عني. ذبنا معا، قالت بهدوء.

- نتحدثين فجأة في الماضي، أين تتوجهين؟ قاطعها ثايس.

(*) استعباد.

- أرى كل شيء أكثر من فوق، أكدت.
- ما الذي حصل لك؟ قال ثايس بإعجاب.
- لا أدري. خفّ الضباب، قالت.
- هكذا إذن. جلس ثايس ثانية على حافة الطاولة.
- حان وقت سيجارة الآن كما كنا نفعل سابقا. شعرت نانا على غير العادة بأنها خفيفة.
- لم يعد ثايس من الخصوم بل من رفاق الاتحاد.
- شكرا للدعوة، قال واصطنع حركة يعبّ فيها سيجارة.
- كان تركيزي خاطئا.
- هل يمكنك وصفه بشكل أدق؟ قال لها.
- كنت أحتقّ بعمى مثل ضير، كمن ينظر إلى الشمس ويفقد بصره.

- مَنْ أو ماذا تمثل الشمس؟ سألها.
- واضحة...
- عليك قولها.
- حسنا، «روار»، لا أظن أنني أفهم شيئا، وتنهدت.
- ومَنْ منا يمكنه ذلك عندما يدور الأمر حول معرفة أنفسنا، قال ثايس.
- لقد قيدت نفسي بالعمل. كانت مصدومة بسبب تصورها أنها شخص لا يمكن الاستغناء عنه والذي أغواها إلى هذه الدرجة (خالدة).
- لعل زملائي يرونني في قمة الغباء، واصلت.
- ولم يعنك ما يفكرون فيه؟

- إنهم مقياسي.
- وفق أية وحدة؟
- أن تكون دائما في القمة، لديك دائما ٣٦٠ درجة من أفق دائري ولا تغفل للحظة.
- دعينا نلتق بعد أسبوعين لجلسة متابعة في الوقت نفسه والمكان. دُونِ ثايس ذلك في مفكرته الإلكترونية. نهضت نانا من مكانها.
- قبل ظهر اليوم التالي اتصلت الخالة روزي أثناء اجتماع مع شركاء من فرع زيوريخ لـ «روار». تحدثت الخالة روزي بصوت عال وتيار جارف.
- اتصلي بي، الأمر مستعجل، كان أول ما سمعته نانا بوضوح تبعها انقطاع مفاجيء.
- وضعت كل الاعتبارات جانبا وهبت خارجة إلى الممر لتتصل.
- سيئ جدا، سيئ جدا، سمعت صوت روزي.
- ما هو السيئ، خالة روزي؟
- كل شيء.
- كيف حال مارياما؟
- إنها بخير.
- هل تسكن عندك؟
- بالطبع.
- هل بإمكانني التحدث معها؟
- سيئ جدا جدا، كررت روزي.
- ما المشكلة روزي؟

- نحن بحاجة إلى عشرة آلاف دالاسي.
- كيف؟
- شهادة تخرج مارياما.
- هل هي بخير؟
- شهادة تخرجها تكلف عشرة آلاف دالاسي، من غيرها لا يمكن أن تحصل على عمل. مست روزي نقطة ساخنة.
- ولكن هي حقا... هل أنهت دراستها؟
- اسمعي، لقد فقدت شغلي في البنك. لدي عائلة كبيرة أعيّلها وفوقها مدرسة مارياما. بإمكانك إرسال النقود عبر الـ «ويستيرن يونيان»، لدينا «ويستيرن يونيان» في غامبيا.
- كم يقابل ذلك باليورو؟
- يمكن لـ «ويستيرن يونيان» إبلاغك عن قيمة العملة. هذه آخر مكاملة. حياة أو موت.
- ماذا تقصدين؟
- اتصلي بي عندما تنتهين من «ويستيرن يونيان»، لتعطيني رقم الحوالة، لتتمكن مارياما من تسلم المبلغ. شحَب صوت الخالة روزي.
- ارتياح نانا لحصولها على اتصال من طرف مارياما ظلله إنذار روزي «حياة أو موت». شعرت بأنها تقف خلف ستار وكان عليها أن تحدث.
- كانت تخشى أن تستخدم العشرة آلاف دالاسي لشيء آخر أكثر خطورة بكثير من شهادة امتحان (التي مازالت غير مصدقة قصتها). فجأة شعرت نانا بالامتنان لحقيقة أن المال لم يكن

مشكلة بالنسبة إليها، أنها تسمح لنفسها بمشاركتهم إياه. لم تكن تنظر إلى وضعها المادي بهذا المنظور من قبل إطلاقاً. لقد دفعت مرة بمبلغ أكبر إلى منظمة مكافحة السرطان. ليس لأنها تريد أن تكون خيرة ولا لأنها كانت تخشى أن يصيبها السرطان ولكن لكي تتخلص من المكالمات الملحة على الموبايل. بالطريقة نفسها أوقفت عاصفة التليفونات الشرسة لنقابة حماية الطبيعة. أسرع بالعودة إلى غرفة الاجتماعات واعتذرت لاضطرابها إلى ترك الاجتماع.

عثرت على «ويستين يونيان» على النت واستقلت تاكسي إلى منطقة النورابرو. كانت هناك لوحة مهلهلة على الرصيف تحوي أسعار العملات لليوم. على باب المدخل ألصق إعلان رسمي «الشرطة تقوم بحراسة شديدة لهذا المكتب». لم يكن هناك من زبائن غيرها. ظلت واقفة وقد شعرت بأنها مرئية بشكل أكثر من اللازم في هذا المحل المستهلك.

- هل من خدمة؟ انطلق صوت مكسر من النضد حيث يجلس رجلان خلف الزجاج كل في قمارته. تقدمت نانا إلى الشخص الذي وجه لها السؤال.

- هل بإمكانني إرسال نقود إلى غامبيا؟

- نحن نقوم بتحويل النقود إلى جميع أنحاء العالم ومن دون رسوم لكل العملات. يمكن تسلم المبلغ بعد دقيقتين من أحد فروعنا في البلد المعني.

- كيف؟ قاطعته مرتبكة. لم تعتد أن تكون الطرف المستضعف. ناولها الشاب اللطيف استمارة.

- تذكرين اسم المستلم. إن لم يكن لدى الشخص هوية إثبات شخصية، اكتبي في المربع هنا سؤالاً يمكن للمعني الإجابة عنه ليحصل على المبلغ.

- سؤال ما؟ سألت مستوضحة.

- ما تقريرينه. عاد الشاب إلى الحديث مع الرجل إلى جانبه، رجل متقدم في السن بقبة رأس صلعاء وبدلة رجالية لمعت لبلوها.

كانت نانا متحمسة لإرسال النقود بأسرع وقت. روزي والد «حياة أم موت» دارت في رأسها مثل حلقة. لم يكن من السهل عليها أن تركز في بيئة لم تعتدها حيث ما حولها هزيل شعرت به مثل اتهام ضدها. أخيراً كتبت السؤال: كم عمري؟ الجواب ٤٣. دفعت ٣٠٠ يورو وحصلت على وصل استلام. لم تكن مقتنعة بسؤالها. كان ذلك ساذجا ولكنها لم تجد أفضل منه.

جلست في مقهى قريب لتتصل بروزي وتعطيها الجواب مارياما لتتمكن من تسلم المبلغ. فكرت نانا أن عيد ميلادها قد اقترب وعليها أن تدعو زملاءها المقربين وجيرانها لحفل كوكتيل. المجموعة المصغرة الضيقة ذاتها. في المناسبات الخاصة لم تكن تستطيع أن توجد مع الكثير من الناس من حولها مرة واحدة. لا يزعجها من ناحية العمل أن تحضر مؤتمرات مع المئات.

اتصلت بروزي. تكاد لا تستطيع التكلم. كانت متوترة، تخشى أن تسيء روزي فهمها فتتعثر الأمور ولا تستطيع مارياما في هذه الحالة تسلم النقود. أكدت جوابها بشدة لروزي.

- الجواب الصحيح هو ٤٣، فهمت... فورتى- ثري، كررت.

- نعم، فورتى - ثري، أنت تتكلمين مثل طفل، قالت روزي بتعال.

- أريد التحدث مع مارياما، أصرت نانا بقولها.

- إنها على الشاطئ. اتصلي بي بعد بضع ساعات.

- قولي لها إنها ليست بحاجة إلى إثباتات شخصية مادامت تعرف الجواب.

- نعم، نعم أعرف، قالت روزي بنفاد صبر.

- سأعود لأتصل. استسلمت نانا.

- شكرا جزيلا. وأقفلت روزي السماعة.

احتاجت نانا إلى الحركة بعد المكاملة المثيرة للأعصاب. قطعت الطريق مشيا عبر ساحة البلدية، عبر جسر اللانك برووطوال منطقة بروكن إلى «جيميني ريزيدانس». انزلقت بطاقة الدخول على عمود الباب لينفتح إلى مدخل المصعد. كانت تشعر بالأمان في سكنها في صومعة الحبوب المراقبة بالكاميرات. دخلت شقتها يخامرها شعور طيب. أدارت لها الشراب مضاعفا وخرجت به إلى الشرفة. لم يمر على انتقالها للسكن هنا أكثر من ثمانية شهور. كان الأمر الحاسم في اختيارها لسكن خاص جديد هو رغبتها في الإقامة قريبا من محل عملها.

لا يأخذ الطريق من الصومعة إلى العمل أكثر من خمس دقائق على الدراجة أو ربع ساعة مشيا على الأقدام. كانت ترتاح لترك «البورش» في موقف القبو للمشاور القصيرة من أجل أن تكون بصحة ولياقة تامة وبضمير مرتاح بالنظر إلى البيئة. الميزة الإضافية فيما يخص شقتها الجديدة لم يكن قريبا فقط من

محل عملها بل كذلك من كازينو كوبنهاجن، حيث تزجي الليالي التي يضايقها فيها الأرق. التوتر الذي يخلقه الروليت كان من شأنه أن يجمع كل المشاكل المتعلقة بالعمل التي تعلق برأسها. اقتنص نظرها فجأة مكان جمع المخلفات بثلاثة جبال مدورة من القمامة والذي وقع منتصف المنظر مثل نداء صامت. استغربت أمر عدم انتباهها إلى ذلك من قبل. هل كانت المباني الجديدة التي تطل على القناة قد امتدت إلى مكان جمع المخلفات عندما كانت غائبة؟ أم أنها أخذت ترى النفايات في كل مكان. تقبلت الحال كون المخلفات كانت مصففة بشكل جيد ومصنفة وفق نظام مدروس، وأن المكان كان على مسافة لا تصل لها بذلك إزعاجات روائحها. مواقع البناء من حولها والرافعات التي تشبه ليلا الديناصورات الصغيرة كانت بمنزلة رهن عقاري للنمو والتطور.

كل ما حولها كان يشير إلى نظام لا يتواءم مع الاضطراب في داخلها.

أدارت لها كأسا إضافية. لم تعلم بالضبط إن كانت شهادة تخرج مارياما (التي لم تزل غير مصدقة بها)، موقفا طارئاً عاجلاً، تسديد دين، أم أمراً ثالثاً قد شاركت فيه، ولكن عليها أن تتقبل الأمر. لقد صارت أخيراً فرداً من أفراد العائلة (في دوره المتواضع مثل ذاك العم الغني من أمريكا)، وعليها أن تتبع قوانين اللعبة. لم تستطع أن تحسم بداخلها إن كانت مارياما بركة أم لعنة. ربما لم يكن الفرق كبيراً.

رن الموبايل عالياً. ركضت من حولها في الشقة، فلم تكن لديها

فكرة عن المكان الذي وضعته فيه. تبعها صمت يصم الأذان. واصلت بحثها وقد صارت أكثر يقينا في أن مارياما هي التي اتصلت. عثرت على الموبايل أخيرا تحت الطاولة الصغيرة. لم يكن هناك رقم على الشاشة. اتصلت بروزي وسألت عن مارياما ولكنها لم تكن قد عادت بعد من الشاطئ. استنتجت مرتاحة أن مارياما لم تكن المتصلة وأنهت بعجلة الحديث مع روزي. رنّ الموبايل ثانية. أخذته من دون أن تنظر على شاشته.

- أين صرت؟ صوت هانس المعروف بدا متضايقا.

- أنا... لم يكن لديها ما تقوله.

- تم الاستدعاء إلى اجتماع جديد ولم يكن في مقدورنا

اتخاذ قرار من دونك.

- عذرا لأنني ضيعت وقتكم، قالت وهي مستغربة لامبالاتها.

- قولي لي، هل أنت سكرانة؟

- ليس من السهل خداعك، لطفته وهي تفرغ الكأس في

جوفها.

- نانا هذه ليست أنت. هل أستطيع مساعدتك؟

- أفضل أن أكون وحيدة مع ...

- مع ماذا؟

- ...حالي الروحية.

- هناك استدعاء جديد لعقد اجتماع. هل لديك وقت يوم ١٤

الساعة الواحدة والنصف؟

- أنا آسفة..

- حقا؟

- كان الأمر مهما.
- أكثر أهمية من موعد اجتماع قد تم تحديده قبل شهر مسبقا مع عملائنا السويسريين؟
- الموت وحده هو السبب المقبول. ألم يكن ذلك ما اعتدنا قوله؟ كانت نانا قد تداعت.
- يجب أن تحصلي على مساعدة اختصاصي، قال لها هانس بحذر.
- هذه ليست قضية تخصص، ردته رافضة.
- نلتقي على العموم غدا؟ قال برسمية.
- هل هناك من شيء خاص غدا؟
- عليك أن تري بنفسك. قاطعها هانس.
- كانت نانا قلقة مخافة أن تكون مارياما قد اتصلت بينما كانت هي تتحدث مع هانس فأسرعت للاتصال. لم تكن متأكدة إن كان رقم مارياما أم روزي الذي طلبته.
- «شكرا، شكرا لك كثيرا»... ولكنني مستاءة منك، صرخت مارياما في الهاتف.
- مستاءة؟
- لم ترسلي عشرة آلاف دالاسي، لقد أرسلت ثمانية آلاف وخمسمائة دالاسي.
- عفوا، لا بد أنه سعر الصرف.
- أنا جد مستاءة، تنهدت مارياما.
- ليس لدي وقت لفعل شيء لا الغد ولا بعده. عليك أن تفهمي أن لدي عملا مهما يأخذ كل وقتي.

- «ويستيرن يونيان، يعمل ٢٤ ساعة، أدلت مارياما.
- آسفة جدا، سارسل لك المتبقي من المبلغ بأسرع ما يمكنني.
- سيكون ذلك متأخرا.
- ما الغرض، بالتحديد، الذي ستستخدمين النقود لأجله؟
- لقد أخبرتك عدة مرات.
- لا عليك إلا أن تخبري إدارة المدرسة بأنهم سيحصلون على بقية المبلغ لشهادة التخرج. لقد اشتركت نانا في مسرحية ادعت فيها جهلها أنهم حين يتحدثون عن تكاليف المدرسة إنما يتحدثون عن شيء آخر، كأن مارياما لم تعرف أنها تعرف تماما. لمَ كانت ضعيفة جدا أمامها؟ لمَ كانت غير قادرة على الإدلاء برأيها لتطالب بحق المتعهد في معرفة أين تذهب النقود التي تدفعها؟

- أنا لا أستطيع إخبار المدرسة عن النقود.
- يمكنك إذن أن تخبريني عن الحقيقة بدلا من ذلك.
- لا أعرف شيئا عن الحقيقة، اشتكت مارياما. انقطع الاتصال.
اتصلت نانا مرة ثانية فأجابها ذلك الطنين المثير للأعصاب تبعه صوت رسمي «الرقم المطلوب الذي تتصل به إما مغلق أو خارج منطقة التغطية».

يقظة نانا المباغطة الحادة أشرت إلى أن تأثير الحبوب المنومة قد بطل. انتصبت الشمس عاليا في السماء. كان اليوم هو السبت. لقد قررت أن تتوجه إلى «روار» من أجل أن تعمل بهدوء وسلام لتقلص حجم العمل المتراكم من مخلفات العطلة التي كانت حقيقة بمنزلة كورس في تمرين الصراع على البقاء. في طريقها

في الخروج تذكرت أنها لم تفرع صندوق بريدها وعندما فتحتة انهارت عليها الإعلانات والجرائد المحلية ومظروف بريدي جوي مبطن بالخط العاجز والمميز حطّ على الأرضية الأسمنتية عند مدخل المصعد قرب قدميها تماما. تحركت التوجسات داخل نانا. فضت المظروف. كانت الرسالة مكتوبة على ورقة انتزعت من دفتر مسطر.

بداخلها كان سوار من البلاستيك بألوان صارخة وقلادة سوداء من اللؤلؤ مع حرز، صدفة بيضاء ملصقة على قطعة جلد. بدا كل ما في الظرف مصنوعا من قبل أطفال روضة ما. قرأت نانا الرسالة المختصرة. «ماي نانا»، أفتقدكِ، أنتِ أُملي. البيزنس كالمعتاد. مارياما. اتخذت نانا من هذه الالتفاتة المؤثرة إثباتا لولاء مارياما لها. كم كلفها من جهد في سبيل العثور على طابع ومظروف من أجل أن ترسل الرسالة من البريد في سيرا كوندا الذي كان مثل بركان يغلي في ذاكرة نانا عبر سفرتها والتي سرعان ما أخذت ذكرياتها بالشحوب. أعادت الحلي البلاستيك إلى المظروف وصعدت إلى أعلى بالمصعد ثانية. كانت تود أن تخفي المظروف مع الحلي الثمينة في صندوق مجوهراتها. تلك الهدايا الصغيرة من مارياما بدت لها أغلى بكثير من محتويات الصندوق أجمعها.

عندما دخلت نانا صالة المكاتب الكبيرة كان هانس جالسا مسبقا في مكانه. لم يكن هناك أحد غيرهما، كان المكان كله لهما. الأغلبية يعملون أثناء العطل الأسبوعية في بيوتهم. لم تشأ نانا أن تزعجه واكتفت بالتلويح له. توجهت لجلب كوب من

القهوة تسحق فيه بقايا الحبوب المنومة وتصحوا. انضم هانس إليها. صارت ماكينة القهوة ملاذا وعذرا لأخذ استراحة.

- ما الذي تقوله لك عائلتك وأنت تعمل في العطلة بدلا من السفر مع الأطفال إلى ديزني لاند؟ خرجت الكلمات من دون تفكير من فم نانا. الرسالة مع الحلي المصنعة باليد قد ألانت قلبها.

- ليست لي لا عائلة ولا أطفال، قالها باقتضاب وبتعبير مجروح في وجهه مما يؤكد لها أنهما من المحتمل أن يكونا من نفس النوع. هذه الحلقة غير المرئية التي يحيط نفسه بها، وإشارة الميموزا تلك التي تقول «لا تلمسني» كانت منذ المرة الأولى التي تعارفا فيها قد أيقظت فيها تعاطفا وقدرة على تمييزها.

أريكتها نظرتة الشاكية. لم تعرف ما هو تفسيرها غير حدسها بدافع أناني أنه هو الآخر كان طفل تبرع يخفي الحقيقة مثلها منذ زمن. أم أنه ببساطة تعبير عن غضب رجل مرفوض؟ هل يكن لها شعورا من دون أن تتنبه له؟ هل غرقت في التفاصيل ولم تر ما أمامها؟ هل أضاعت على نفسها فرصة الارتباط بأحد؟ تود أن تصلح الأمر بينهما، أن تكلمه بلطف، أن تظهر اهتماما بشخصه. كل ما لم يكن من طبيعتها، ولكن عليها أن تذكر نفسها على الدوام به وتقرر القيام به كتعويض لنقص في تربيتها، أو كعطل وراثي في وظيفة الدماغ.

- ذلك يمنح حريات معينة، حاولت بنغمة خفيفة. نظر هانس إليها مستفهما.

- أن تكون أنت نفسك من دون التزامات عائلية، أضافت.

- نحن نعطي الأولوية في هذا للحرية، ندفع بامتنان تكلفتها. ابتسم هانس لها. له أسنان جميلة. انتاب نانا الارتباك لأنها تخشى أن يعتقد أنها كانت تحرّض لحميمية لم تكن مستعدة لها. كان وضعها تحت ضغط لا يمكنها من الإحاطة بعلاقة جديدة الآن. أثناء فترة الدراسة كانت قد جرّبت التبتّل. الزهد كان في مرحلة ما من المراحل على الموضة تم استخدامه كطريقة لتفوق أعلى في الامتحانات. ولكن في الفترة خلال عملها في «روار» كانت لديها علاقات عابرة كثيرة جدا وقد بدأت بالتفكير في شيء أكثر ثباتا ودواما شرط أن يكون ضمن اختياراتها حيث إنها قد قررت منذ بدء مشوار عملها ألا تنجب أطفالا.

- يستغرب المرء أمر أننا نحن عشاق الحرية نربط أنفسنا عبيدا للعمل ونسجن أنفسنا داخل أقفاص الزجاج، قال هانس بسخرية محاورا إياها وقد عبّر عن الأفكار التي عبرت عنها عند ثايس والتي كانت جديدة بالنسبة إليها وأفرعتها.

أتت نانا لارتباكها على قلب الكوب الورقي من ماكينة القهوة محدّقة بشلل في اللطخة المبللة على تنورتها وبركة القهوة الصغيرة عند مقدمة حذاءها. انحنى هانس والتقط الكوب ورماه في سلة القمامة وجاء بمناديل ورقية ليحفظ القهوة.

- لا مشكلة، قالها بجفاف.

- هذا ليس يوم سعدي بالتأكيد. نظرت نانا إلى نفسها. ناولها هانس كوبا جديدا.

- شكرا، أنا... أنتَ جدا.. كانت نانا توشك على القول «طيب» ولكنها رمقته بنظرة امتنان بدلا من ذلك. هل كان حقا مهتما

بها، أم أنها تربيطة استثنائية بطبيعة محبة للمساعدة وبمراعاة
شهمة؟

- لا شيء ذا بال. كان هانس يهَمّ بالعودة إلى مكانه ثانية.
- هانس، انتظر، قالت نانا. توقف هانس واستدار نحوها.
- وددت فقط أن أقول إنني سعيدة لـ...أننا... يمكن أن نلتقي
هكذا. توقفت نانا.

- أليس هناك من شيء آخر تودين قوله؟ قال لها مازحا.
- ليس الآن.. لاحقا. شعرت نانا بأنها حوصرت في زاوية.
- عندي وقت كاف، قالها بحنان وواصل إلى صالة المكاتب
الكبيرة. رغبت في الركض إليه ولكنها أحجمت.

كانت تقاطع عمل نانا خيالات حول شاطئ السباح، حيث
تعمل مارياما عند روزي معرضة لشهوات السباح الدافئة، ولا
مكان لتنام فيه، ولا طعام تأكله غير ما تمدّه بها طاولة روزي.
لكي تتخلص من خوفها الكابوسي اتصلت بتناوب بأرقام روزي
ومارياما. اتصلت ما يقرب من عشر إلى خمس عشرة مرة من
دون أن تحصل على خط اتصال. كانت تشعر بهانس وهو جالس
يراقبها. استغرب إلحاحها المفرط في اتصالاتها التي صرفت
عليها وقتا أطول مما صرفته على الشاشة. خشيت أن يأتي
ويسألها إن كانت بحاجة إلى مساعدة.

أخيرا حصلت على اتصال.

كان في الخلفية صوت ضجيج محرك، فرملة قوية وصريير
إطارات كأن صاحب الموبايل يوجد في تقاطع طرق من دون
تنظيم مروري. تنشقت النبض السريع، الإيقاعات، الألوان

القوية، الحرارة، الطاقة، الأجساد، أولها الأجساد. هي لا تريد العودة إلى مقاتلة الرعب. الرعب خلف الأشياء، تحت سجادة العشب الكث، مخفيا بين الأشجار والنباتات، الرعب من عالم الأرواح، العالم اللامادي اللامرئي خلف المرئي. استمر الضجيج من دون انقطاع ومن دون أن يحدث المزيد. يئست نانا وقطعت الاتصال. قدّرت احتمالية أن يكون هناك انقطاع في التغطية داخل مبنى «روار» ونهضت لتتوجه خارجا.

في اللحظة ذاتها رن الموبايل بمقطوعة بيتهوفن التاسعة. سمعت نانا مارياما بصفاء ووضوح كأنها قد وقفت أمامها تماما حيث مكتبها.

- أرجوك اتصلي بي الآن، صاحت مارياما تبعها صمت حثّ نانا على الاتصال لكي تسجل المكالمات على حسابها.

- متى تأتين لتأخذيني؟ كان صوت مارياما في الموبايل عاليا وصارخا كأنها كانت تخشى ألا يصلها.

- ما الذي تقصدينه؟

- أنت وعدت أن تأخذيني إلى أوروبا، تذكرين؟

- لا لا مارياما لقد أخبرتك بأن ذلك غير ممكن قطعا، قالت

نانا بحسم وتصميم ولكنها لا تنكر أنها في لحظة ضعف هناك تحت الحرارة الاستوائية تركت لنفسها أن تنجرف مع حلم مارياما.

- لا أريد أن أكون هناك بصفة غير شرعية. أريد جواز سفر

عاديا وسفرة طبيعية لبلدك، صرخت باستماتة متجنبة سماع اعتراضات نانا.

- اسمعي، أنا أريد مساعدتك كثيرا ولكن في بلدك. كان هذا هو الاتفاق. تملك نانا الرغبة في رمي الموبايل بعيدا.

- بإمكان الرجل الكبير أن يستحصل على أوراق رسمية شرعية... اتصلي بي لاحقا. تحول صوت مارياما فجأة إلى همس. انقطع الاتصال. كانت نانا على يقين بأن روزي كانت لصقها تراقبها. تناولت قرصا من ديازيام (اشترته عبر النت) مع جرعة ماء. لم يعد العمل وحده الذي يضعها في حافة الانفجار. يأس مارياما شكل ضغطا كبيرا أيضا عليها. كل ما قالتة الطفلة سرى في داخلها كتكهنات وتنبؤات منذرة. تذكرت أدق التفاصيل في جمل مارياما المبتسرة وإشاراتها الغامضة التي تفتح في كل مرة هوة جديدة. لم تعرف نانا ما يمكن فعله لها. لو كانت في ذلك الوقت على الشاطئ تلمّ بتبعات الأمر لما تواصلت معها، بل ولا تورطت بأنصاف وعود معها. لماذا تسميت من أجل أن تبتعد؟ لم هذه الـ «يكاد الوقت ينتهي»؟

ربما كان الحل في مساعدة مارياما للمجيء إلى أوروبا قبل أن يصلها إخطار بأنها صارت الزوجة رقم ثلاثة لواحد من أخوالها تحت اسم الرجل الكبير. بعد لحظة تأرجح عادت نانا ثانية وفكرت أن من الأفضل أن تمول دراستها في بلدها الذي تنتمي إليه وحيث تكون مع عائلتها. ولكن أفق أنها ستعيش مع شك مستمر فيما لو كانت النقود ستنفق لمصلحة مارياما وأن تعاني من الخوف لمصيرها كان غير محتمل. كأنها لن تستطيع التخلص منها. مجرد سماع صوتها يجعلها تفقد السيطرة على مشاعرها.

وقضت نانا في الحمام قرب الصالة تنظر إلى وجهها في المرآة فوق المغسلة. لم تتعرف على نفسها. كأن ملامحها الحادة قد انمحت، عظمة الخد العالية قد غطست في جمجمتها، وشفتاها الغليظة قد تهدلت. لم تفكر في إصلاح الأخطاء وإعادة بناء مظهر خارجي كمالي لكي يشير إلى داخل صلب، كان قد تفتّر منذ زمن.

عليها أن تتماسك وتصعد إلى السطح وتبدأ بالعمل من جديد، لكنها لم تستطع كذلك أن تقرر فيما لو كان عليها أن تبقى وتواصل عملها أم تعود إلى البيت لتسيطر على أفكارها بشأن مارياما.

بينما كانت تجمع أوراقها واللاب توب لتسرع مغادرة مكتبها رن موبايلها بالسيمفونية التاسعة ثانية. كانت روزي على الخط. - ما هذا الكلام حول ذهاب مارياما إلى أوروبا؟ لمّ لم تخبريني بذلك؟ لم أسمع شيئاً عنه؟ أنا بحاجة إلى مارياما لتقوم بأعمال البيت وتعتني بالأطفال. لا تأخذنيها مني. إن كنت تريدان مساعدة عائلة فخذي مادلين ابنتي. إنها أكثر ذكاء وتصلح أفضل من مارياما لأوروبا. هي التي تستحق الفرصة. تحدثت روزي بسرعة جارفة مرة واحدة. كان على نانا أن تسألها التحدث أبطأ وإعادة ما قالتها.

- لن أعطيك مارياما، خذي مادلين ابنتي ولن تندمي. مارياما لن تصلح لأوروبا، أنهت روزي السيل الجارف من كلماتها. - هل مازلت على الخط معي؟ صاحت روزي. سحبت نانا نفسها عميقاً.

- عليك أن تفهمي أنني متعهدة مارياما لا غير.
- مادلين ابنتي تصلح أفضل بكثير لأوروبا. أنتِ التقيتِ بها
على الشاطئ، أنتِ رأيتِ الفارق بين البنيتين.
- ولكنني قررت مساعدة مارياما.
- لا أوافقكِ على هذا إطلاقاً. قطعتِ روزي الاتصال.
دار رأس نانا. لم تستطع التفكير بوضوح.
- ها هو وقت الانصراف قد حان. سمعت صوت هانس من
خلفها. لقد نسيت تماماً أنه كان هنا يجلس في مكانه في أحد
مكاتب الصالة.

- لا أدري إلى أين سأذهب، تمتعت ومرت به بسرعة.
- أنتِ إنسانة حرة. ابتسم بتهكم. في اللحظة نفسها رن
موبايلها. يزعجها أن ترد وهانس بالقرب منها ولكنها أجبرت
على ذلك. كانت مارياما قد فقدت السيطرة على أعصابها ولم
تستطع أن تقول شيئاً ذا منطوق. طمأننتها نانا وأكدت لها أنها
لن تنساها وستساعدنها في شأن دراستها «قبل أن يفوت الأوان».
انقطاع الخط كان بطنين عنيف. ألقت نانا نظرة إلى المكتب
المشترك حيث يجلس هانس وحيداً بشكل غريب. تملكها عطف
مفاجيء تجاهه فأسرعت بالخروج إلى المصعد وأدخلته ببساطة
مرورها.

جلست نانا صباح الإثنين في حوض الاستحمام مع كوب
قهوة والموبايل جاهز على سيراميك الحافة. انتظرت طوال
المساء والليل مكاملة ولم تستطع الارتخاء قبل أن تسمع صوت
مارياما ثانية، وأن تتأكد من أن كل شيء كان على ما يرام. أرادت

أن تعرف كيف كان حالها وأن تتابع ما كان يحصل من حولها . كل مكاملة كانت تولد سؤالاً يجب أن يوضح، مخاوف جديدة يجب أن تخفيها . لأول مرة منذ انتهائها من مرحلة الدراسة لا يحظى عملها بالأولوية . نشوة العمل اندفعت إلى الخلف واستبدلت بمارياما والقلق المصاحب الذي لا ينتهي .

هل عاشت حياتها في حاضنة للخدج ؟ بدءاً بالثانوية ثم في الجامعة ومن ثم كلية لندن للاقتصاد وأخيراً في بيوت «روان» الزجاجي التي كانت تتنقل بينها بأمان وراحة . فندق هيلتون وماريوت في هونج كونج، أو دلهي أو جوهانسبيرغ لها تلك الراحة الباردة ذاتها، ذات الخدمة، ذات فنون المطبخ الراقية وذات الأمن . كان ذلك مرتبطاً بأمان خاص وهو أن تصحو الصبح وللحظة لا تعرف في أي مكان من الكرة الأرضية هي، أي فندق في أي بلد، ولكن في الوقت نفسه هي على يقين من أنها وبغض النظر عن المكان الذي توجد فيه سيكون هناك بانتظارها بوفيه رائع للإفطار في محيط مريح ممتع وتكييف من دون صوت .

أوشكت أن تتأخر في ذهابها إلى العمل عندما رنّ الموبايل وقد سمعت صوت مارياما واضحاً صافياً من دون ضجيج في الخط .

– هل ستساعديني قبل فوات الأوان ؟ كررت الأسطوانة ذاتها .

– ما الذي سيفوت أوانه ؟

– حياتي .

– أعدك، قالت نانا محاولة أن تبدو مقنعة قدر استطاعتها

ولم تقل إن الوفاء بوعدها كان غير ممكن .

– ولكنك قد وعدت بتعهد مادلين وستأتي أيضاً لأوروبا لهذا

السبب؟ قالت مارياما بصوتها الناعم المتوجس الذي أثر في نانا منذ لقائهما الأول.

- هذا غير صحيح مارياما، صدقيني.

- خالة روزي قالت ذلك.

- أنا أتعهدك أنتِ ولا أحد غيركِ. لعنت نانا روزي أشد لعنة لأنها أرعبت مارياما.

- أنا أدعوري كل يوم لشيء واحد فقط، أن آتي إلى أوروبا قريباً وأسكن في بيتك الكبير.

- من الصعب جداً على الأفريقيين أن يدخلوا أوروبا.

- أنا صغيرة ونحيفة ولن يتنبه أحد إليّ. باستطاعتي المرور من بين القضبان في الحجز. شرعت مارياما بالنهضة.

- ما الذي حصل يا مارياما؟ أخبريني.

- لا شيء، أصلي فقط لربي، همست وأغلقت الخط. اتصلت نانا بها ثانية ولم يكن هناك من جواب.

وصلت متأخرة نصف ساعة عن الاجتماع الذي تم الاتفاق عليه بدلاً من المرة الأخيرة والذي تركته من أجل إرسال نقود إلى مارياما من الـ «ويسترن يونيان». كانت تتحدث مع مارياما ولم تستطع التخلص منها. اضطرت لأن تقسو وتخبرها أنها مشغولة وستتصل بها لاحقاً.

خرجت نانا من المصعد وأسهرت إلى الممر المؤدي إلى قاعة الاجتماعات واكتشفت أن الباب لم يكن مسدوداً فقط بل مغلقاً. كان يمكنها رؤية ما بالداخل، فالزملاء لم يسدلوا الستائر المطلة على الممر. أشارت لهم بأن الباب مغلق، ولكن لم يأبه أحد

لإيماءاتها واستمر الاجتماع من دون إزعاج. طرقت بحذر على النافذة. لم يرفع أحد رأسه أو يستدر صوب الممر حيث تقف. هل كانت صالة الاجتماعات عازلة للصوت مثل استوديو مذياع؟ شعرت فجأة بالغثيان وأسرعت نحو التواليت لتتقيأ. غسلت فمها وجلست على غطاء مقعد التواليت تبرّد جبهتها بمنديل مبلل. كانت ترتجف من البرد متجمدة بداخلها كأن الحمى قد أصابتها. بالكاد وقفت مستوية على قدميها عندما نهضت.

مشت مسرعة إلى قاعة الاجتماعات. كان الباب قد انفتح على مصراعيه والستارة الخفيفة قد أغلقت. نظرت إلى الداخل ولم يكن هناك من أحد. لقد أنهى زملاؤها الاجتماع من دونها. نزلت إلى صالة الاجتماعات الكبيرة ووجدت مكتبا شاغرا. نظرت إلى ما حولها ولكنها لم تعثر على أحد من فريق المديرين. فتحت الباب توب. كان هناك طلب توقيع لمذكرة الاجتماع النهائية من قبل مجموعة المديرين بأسرع وقت ومن دون تعليق قد نزلت في بريدها الإلكتروني. اتصلت بهانس ولكنها ندمت قبل أن يجيب. عوضا عن ذلك عادت واتصلت بمارياما عبر الرقم الذي اتصلت بها منه فكان الرجل الكبير على الخط.

- أين مارياما؟ صاحت به.
- لا أدري، قال ببطء.
- ألم تتصل من موبايلك؟
- تفعل ذلك أحيانا. هدوء الرجل الكبير زاد من توترها.
- لقد دفعت لضابط الشرطة... ابنتك في أمان على الشاطئ.
- ابنتي؟

- إنها تحت مسؤوليتك من الآن فصاعدا... خرجت من يدي.
- هل يمكنك استخراج جواز «بايوميتريك» صالحا لها مع صورة؟ من قبل أن يكون الوقت قد فات، حققت نانا معه من دون أن تفكر في أنها تبنت «فوات أوان» مارياما.
- الجواز غال جدا. قال الرجل الكبير بتحفظ.
- مجرد سؤال... للعلم فقط، أكدت له، لقد وعدتها..
- وعودك غير صالحة هنا، قال الرجل الكبير بهدوء جارج.
- لا يمكنني التخلي عن مارياما، لها الحق في حياة محترمة.
- قالت نانا بقوة غير متوقعة.
- وأنا أيضا، وكل البشر. قطع الرجل الكبير الاتصال.
- في اللحظة نفسها اتصل هانس ليذكرها بتوقيعها المذكرة النهائية للاجتماع التي يجب أن يحصل عليه ليتمكنوا من تحويلها من ثم إلى مجموعة «مورغيت». شعرت نانا بالعرق يتفصد على جبينها. شعورها بتخلفها عنهم أطبق على حنجرتها.
- ألن أطلع على محضر الاجتماع أولا؟ من أجل عمل متقن؟
- قالت نانا بانفعال.
- ليس ضروريا. الاستنتاج تم حسمه، نحن لا ننتظر غير توقيعك. أنهى هانس النقاش. اتخذت نانا قرارا سريعا.
- سأتيك بالتوقيع حالا. نهضت متوجهة إلى المصعد نزولا إلى الطابق الخامس وهرعت إلى هانس الذي كان جالسا أمام شاشته. كانت بورصة طوكيو قد أغلقت للتوفتح بورصة موسكو. كان منغمسا تماما في قوائم أسعار العملات إلى درجة أنه لم يلتفت إلى وجودها خلف ظهره.

- تفضل. قالت وناولته الأوراق مع توقيعها في ثلاث نسخ.

استدار هانس ونظر إليها مضطربا كأنه كان في عالم آخر. أشار إليها لكي تضع الملف على الطاولة ووجه ثانية تركيزه أمام الشاشة. ظلت نانا واقفة في مكانها تحملق في أرقام البورصة التي تنزلق أمامها على الشاشة. من الظاهر أن هانس لم يكن مرتاحا لوجود من يقف على رأسه ليراقبه.

- لا أستطيع التحدث الآن. لدي زبون مجنون يريد بيع أسهمه في أسوأ توقيت يمكن التفكير فيه. الإجهاد والتوتر لدى هانس يذكرها بأنها لم تكن الوحيدة التي تعمل تحت هذا الضغط.

- لنتحدث بعد السادسة، سيكون الأسوأ قد ولى، قال بريكة وظهره إليها.

- بالتوفيق. وعادت نانا إلى مكانها بحال أفضل. كان على هانس أن يوضح لها الذي حصل في الاجتماع والسبب خلف الجوال العكر من حولها منذ عودتها من غامبيا. لم يكن الجميع مقتنعا بسياسة التعامل الجديدة المتبعة إزاء الوقاية من الإجهاد للموظفين. كانت نانا تتوقع أن تتم مناقشة وضعها في مجموعة المديرين في أي وقت. عليها أن تتسلح وأن تهين «خطبة دفاع» لكنها لم تكن تملك ما تقوله للدفاع عن نفسها.

نظرت إلى ما حولها. كان المكتب المشترك نصف مشغول. شعرت بنوبة بكاء تتصاعد ونبشت داخل حقيبتها بحثا عن «فونتيكس». تركت الموبايل من دون صوت، وكانت على وشك مراجعة قائمة الزبائن عندما ظهر رقم مارياما على شاشة الموبايل. كما يبدو أن الرجل الكبير قد استولى على موبايلها الذي أعطته إياه في

لحظة وداع عاطفية. تحدث بلغة إنجليزية مكسرة غير واضحة كان من الصعب على نانا فهمها.

- الجواز غال جدا، جدا، قال وهو يمتط الكلام. لم تكن نانا مستعدة للتفاوض معه حول واقع الموضوع. لم يفهم كما يبدو سؤالها الافتراضي واعتقد أنها قد طلبت ذلك.

- لا لا، أنا سألتك فقط عن احتمالية استخراجك فرضا جوازا لمارياما إن جاءت إلى هنا. كان ذلك مجرد افتراض بحث. لم نقرر شيئا بعد.

- لم سألت إذن عن السعر المحتمل؟ قال الرجل الكبير منزعجا.

- مارياما تريد المجيء إلى أوروبا، قالت نانا بتردد فلم تكن واثقة من فهمها لمارياما تماما بشكل صحيح وإن كان ذلك بالفعل ما تتمناه.

- هذا شيء لا تقررره هي. العائلة الكبيرة لها العديد من متخذي القرار، قال ليردها.

- أعلم، روزي تريد الاحتفاظ بها كخادمة، قالت نانا بحدة.

- لا تتدخل في عائلتي. بدا صوت الرجل الكبير غاضبا.

- أعطني سعرا فقط، قالت نانا بتوسل وهي تشعر بأنها تغرق أكثر وأكثر إلى أسفل في رمال متحركة. انقطع الخط.

اتصلت ثانية فواجهها طنين الخط مثل كلب مسعور سبب لها شعورا بفوبيا اختناق لحبسه. رفض الرجل الكبير جعلها تخشى بشدة قطع تواصلها مع مارياما. لم تجب مارياما أوروذي أو الرجل الكبير على اتصالها. تصور مارياما كجزء من حياتها كان

قد دخل في قرارة أعماقها. كانت على استعداد لدفع المبلغ الذي يطلبه الرجل الكبير من أجل استخراج جواز وفيزا لمارياما. وها هو سفر مارياما إلى أوروبا يصير واقعا في خيالها الساخن، وكل ما في الأمر هو التمويل الذي يخص شروطا لوجستية صعبة.

بعد أسبوع من انقطاع الاتصال مع مارياما كان على نانا أن تستسلم. عانت من نوبات عنيفة من القلق والإرهاق ولم تستطع التركيز في عملها. تركت مبنى «روار» منتصف النهار ومنحت نفسها غداء في «كوستم هاوس» على جبهة الميناء تاركة كل الالتزامات والمواعيد لتبحر. أسدلت الستائر في البيت في «جميمني ريزيدنس» وجلست أمام شاشة التلفزيون مع زجاجة الشراب. بعد ساعة من برامج الواقع الاجتماعي ومسابقات الموهوبين ومشاهد من عيادات الأطباء استطاعت نانا أخيرا أن تنتزع نفسها من شرنقتها.

اتصل هانس ليخبرها بأن لديهم اجتماعا صباح الغد في السابعة، والمحور الوحيد الذي ستم مناقشته هو افتقاد نانا لروح العمل الجماعي داخل الفريق منذ عودتها من سفرها الذي لم يكن، كما يبدو، له الأثر الإيجابي في حالتها النفسية غير المستقرة. الشركة لم تكن أقوى من أضعف حلقة فيها. أنهى هانس خطبته بالشعار الذي يرفعه موظفو الشركة. ولأن نانا قد توقعت الكارثة تحديدا جاء رد فعلها عنيفا. أظلمت الدنيا في وجهها ولم يعد لها وجود.

- هل أنتِ معي؟ سمعت هانس يصيح في الهاتف. لم تستطع أن تصدر صوتا.

- نانا هل أنت بخير؟ كرر بصوت أعلى. لم تكن قادرة على الاستجابة. تجمد جسدها. شعرت بالتجمد يصعد من قدميها أعلى صوب قلبها وحنجرتها.

- لا، لا، صرخت بصوت متحشرج.

- سأتي على الفور، قال هانس. رمت نانا بنفسها على الأريكة داخلية في نوع من غيبوبة لم تصح منها إلا حين ضرب الباب. نهضت ومشيت إلى المدخل بين اليقظة والنوم لتضغط على زر فتح الباب المركزي. تمكنت من مشاهدة هانس في كاميرا المراقبة وهو يدخل مسرعا إلى مدخل المصعد ليستقله.

- لا تبدين بخير؟ انطلق قائلاً بخوف عندما فتحت له الباب وطلبت منه الدخول.

- كيف أبدو؟ سألت من دون اهتمام.

- لا تشبهين نفسك.

- هل تشرب شيئاً؟ نظرت إليه نانا نظرة داخلية هادئة.

- شاي سايلون مع الحليب، قال لها غير مرتاح لصوتها المنهك.

- تعال معي إلى المطبخ وأخبرني عن سبب زيارتك، قالت نانا

وهي تسحب كرسيها له. وضعت الماء على النار وبحثت كثيراً قبل أن تعثر في الجوارير على علبة أكياس الشاي. فتحت الثلاجة واكتشفت أن الحليب المنزوع الدسم قد انتهى تاريخ صلاحيته منذ زمن. ألقت في سلة القمامة واعتذرت لاضطراره للاستغناء عن الحليب.

- هل تعنين بقولك أنك لا تعرفين لم أنا هنا؟ قال، فهزت نانا

رأسها نفياً.

- لقد صرخت في الهاتف.
- أنا صرخت؟ قالت بجمود.
- لدينا اجتماع لمجموعة المديرين في الغد باكرا بين السابعة والثامنة.
- أجل هذا.. هذا صحيح .. كنا. جلست نانا عند مائدة الطعام أمام هانس. كان المطبخ مضاء بالإضاءة القوية حول السايلو.
- سأكون محور النقاش في الاجتماع.
- أنت... غير موثوق بك.
- هل الأمر سيئ جدا؟ تناولت نانا زجاجة بشكل عشوائي من على طاولة «الترولي» خلفها تنوي أن تدير في قدحها الشراب.
- أخذ هانس الزجاجة منها وصبّ الشاي في كوبين لهما.
- «روار» هي حياتي. كل وجودي، «روار» تمدني بالدفء والحب، قالت نانا كأنها تردد اقتباسا من كراس. نظر إليها هانس محرجا.
- عليك الاستعانة بطبيب أخصائي، قال من دون عاطفية.
- شكرا لمراعاتك.
- هل بإمكانك حضور الاجتماع مبكرا صباح الغد؟ هل أتصل بك لأوقظك.
- عليك البقاء معي هنا الليلة، أصرت ووضعتها لم يكن ليسوء أكثر من ذلك.
- سأنام على الأريكة.
- أنا أنام على الأريكة. وأنت تنام في فراشي، قالت له بتصميم.
- أنت بحاجة أكثر إلى النوم في فراش.
- ولكنك ضيفي، أكدت له.

- أنا أفضل الأريكة. وصار له ما أراد.

الخوف من اجتماع الغد أبقى نانا مستيقظة رغم الحبوب المنومة والإنهاك. تنهض بين الحين والحين لتسترق السمع إلى هذا المخلوق النائم الذي يتنفس، يتقلب، يشخر خفيفا مثل طفل، يتحدث في نومه، ينهض إلى التواليت. كانت تبذل قصارى جهدها من أجل ألا يفوتها أقل صوت. حاولت السيطرة على نفسها من أجل ألا تدخل هناك ولكن الحاجة صارت كبيرة لأن تكون في ذات الغرفة مع إنسان نائم، لتتحسس الأمان الذي يجلبه النوم معه ولتأمل من على مسافة براءة الوجه. فتحت الباب بحذر وتركته غير مسدود تماما. كانت تخشى أن تزعج نومه ووقفت عند النافذة في أبعد مكان من الأريكة. استدار في نومه وأصدر صوتا شاكيا. أسرع نانا إلى غرفتها مضروعة. لم تكد تضع رأسها على الوسادة حتى جاءت الأشباح والقامات الشفافة بالوجوه البيض. كانت تخشى الأبيض دوما والذي يذكرها بالعدم واللاشيء.

كان جميلا ومن غير المعتاد أن تتناول الفطور مع صديق وأن تجلس مرتخية تتحدث عن كل شيء غير العمل، حتى عن تجربتها في غامبيا. لم يعد هناك من حواجز مع هانس وتمكنت من التحدث معه حول مارياما وخططها. سألها مازحا إن كانت قد انضمت إلى جمعيات خيرية أم صارت عضوة في كنيسة «جيش الخلاص». أوضحت نانا له أنها كانت قضية شخصية تماما ولم تكن لها علاقة بالعمل الخيري. لم تكن تنتمي إلى هؤلاء الذين يتبعون الموضة ويلعبون دور «المليونير الخفي». لم تكن جزءا من

المؤسسات الخيرية الأنيقة. لم تكن سوى تحسين صورة والتي
أوضحت المسافة بين الأغنياء والفقراء.

- تبدين الآن كأنك ما يجب أن يكونه الاشتراكي القديم
المخلص. مازحها هانس.

- لا أنتظر منك أن تفهمني. قالت نانا مجروحة. أن تكون
اشتراكية هو الأمر الأكثر إحراجا الذي يمكن أن تتصوره عن
نفسها.

- قلتها هكذا... كوميدية، حاول هانس أن يصلح الموقف.
- قد أصبتُ ب... لم تستطع نانا أن تجد الكلمة الصواب.
- إنه الجانب العاطفي. حاول هانس معها. استغريت نانا
شخصيته الراقية وشعرت فجأة بانسراح في صدرها. أخذت يده
فقام من مكانه ولكنه لم يسحبها. ظلا جالسين من دون قول
كلمة حتى حان موعد انطلاقهما.

تم عقد الاجتماع في صالة طوكيو. المجموعة كانت مسبقا
قد حضرت عندما وصلا، أحدهما قبل الآخر بعض الشيء كي
لا ينكشف أمر علاقتهما الخاصة فتثير شكوكا حول تواطؤ ما.
جلست نانا مقابل كاما، متهيجة لأسوأ ما يمكن التفكير فيه.
حياها الزملاء بشكل عابر كأنه اجتماع صباحي عادي جدا. كانوا
يبحلقون في شاشات كمبيوتراتهم ولم يرفعوا أعينهم عنها إلا
قليلا. ارتدت نانا قلادة مارياما البلاستيكية للمناسبة. كانت غير
آبهة بما يفكر فيه المجتمعون بما يخص هذا الشيء الغريب الذي
يعود لأعمال رياض الأطفال الفنية. كانت بحاجة إلى الحرز لكي
تثبت ويجلب لها الحظ في الاجتماع الذي سيحسم قدرها.

- يمكننا إذن بدء الاجتماع. نانا هل توافقين على المطروح للنقاش؟ قال إريك الذي جلس في طرف الطاولة (الموكل إليه بإدارة الاجتماع يتبدل كل مرة). كان الجو طيبا مرتخيا وقد أملت نانا بلا وعي منها خيرا في ذلك. أدلى كل منهم بدوره تقييما بشكل خاص لجهودها (أو النقص في الوقت نفسه) والتركيز على تخلفها القاتل عن الاجتماعين للمجموعة. احتجت نانا بشدة ودافعت عن نفسها بقولها إن الباب كان مغلقا في الاجتماع الأخير (ربما بالمصادفة) ما منعها من حضور الاجتماع عندما وصلت. لم يكن هناك من رد فعل، لا شيء غير هز الرؤوس رفضا. زملاؤها كانوا إما غير قادرين على الإنصات لها وإما غير راغبين في ذلك. شكّت فيما لو كانت قد أوصلت اعتراضها إليهم أم أن ذلك كان ما يدور في رأسها فقط.

تداخلت الوجوه بعضها ببعض وصارت وجها واحدا، تحركت الأفواه بتزامن. لم يكن لديها أدنى شعور بكيفية تقييمهم لها، من الذي كان متشددا ومن كان ليينا. كانت تشعر طوال الاجتماع بوجود هانس في القاعة ولكنها لم تنظر إليه ولو مرة واحدة. كان إريك في تقديمه الشديد الاختصار (الوقت ثمين في «روار» ويقاس بجرعات صغيرة) قد أكد على النتائج التي حققتها وعلى حدسها اليقيني عندما يتعلق الأمر بقراءة وضع السوق عموما وسوق الأسهم المضطرب. كانت الأجواء تبدو على السطح كأن الجميع كمدرين كانوا متساوين في المنصب. ولكن تحت السطح كان كل واحد منهم يفكر في نفسه أولا ومن ثم «روار» وله أجندته الخفية، متريصا للآخر مع لعب متفق عليه.

كان لدى كل منهم ٣٠ ثانية ليطرح رأيه حين يأتي دوره. تذكرُ بوضوح تسلسل زملائها وأمكنتهم حول الطاولة. إيريك، كاما، هانس، جيرت. ولكنها لا تذكر مَنْ قال هذا وماذا قال ذاك. كانت تصريحاتهم تقريبا متطابقة: روح الفريق الواحد لديها ضعيفة، نقص في الحماسة (حب «روار»)، تقصير، الحلقة الأضعف حاليا. لم تتنبه إلا إلى ما قاله هانس: إنها تفتقد القدرة على الإنصات. لقد كان أشد إيلاما من بقية المصطلحات التي جاءت من قبل بقية الزملاء والتي تعرفها حق المعرفة. انقضى الاجتماع خلال ربع ساعة. انفضوا من دون احتدام في المشاعر. كان هناك إجماع متفق عليه حول حاجة نانا إلى برنامج إعادة تأهيل جذري وشامل. المقترح سيمر بسلسلة من المسؤولين في فريق الإدارة الذي سيزكي أخيرا القرارات التي تم اتخاذها في مجموعة مديري الفريق. أسرع نانا إلى مغادرة قاعة الاجتماعات وحرصت على النزول وحدها في المصعد.

اختبأت في بيتها بقية اليوم ولم تستقبل مكالمات من أحد ولم تقرأ بريدها. راجعت ثانية وثالثة ما قيل في الاجتماع وما تقرر. كان جحيم الربع ساعة يدور في رأسها. لم يكن هناك حديث عن إنزالها درجة، ولكن عن عرض سخي أكدت لنفسها. هكذا استثمار ضخم لا يدل إلا على أن «روار» لا تزال تراهن عليها كقوى عاملة قيّمة.

في اليوم التالي تسلمت نانا رسالة قصيرة تنص على أن فريق «روار» الإداري قد قرر في اجتماع المتابعة إعفاءها من مسؤولية بعض المشاريع واتباع برنامج مكثف للتدريب الفني

الذي تم تطويره خصيصا لـ «روار»: أوكلت المهمة إلى ثايس. إعادة زرع الحماسة فيها لـ «روار»، وإعادة تأسيس طاقتها العملية الكاملة. لم يكن لها خيار غير قبول العرض، الابتعاد عن الأنظار والانصياع. ألقت نفسها في سقوط حر، تارحت مثل ريشة بيضاء صغيرة داخله خارجة من اللاشيء. تم حجز موعد لها مع ثايس في الصباح التالي، ولكن ظل برنامج التدريب حرفيا والهدف النهائي المرسوم له في طي الكتمان حاليا. كان على نانا أن تحضر اللقاء من دون توقعات، خالية مثل ورقة بيضاء.

لقد نامت بتأثير خليط من دواء الأعصاب والحبوب المهدئة، لذا فقد وجدت نفسها مخدرة في مكتب ثايس. وشرع مباشرة من دون مقدمات ومن دون تفكير:

- ما هي استراتيجية بقائك على قيد الحياة؟

- التركيز مائة بالمائة على عملي.

- ألا تقومين بذلك الآن؟ نظري إليها بتمعن.

- هناك موقف جديد حاليا، قالت نانا وقد أريك انتباهها

حركة الموبايل الذي أبقتة من دون صوت في حقيبتها. لم تستطع تجاهله.

- ما الذي يحول دون منحك «روار» تركيزك التام؟ تحول

ثايس من حار إلى بارد منذ لقائه الأخير بها.

- هذا الرقم. حملت نانا في الرقم على الشاشة بنشوة. لقد

عاد التواصل مع مارياما.

- عليك أن تركزي فيما نحن فيه. تجاهل ثايس نظرتها

الحميمية إلى شاشة الموبايل.

- حياة أخرى، مكان آخر، تمتعت. اهتز الموبايل ثانية. نهضت بحركة مفاجئة وخرجت إلى الممر. لكن ذلك كان متأخرا حيث لم يكن هناك من أحد على الجانب الثاني. دخلت ثانية وظلت واقفة عند الباب.

- عفوا، كان أمرا مهما، دمدت. نظرت نانا عبر ثايس إلى ملصق المعرض الفني الأبيض. عليها أن توضح له أن لديها مشكلة مع اللون الأبيض، الأبيض يحرض الخوف فيها من الفضاء الفارغ.

- لا يصح هذا. لا يمكنك استقبال مكالمات الآن. مشى ثايس رواحا ومجئنا أمام السبورة.

- هل نكمل من حيث توقفنا؟ احتفظت نانا بالموبايل في يدها.

- عليك أولا أن تغلقي هذا.

- لقد وقعتُ كما يقال في مشكلة. أغلقت الموبايل مكرهة.

- أنت تريدين في الحقيقة ترك «روان»؟ قال ثايس مواجهها

إياها.

- هل اتخذتَ قرارا بطردي منذ الآن؟ قالت له غاضبة.

- أنا أساعدك فقط من أجل أن تعرفي أين تقفين.

- بين معسكرين، قالت نانا وندمت في الحال.

- لديك الدافع لترك «روان» ولكنك لست مستعدة بعد؟ تابع

ثايس تحريضه لها.

- لا، أود أن أظل حيث أنا. انطبقت حنجرتها. كأنها قد وقعت

في مصيدة.

- انظري إلى سؤالي كأداة لمعرفة نفسك. غير ثايس تكتيكه.

- لا أعرف أي قدم أقف عليها، اعترفت نانا.
- ما الذي نتحدث عنه بالتحديد؟ قاطعها ثايس.
- إنه أمر خاص.
- لا شيء خاص مادمت موجودة في حيز «روار».
- موضوعي هو أن أعيد حياتي العملية، أنا لا شيء من دون عمل، ذكرته نانا بذلك.
- إن لم تكوني صديقة مع نفسك فلن يحدث شيء. استدار ونظر إليها.
- لست بالمستوى الذي يجب أن أكون عليه، أخجل من ذلك أمام زملائي.
- أعطي لنفسك الحق بهذه المشاعر ولا لن تتمكني من فصلها عن عملك.
- هناك فوضى بداخلي، قالت متشكية.
- هل لك أن تخبريني كيف نشأت هذه الفوضى؟
- هذه العلاقة الخاطئة، قالت مترددة كأن هناك جريمة عليها أن تصفها.
- كيف خاطئة؟
- اقتصاديا
- ما الخطأ في ذلك؟
- إنه مهين.
- لمن؟
- لي...
- كيف تريدان تصحيح هذا الخطأ؟

- كلما أرسلت المزيد من النقود إلى هناك ازداد الخطأ فيها.
- أين هناك ولئن؟
- غامبيا... لابنة مراهقة وبعض أفراد من عائلة.
- ألا يمكنك جعل إسهامك رسمياً لكي يسهل تعاملك مع الموقف؟ هز ثايس رأسه رفضاً.
- لم يأت ذلك بنتيجة قط. لم أستطع أن أطبق مقترحي حول نظام ثابت.
- هي أنت التي تدفع ولذلك فأنت أيضاً من يقرر كيفية القيام بذلك.
- الموقف ليس هكذا، قالت نانا بانزعاج لعدم فهمه لها.
- إذن عليك أن تتحكمي في الموقف، قال ثايس بنفاد صبر.
- لا علاقة للأمر بتحويل النقود، قالت نانا مستاءة. نظر ثايس إليها منتظراً الجواب.
- إنها احتلت.. هيمنت عليّ، صحت قولها.
- هذا الذي تقولينه يعود إلى مستشفى الأمراض النفسية، قاطعها ثايس.
- لم أعبر عن نفسي بوضوح، بودي فقط أن أساعدها، شعرت نانا ببوادريأس تستبد بها.
- ساعديها إذن وابقى في إطار ذلك. في الوقت نفسه فكري إن كان تعارفا عشوائيا خلال عطلة يتعين أن يدمر حياتك ومستقبلك العملي.
- أنا لم أعتد على... هذا النوع من المشاعر، دافعت نانا عن نفسها.

- عن أية مشاعر نتحدث؟
- لإنسان ليس قريبا مني.
- لقد قلت إنك مُحْتَلَة من قبلها، لا يمكن أن تكوني أكثر قربا من ذلك، قال ثايس بجفاف.
- أعني مقارنة بعلاقات الزمالة أو الصداقة، الحب. شعرت نانا بأنها لم تكن على مايرام.
- هل لديك عائلة؟
- لا، لم تعد. لم تشأ نانا أن تخوض في الشأن العائلي.
- لنصرف النظر عن ذلك إذن، قال ثايس باقتناع وواصل:
- عليك أن تجدي طريقة للتعامل مع هذه المشاعر الطارئة كمشكلة عملية وحل عملي. لا أستطيع ان أقول لك ما عليك فعله، ولكن سأعطيك أدوات للسيطرة على نفسك.
- ولكنها ليست مشكلة عملية، قالت نانا بانفعال.
- هذا هو ما ستجعلين منها، حَسَمَ ثايس، فكري بإيجابية، تعمقي في مشاعركِ واقبلي أمر وجودها.
- هل بنيتك التحايل لطردني من روار؟ قالت نانا وقد تملكها الرعب.
- لا أفهم، قال ثايس ببرود.
- عذرا، كان ذلك قطعاً كهريائيا. كانت نانا تخشى أن ينقطع حبل نجاتها عن ثايس.
- هل مازلنا في أن عملي لا يمكن له أن يتجاوز مع ارتباطك الشعوري؟ سألها متجاهلا اعتذارها. هزت نانا رأسها مجبرة على الموافقة.

- إن لم يكن بمقدوركِ استيعاب حياتك العملية وحياتك بما يخص مشاعركِ ستكونين موظفة سيئة. نظر ثايس إليها بقلق. نهضت نانا من مكانها على الكرسي الجلدي.

- تايم أوت، قالت. كانت بحاجة للخروج لتتنفس.

- لن أقول لك أي طريق عليك أن تسلكي. ولكني سأضعك داخل الأطر التي تقودك إلى فهم نفسك. ما تبقى يعود إليك. اعملي خطة عمل ليوم غد. سيطري على... هل نسميه مشروع تمويلك وضعيه داخل صندوق منفصل حيث بإمكانك أن تشعرى بما تريدين ولكي نتمكن نحن من التحدث حول وضعك بما يخص العمل. صافحها ثايس وغادرت نانا المكان بغضب مريب مزعج.

في طريقها إلى البيت حاولت الاتصال مرة أخرى بمارياما فحصلت على خط في الحال.

- نانا، حبيبتى لماذا اختفيت؟ صرخت مارياما في أذنها.
- لم أتمكن من الحصول على خط للاتصال بك، أدلت نانا.
- أخبار جيدة، يمكن للرجل الكبير أن يحصل على الأوراق الضرورية لي للحصول على جواز.

- لم نتفق على ذلك مارياما. لم تكن نانا متهية لتقبل مبادرات جديدة.

- جواز أصلي، درجة أولى مع صورة وطبعة أصابع «بايو ميتريك»، قالت بصوت ناعم حاد يقطر حلاوة.

- لا أفهم عم تتحدثين، قالت رافضة وقد شعرت في الوقت نفسه بتحرر غريب في فقدانها السيطرة على نفسها.

- هل تريدان الحديث معه؟ تركت مارياما الموبايل للرجل الكبير.
- من أين جاءت مارياما بهذا الذي تتفوه به؟ قالت نانا متأثرة. لم تكن قد استقرت بعد إثر جلستها مع ثايس وما يجول في رأسها الكثير في آن واحد.
- أنت طلبت مني سعرا. كان الرجل الكبير منقوعا بهدوء غامض.
- لقد سألت إن كان هناك مجال للحصول على جواز لمارياما، مجرد افتراض.
- أنت طلبت وأنا أعطيك سعرا.
- وكم سيكون تقريبا؟ قالت. ما الذي يجري لها؟ لم تعد سيدة أمرها. وكأن رغبة مارياما هي التي استولت عليها.
- خمسة عشر ألفا، تمتم الرجل الكبير.
- دالاسي؟
- يورو، قال الرجل الكبير غاضبا من الإقلال من شأن جهوده.
- لن ينفعها الجواز بشيء. بدأت نانا تدرك الجنون في تورطها في الخوض معه في عرضه لاستخراج جواز وإن كان مجرد افتراض.
- أنت تتولين أمر استخراج الفيزا.
- لقد قلت لمارياما عدة مرات إنه من المستحيل دخول واحدة مثلها إلى الاتحاد الأوروبي.
- اجعلي الأمر ممكنا إذن، قاطعها الرجل الكبير بنفاد صبر.
- هل هو... تواطؤ؟ سألت نانا بمرح وازدادت انطلاقا أكثر

فاكثر بابتلاع الرمال المتحركة لها.

- هل تريدان أن أوكل المهمة إلى مهرّب؟ قال الرجل الكبير

مهّداً.

- لا لا، صرخت مارياما، لا أريد السفر بطريقة غير شرعية.

- على جثتي، صرخت نانا رداً عليه علّ مارياما تسمعها.

لن تقع بين مخالب المهرّبين وتموت في الصحراء وتصير كومة
عظام في الرمل أو تنتهي في قاع البحر المتوسط قريباً من
بحيرة إيطالية عدائية.

- لقد وعدتني، هل تذكرين، نانا لقد وعدتني. عادت مارياما

وأخذت الموبايل.

- أنا لم أعدك بشيء. دافعت نانا عن نفسها باستسلام.

رأت نفسها في حلم كانت مارياما فيه معها وكانت متحررة من
كل الهموم والقلق. أية سعادة أن تأخذ تلك البائسة الصغيرة
تحت جناحيها تتقاسم كل شيء معها، حالتها المادية الرصينة
المضمونة مستقبلاً، شقتها المريحة الواسعة، سيارتها البورش،
سفرات الإجازة، رؤيتها الكونية. كل ما ملكت وما لديها يجب أن
يعود إلى مارياما أيضاً. كان الرجل الكبير على الخط ثانية وقد
جرّها من رؤى أحلامها.

- الأمر عائد إليك، كلميني عندما تقررين ما تريدان، أنهى

كلامه. وقفت نانا أمام مدخل مبنى سكنها ولم تستطع أن

تستقل المصعد إلى شقتها وتكون وحيدة بين أربعة جدران.

بفعل نوع من اليأس جاء ببالها أن تقصد العم فرانك برغم

كل السنين التي مرت. صديق العائلة القريب الذي كان له حق

ما عندما ناداها بطفلته بالتبرع، بما أنه من قام بحقن الأم لغرض التلقيح الاصطناعي.

لقد كبت نانا بداخلها حاجتها للتعريف بأمر أصلها الذي كانت تشك في كونه تكنولوجيا تماما كالانطباع الذي أعطاه والداها. أظهر فرانك اهتماما وتعلق بها منذ كانت طفلة. كان كأنه يحمل الحب معه. كانت تفرح وتصعد الحماوة في خديها عندما يزورهم في بيت والديها الكبير الذي لم تشعر يوما بأنه بيتها.

عيادة فرانك للإخصاب في أقصى «فريديريكسبيرغ»، قد تم توسيعها مع إيقاع التقدم العلمي الخارق. كانت نانا من نتاج المرحلة الأولى من بحوث الخصوبة قبل أن يكون بالمستطاع إجراء تلقيح اصطناعي خارج الرحم واختراع ما يسمى بطفل الأنبوبة. شعرت نانا بنفسها كجسم غريب لم يكن ليخلق لو لم يكن ذلك التطور البايوتكنولوجي في حقل البحوث لفرانك.

أسرته زيارتها المفاجئة وطلب منها التفضل إلى مكتب مدير العيادة. سألها باهتمام عن صحتها. أخبرته نانا بإيجاز عن خضوعها لعلاج مكثف ضد الإجهاد. لم يكن التواصل الودي بينهما وفق المقاييس تماما من قبل وبقي كل منهما داخل حدود العرف الاجتماعي الرسمي الحازم. على المختص البايوتكنولوجي ومنتجه ألا يكونا على معرفة خاصة. لذلك كان هناك سبب وجيه لإخفاء الحقيقة عن نانا بشأن أصلها حتى جاءت زلة لسان فرانك.

- من المهم أن تحترمي أعراض الإجهاد وإلا هناك الخطر في أن يصير مزمنا. كان فرانك يمضغ بتفكر سيجارته البلاستيك.

- لقد جئت للعالم من أجل أن أعمل وأستوفي الشروط التي تملئ علي، قالت نانا بحدة.

- هذا يقتضي أن تعتني جيدا بنفسك.

- لم تعتد أن تكون ... أبويا جدا. قمعت نانا كل مشاعر الخجل فيها. لقد جاءت من أجل توجيه سؤال محدد له.

- وأنت لم تعتدي أن تقضي إجازة في سفرة. شكرا لبطاقتك، قال لها. لم تذكر نانا أنها قد أرسلت بطاقات للتحية. من المؤكد أن ذلك كان في الأيام الأولى قبل مارياما.

- اشتريت عرض السفرة بشكل تلقائي، لا بد لنا من تجربة شيء جديد. قالتها بجرأة وشروود. كان شعورا غريبا أن تتحدث مع فرانك بعد كل هذه السنوات من الافتراق.

- أعتقد أن من الأفضل أن تخبريني ما الذي في بالك، قال لها بلطف. شعرت نانا بأنه كشف النقاب عن مبتغاها فتملكتها رغبة في الهرب بعيدا.

- لم أفهم تماما، قالت مراوغة.

- أنت من إنتاجي ولكن من الطبيعي أن ذلك لا يمنحني الحق لكي أعرف حياتك الخاصة وأن أعلم ما الذي تقومين به في سفراتك. كان فرانك ينظر صوب الزاوية الأبعد من المكتب عالي السقف.

- ولكن إن كان أحد ما من ضمن محيطك قد تعرض إلى

خطر فهناك من سبب لكي يكون متنبها لذلك، تابع صانعها بتفكر.

- ولكن لا يمكنك أن تكون متنبها لكل... منتجك.

- لا أعرف أحدا منهم عداك وهذا مخالف للقانون، تتمم بينه وبين نفسه. لم تره نانا متأثرا بهذه الدرجة ومجهدا. شحب وجهه وأخذ يتنفس بصعوبة.

- هل ألم بك شيء؟ قالت له مرعوبة. لم يجبها فرانك وأمسك صدره جهة اليسار.

- هل يمكنك مرافقتي الطريق إلى البيت؟ تأوه متألما ونهض. وقف وتأرجح. أمسكت نانا به لئلا يسقط. انسحب معها خارج العيادة بعد أن أحكم إقفالها. كانت السكرتيرة قد غادرت قبله. عادت الحياة إلى فرانك من جديد في المترو، عاد اللون إلى خديه والألق إلى عينيه. رافقته نانا إلى الباب ثم المدخل والمصعد وتوقفت. لم تزره من قبل في سكنه الخاص ولم تكن واثقة فيما لو كان قصده هو زيارة بيته. لوح لها لتدخل واستطاعت أن تحشر نفسها قبل أن ينزلق باب المصعد وينغلق. صعدا إلى الطابق الأعلى. كانت الشقة مقابل المصعد مباشرة. كانت نانا متوترة إزاء الموقف غير المنتظر. تأسفت لعدم ارتدائها شيئا أكثر أناقة في زيارتها الأولى وربما الوحيدة لفرانك.

بدا الموقف رسميا عندما فتح الباب ودعاها للتفضل بالدخول قبله. كان يسكن في أتيليه كبير يتخلله الضوء من أعلى عبر النوافذ في سقف الغرفة. كان الضوء يدخل من الجانبين ويذوب بعضه في بعض بانعكاس أبيض جعل الفضاء يتأرجح. ترجأها

فرانك لتجلس في أقصى مائدة الطعام الطويلة بينما هو يعد
الشاي ويدهن بعض قطع من بسكويت الجبن.

تأملت نانا المكان من حولها. كانت هناك صور فوتوغرافية
للأطفال في كل مكان. كانت ذات الوجوه الثلاثة بمختلف
الأعمار. لم تستطع نانا رفع بصرها عنهم. صب لها الشاي
فانتشرت رائحة ياسمين في الغرفة.

- إنهم أطفال، قال بعفوية. شربا الشاي بصمت قبل أن
تقول:

- لديك أطفال جميلون.

- يتبع الأم، قال.

- أجل بالطبع، أسرعت نانا بالقول ولم تتوغل أكثر. لم يكن
لديها الحق لسؤاله عن حياته الخاصة.
- المزيد من الشاي؟ سألها.

- سرعان ما عادت حيويتك إليك مجددا، أكدت برضا.

- الوعكة في طبيعتها عابرة، قالها تقريبا بأبوية ثانية. لم
تستطع نانا الكف عن التفكير في كيفية تعامله مع أطفاله وهو
يعاملها بهذا الحنان والحب. ولكن ربما كانت هي أحد أطفاله؟
نظرت نانا مستكشفة ما حولها من جديد. استجاب فرانك في
الحال لشكها.

- معي يمكنك التحدث بحرية، أكد لها.

- أنا بحاجة للحديث عن التجربة التي مررت بها خلال
سفرتي وسماع تقييمك لما جرى لي. تحدثت نانا بصوت خفيض
وأغلقت فمها كأنها تود أن تصطاد الكلمات قبل خروجها.

- سأكون واضحاً جداً: خبرتي المهنية هي كل ما يمكنني عرضه عليك. ما هو خارج ذلك عليك بإيجاد أماكن أخرى. نظر فرانك مباشرة في عينيها.

- لقد أعطيت وعداً وفي نيتي الوفاء به.

قابلت نانا نظرتة من دون أن ترمش.

- أي وعد؟

- أن آتي ببنت صغيرة من هناك إلى أوروبا.

- لقد ابتعدت عن الواقع كثيراً. كان لصوت فرانك صدى

معدني. لم يمس بسكويت الجبن الموجود في الصحن، والشاي

قد برد برغم أن رائحة الياسمين ظلت عالقة في هواء الغرفة.

- أنا وعلى العكس قد خطوت داخل عالم الواقع، أدلت له.

استنكار ورفض فرانك قد يسهل من وداعها له.

- سميه ما شئت، قال رافضاً.

- الواقع حيث تكون مارياما، قالت نانا.

- الواقع حيث تكونين أنتِ وحيث أكون أنا. هزّ فرانك رأسه

نضياً.

- لا يمكنك أن تتبني واقع الآخرين، وأصل هو.

- لا يمكنني أن أخذلها، همست.

- أنتِ في الواقع حيث يوجد جسدي، وهنا عليك استخدام

إمكانياتك.

- ولكن روحي في مكان آخر، أصرت نانا.

- هنا أضع حداً واضحاً. لا يمكنني ولا أستطيع أن أكون

المدّاي لروحك ومن يحل مشاكلك. نهض فرانك وأخذ إبريق

- الشاي معه إلى المطبخ. نهضت نانا أيضا. اشتاقت للعودة إلى بيتها. تريد بعضا من الوقت لهضم درس فرانك. قد تم ترسيم الحدود بشكل صريح وواضح. ما الذي كان تتصوره حقيقة؟
- أحسبك إنسانة رشيدة. فكري جيدا. كان فرانك منحنيا أمام غسالة الصحون.
- لا طريق للرجعة، قالت نانا بهدوء. كانت سعيدة لأن فرانك ويرغم كل شيء كان قلقا بشأنها.
- لقد وعدت بشيء من المستحيل تحقيقه.
- أعرف ذلك، قالت نانا بضعف.
- أريد أن أقوم بمحاولة أخيرة لأجعلك تتراجعين عن ذلك.
- قال فجأة بصوت عال جدا.
- أن تقلق عليّ وتهتمّ بحياتي يعني لي الكثير. لقد ظلت نانا شابة لزمّن طويل ولكن ذلك قد مرّ الآن وبشكل نهائي.
- كما أرى فإن مشاعرك تتحكم في حياتك.
- إنه خيارى. شعرت نانا بانزعاج يتنامى لعدم تفهمه لها.
- تبدين حاسمة. رفع فرانك حاجبيه الكثين.
- ولكنك قد ضللت الطريق. واصل بعد وقفة للتفكير.
- يؤسفني أنك لست معي في تفكيري. تناولت نانا معطفها من على الشماعة ولكن قبل أن تزرره قام فرانك بحركة غير متوقعة. أخذها إلى حضنه وأبقاها بين ذراعيه كأنه لا يريد أن يفلتها أبدا.
- الحرية ليست في أن يكون لك والدان، قال بعد أن أفلتها من بين ذراعيه أخيرا. كانت تشعر بدوار. ارتجفت ساقاها.

لم تفهم ثانية ما كان خلف كلماته، إن كانت عزاء أم كان فيها معنى فلسفي أعمق! ربما كانت جوابا لسؤال لم تسأله. نظرت من خلفه إلى الصور الفوتوغرافية لأطفاله فرأت نفسها من بينهم. بإمكانها أن تحدث أنهم كانوا تقريبا في عمرها. تتبع فرانك نظراتها.

- إنهم أذكاء شطّار في حياتهم العملية في كل أرجاء العالم.
- لديك أطفال حلوين، كررت نانا، تغمرها مشاعر لم تعتدها أثارها احتضانه لها. كان لديها شعور بأنها يمكن أن تنكسر في أية لحظة.

- ألتقيهم مرة في الشهر عبر سكايب. اهتز صوت فرانك، بدا فجأة ضائعا.

- نحن الذين نحتاج إليك. ندمت نانا في الحال لتصريحها المشفر.

- أشياء يجب إبقاؤها منفصلة، لا يجب خلطها معا. تحدث فرانك ثانية بسلطة متحفظة.

- لقد تطورت التكنولوجيا البيولوجية كثيرا منذ أن.. حاولت أن تقول. حرك فرانك ذراعيه وتوجه صوب الباب. بقي واقفا مترددا. نظرت نانا للمرة الأخيرة من حولها على الغرفة الهادئة بسجادة الحرير الفارسية، المفروش المطبوع باليد من الشرق والأعمال الفنية على الجدران. تنحنح فرانك وفتح الباب ليدعها تتقدمه. تنحنح ثانية خارجا عند المدخل بشكل أقوى كأن شيئا قد سدّ بلعومه. ضغط على زر المصعد الذي انزلق إلى أعلى من دون صوت من خلف المشبك الحديدي. وقف عند

تجويف السلم ينظر إليها وهي تهبط عبر قناة المصعد. لم تسأل السؤال الذي تحرقت لتوجيهه له ولكن التشابه مع أطفاله على الأخص الابنة قد أعطاها الجواب الذي بحثت عنه. تأكدت أن فرانك قد أدرك أنها على يقين الآن أنها لم تخلق نتيجة تلقيح اصطناعي. تراءى وجه أبيها المملوء بالأسى أمامها فجأة وانتابها تأنيب ضمير لأمر ولادتها.

ترجلت نانا من التاكسي أمام «سيتي هول بيلدينج»، حيث يقع مكتب فرع «روار - لندن» في الطابق الثامن. كانت تعرف المنطقة بحذافيرها جيدا وتشعر كأنها في بيتها في تلك العمارة الزجاجية السوداء التي يرى المرء من داخلها ما هو خارجها وليس العكس. كانت تتردد كثيرا على المكان حتى إن حراس الأمن حيّوها كفرد من أفراد العائلة وقد أدلوا بتعليقات لطيفة بشأن مظهرها فاجأتها ككل مرة فهي لم تعتد أن ترى نفسها عبر الآخرين.

لقاء لندن مع الممثلين من قبل المقرر الرئيسي في دبي انتهى باتفاقية حققت نجاحا باهرا وقد تمكنوا من إنهاء العقد قبل الوقت المقرر لها بكثير. اعتبرت نانا ذلك بمنزلة مؤشر لاستعادة لياقتها مجددا. طرأ على بالها «هانس». من دونه ومن دون علاقتهما كانت قد ضاعت ولا شك.

بعد واجب احتساء الشراب المفروض عليها مع زملاء لندن تمكنت نانا من الوصول إلى عنوان بن وبياتريس في كنغستون. تذكرت أنها لم تجلب معها باقة زهور للمضيفين اللذين استقبلاها بحرارة. تحركت عواطفها وامتنت لمنحها الوقت

لزيارتها بإنداز قصير من قبلها. صعدوا جميعا إلى غرفة المعيشة بأثاثها الفخم في الطابق الأول. صبّ بن كاسا من الشراب لنانا وله. ثم تشرب بياتريس غير مياه معدنية. جلسوا جميعهم في أرائك ضخمة حول الطاولة المربعة الكبيرة.

- صحة. رفع بن الكأس وخاضت شفتاه الغليظتان في الشراب.

- وقبل كل شيء، الطفلة، قال بفاعلية. برغم ملبسه العملي، الكارديغان والبنطلون المخملي بدا استثنائيا ونخبويا أكثر مما كان بملابس وقت الفراغ في غامبيا.

- بيا وأنا كما قلنا متفقان حول احتياجنا لشابة في البيت تعييننا في المنزل يوميا.

- شكرا بن ذلك يعني الكثير بالنسبة إلي. تكسر صوت نانا. استأذنت بياتريس وراحت إلى المطبخ لتحضر العشاء.

- نحن نتطلع إلى مجيء مارياما هنا. ثم تعد بياتريس قوية. إنها في الحقيقة ليست بصحة جيدة.

- يؤسفني سماع ذلك. بدا الاستفسار على وجه نانا.

- لا تحب بيا أن أقولها كما هي ولكن الموقف حرج. نظر بن إلى الأمام متفكرا.

- كان عليّ بالفعل إقناعها. ثم تود أن تسمع شيئا عن عدم قدرتها على تولي كل شيء وحدها ولكننا بحاجة إلى مارياما لتساعدنا في الأعمال المنزلية، وعلى الأخص بيا بحاجة إلى رفقة عندما أكون بعيدا عن البيت في مهمة لفترة قصيرة أو طويلة.

خجلت نانا من لسعة الغيرة التي شعرت بها لفكرة أن مارياما ستكون رفيقة بيا، وأن الاثنتين ستكونان على علاقة قريبة فيما بينهما أكثر من علاقتها مع مارياما.

- آمل أن تتمكن من الدراسة لتحسّن إنجليزيتها. حشدت نانا كل ما هو غير أناني فيها.

- علينا الآن أن نركّز من أجل استخراج فيزا لها.

- هذا هو أكثر ما يقلقني، تنهدت نانا.

- الذي لا يؤمن بالمعجزات ليس واقعياً. شرد بن مع أفكاره.

تفاؤله المتسرع منح نانا الشجاعة للوثوق بأن الحلم بمارياما يوشك أن يتحقق.

- لم أتوقع أن أحضر للعشاء. هذا كثير. شعرت نانا بأنها

فرضت نفسها عليهما.

- أنت بحاجة إلى وجبة دسمة. ستأخذ الرحلة من الوقت

الكثير قبل أن تصلي بيتك في كوبنهاجن، قال بن. رفضت نانا

وجبة إضافية ونظرت من حولها. لم تكن في بيت من قبل بهذه

الكمية من الكتب وبهذا الجمال. ليس لديها غير رفوف ببضعة

كتب من أدب المطارات والفلاسفة الكلاسيكيين. ربما لأنها كانت

تعيش حالة حب ليس مع بن وبياتريس بل مع علاقتهما ولذا

لم تستطع تجنب طرح سؤال شخصي عليهما. لم يكن هذان

الشخصان مجرد صفقة عمل بالنسبة إليها.

- كيف التقيتما أنت وبياتريس؟ قالت له. لم يبد بن خجلاً

من تصرفها المباشر.

- التقينا في مرحلتنا الدراسية الأولى. كانت بيا أكثر اجتهاداً

تحصل على درجات أعلى مني. كانت النجمة في مجال دراستنا
الأنثروبولوجيا.

- ألسـت طبيبا بيطريا؟ تذكرت نانا ذلك منذ لقائهم الأول
في الفندق في غامبيا. كانت لها دوما ذاكرة قوية.
- لديّ العديد من الشهادات الدراسية. قال باختصار وتابع.
- كنت أنظر لبياتريس كقدوة لي بالفعل. ولكنها منذ ذلك
الزمان وصحتها ليست على مايرام. علمنا من النظرة الأولى
أننا سنكون معا. لم نعرف بالطبع خلفيات بعضنا. سرعان ما
أدركنا أن قصة بياتريس بدأت عند ولادتها، وقصتي تعود إلى
آدم وحواء، إن جاز القول. على المستوى الروحي فنحن من نوع
واحد، قسما أفلاطون اللذان يبحثان ويجد أحدهما الآخر كما
تعرفين.

- لا أفهم حقيقة.. ولادة بيا؟
لم تستطع نانا السيطرة على فضولها.
- إنها معجزة علمية. قال بن وأغلق على بقية الأسئلة.
- هل تفكرين في الارتباط بشريك؟ تابع.
- لقد بدأت التفكير في هذا، اعترفت نانا، إن ظهر الشخص
المناسب... أو.. ربما هو موجود.. لا اعترض لديّ على علاقة
ثابتة على الرغم من أنني كامرأة وحيدة أجد نفسي في حال
جيدة جدا. لا أصلح حقيقة لعائلة.
- ومن هو إذن المختار؟
- زميل وصديق لي.
- يجب أن تتوافر لدينا الرغبة في الانتماء لكي تنجح الأمور.

- ربما لا أملك ذلك بداخلي، تمتمت نانا.
- يعتمد ذلك بالطبع على الاختبار.
- لن تجد مارياما مكانا أفضل لتكون فيه غير هنا. عندكما، انطلقت نانا قائلة لتحاشي الحديث عن نفسها.
- أنت مهتمة بالفعل بأمر هذه الطفلة. نظر إليها بن متفحصا.
- إنها تهمني. تنحنحت نانا خجلا.
- أهذا جين المساعدة؟
- لا، ليس كذلك.. إنها.. روح..
- هل أنت متأكدة من أن القطاع المالي سيأخذ «الروح» في حساباته؟ قال مناكدة.
- لا أستطيع أن أجد كلمة أخرى.
- كلمة لمن؟ نظرت بن ثانية إليها نظرة حادة.
- كلمة لمارياما. شعرت نانا بحرية وطبيعية برفقته.
- سنعمل على الاعتناء جيدا بـ «روحك». إن حصلنا على تصريح من دائرة الهجرة البريطانية، ولكن دعينا أولا نحاول المستحيل.
- هل تعني أنه لا مجال لمارياما؟ قالت نانا بانكسار.
- العشوائية والاضطراب بشأن قوانين الفيزا في المملكة المتحدة يمنحنا فرصة ما. كان بن يشعّ بالثقة ما جعل نانا ترتخي. جلسا للحظة صامتتين. وضع يده على كتفها.
- نحن ممتنان جدا لقبولك العمل لشركتنا B&B كمستشارة مالية.

- يشرفني ذلك، أكدت نانا. تعاملها مع الأرقام الجافة، الرسوم
البيانية والحسابات من شأنه أن يدعم ثقتها بنفسها.
أخبرتتهما بياتريس من المطبخ في الأسفل أن العشاء قد
جهز. نهض بن وقد بدت لياقة جسمه واضحة.
- دعينا نرَ كيف ستتطور الأمور بشأن مارياما.
- ولكن إن فشل طلب الفيزا؟ تبعته في نزول السلم إلى
الطابق الأرضي.

- سنجد مخرجاً. هناك دوماً أكثر من حل لمشكلة ما. كان لبن
علاقاته وبإمكانه الضغط على بعض الأزرار التي تتبوأ مناصب
عالية في الدولة.

- شكراً، عزيزي بن، شكراً، فكرت نانا. أدارت نظرها صوب
السقف الخشبي الجميل في شك من أمرها فيما لو كانت في
العالم الواقعي. هل كان هوسها باستقدام مارياما إلى أوروبا
مجرد خيال لا يوازي آمنيات مارياما ذاتها؟ لم تسألها نانا
قط. إنها لم تفعل غير أن تستجيب لإشارات الطفلة الواهنة
حول مجيئها إلى أوروبا بصفة مساعدة عائلة. ربما كانت «فيزا»
و«أوروبا» كلمات حائلة علقت في الهواء مثل حرز متاح لكل من
كان بحاجة للتشبث بأمل.

كانت مائدة الطعام في المطبخ المفتوح الكبير قد أعدت. أخذ
كل منهم مكانه وفتح بن قنينة شراب. شعرت نانا بضيق بسبب
علمها بمرض بياتريس ولم تعرف ما عليها قوله. بدأ المطر
بالهطول خارجاً. فتح بن الباب المطل على الشرفة والحديقة
الخلفية. بدا كأن الوقت قد توقف. كانا بعيدين جداً عن ذلك

المساء اليوفوري والحديث المنساب في المطعم في فندق جولدن باي. كسرت بياتريس الصمت بصوت قاتم لحني:

- من المؤكد أن بن قد فضفض لك عن قلقه بشأن صحتي.

- أجل أنا قلق من أجلكِ حبيبتي، اعترضها بن بقوله. تابعت

بياتريس غير مبالية.

- ذلك صعب عليّ كما ترين أن أتحمل مسؤولية بنت شابة

وأمنحها عائداً لإقامتها. أخشى أنها ستشعر بالملل معي أنا

وضعفي عندما يكون بن بعيداً. نظرت بياتريس إليه بقلق ولم

تكن منتبهة تماماً لوجود نانا. تعرفت نانا على أجواء حديثهما

منذ كانوا في غامبيا والذي يبقياها خارجاً بينما يدعوها إلى

شراكتها الروحية ذات الوقت.

- نحن معا في هذا حبيبتي لست وحدك. أرسل بن الخبز

المحمص ليدور بينهما.

- عندما تكون بعيداً في مهمة سأكون وحيدة.

- أنا أسافر فقط في المهمات القصيرة لأسبوع أو أسبوعين كل

مرة، وأنت لن تكوني وحيدة لديك مارياما وهذا هو المقصود. كان

بن واثقاً بكونه قد عمل اللازم لأجلها.

- هذا ما أقصده لا أريد بالخصوص أن أرفه عمن سيكون

معي.

- لن ترفهي عن أحد، عليك أن ترحبي وتستمتعي برفقة بنت

شابة، تنصتان إلى الموسيقى، تذهبان إلى معارض فنية، وكل ما

لم يكن لديك وقت له لسنوات، أقنعها بن.

كان من الواضح أن نقاشاً قد دار بينهما من قبل. لم تشأ نانا

التدخل. كل ما كانت ترغب فيه هو إلغاء كل شيء والعودة إلى ما كانت عليه ثانية. كأن بياتريس قد قرأت أفكارها استدارت نحوها فجأة:

- أرجو ألا تسيئي فهمي نانا. أريد من كل قلبي أن تكون مارياما عندي. ولكنني غير واثقة بقدرتي حتى ذلك الوقت.

- الطفلة ستكون مخففا وليس ثقلا على أعبائك. كان صبر بن بلا حدود. جمع الصحون ونهض ليقدم الوجبة الرئيسية طبق باستا مع صلصة معجون الزيتون.

- هذه تحفة بيا، أعلن بن بزهو. كان مرض بياتريس عائقا آخر، كان على نانا أن تتجاوزه إن كانت تأمل في استقدام مارياما إلى لندن. كان بن وبياتريس احتمالها الوحيد.

- عليك أن تثقي حبيبتي. أرادت نانا مساعدة روحها الشابة في طريقها. أرسل بن إليها نظرة تفهم جانبية. ارتبكت بياتريس ولكنها تظاهرت بلا شيء. أضاء وجهها بشفافية مطفأة.

- وأنا سأساعدك عزيزتي، أضاف بن وهو يحرك عضلات وجهه بشكل مضحك ليجعل بياتريس تبتسم.

- اثنان ضد واحد، قالت بجدية ورفعت نخبا بكأس من المياه المعدنية. لم تحب نانا المنحى الذي آل إليه الحديث. هي لا تود أن تخلق فرقة بين الاثنين.

- لا يجب أن شعري بأنك مضغوط عليك، أسرعت بالقول بتأنيب ضمير لأنها جرّتهما إلى الدخول في مشروعها مع مارياما.

- لا تقلقي، كان ذلك لحظة مراجعة للذات، قالت بياتريس

بلطفها الناعم وقدمت المزيد لها من طبق الباستا.

- بن وأنا متفقان حول حاجتنا إلى مساعدة في المنزل. لذا فلم لا تكون مارياما؟ قالت بخفة لم تبدُ مطمئنة لنانا تماما.

- نانا وافقت على أن تكون مستشارة مالية لنا، قال بن بمرح.

- شكرا نانا. بدت بياتريس هشة جدا كمن خلق من زجاج.

لم تر نانا لسذاجتها أن تلك الانطباعات التي تتكون من خلال تعارف سفرة واحدة لا تمنح بالضرورة صورة حقيقية.

- دعينا نجرب، أليس كذلك بيا؟ قال بن.

- أجل بالطبع. ابتسمت بياتريس ابتسامة بعيدة.

أصر بن بعد القهوة والكيك الذي صنعه بياتريس بالتوت البري الأزرق على أن يري نانا أنحاء البيت. كانت هناك ثلاث غرف للنوم في الطابق العلوي. لكل من بن وبياتريس غرفته ومن المفترض أن تكون الغرفة الثالثة في نهاية الممر لمارياما. أوضح لها.

كانت هي غرفة الأطفال سابقا والتي كما يبدو ظلت على حالها منذ انتقل منها طفلهما أو أطفالهما.

- بحاجة إلى تلميع. قال بن الذي بدا أخيرا متعبا. لاحظت نانا أن الغرفة المتروكة كانت تعود إلى مراهق بأسطوانات روك ومضخم للصوت مُدمر وأكوام من الموصلات جعلت الأرضية تشبه مزرعة دود.

- نحن نحتاج إلى شباب في هذا البيت، إلى موسيقى عالية، مذكرات سرية وجروح عشاق، قال بن. فكرة أن تكون مارياما في هذا البيت اللندني المتين والثقف بدت غير حقيقية لنانا. الألق

قد اختفى من خطتها اليوفورية بشأن منح مارياما حياة أفضل.
لم يعد بمقدورها رؤية ذلك.

- نانا، سيسير كل شيء على ما يرام، قال بن عندما وقفا
عند المدخل بانتظار التاكسي. حضنتها بياتريس وأكدت لها أنها
متهيئة مائة بالمائة لاستقبال مارياما. سألت نانا نفسها: «لماذا
يفعلان ذلك، لم أفعل ذلك؟».

استبد بنانا في الطائرة إلى كوبنهاجن القنوط وفكرت
ثانية أن من الأفضل لها أن تمول دراسة مارياما في بلدها الذي
تنتمي إليه. وبعد لحظة تتذبذب حول الفكرة المعاكسة. لن تأمن
لحصول مارياما على دراسة من غير مجيئها إلى لندن. لا تود
أن تعيش بقية حياتها في لوم نفسها وتأنيب ضميرها بشأن عدم
قيامها بكل ما هو ممكن إنسانيا من أجل ضمان مستقبل لها.
وكلما احتست المزيد من الشراب الذي يقدم مجانا في «البيزنس
كلاس» زادت قناعتها بخصوص القيمة العليا في ضرورة مجيء
مارياما إلى لندن لتقيم عند بن وبياتريس ومعها كمتعهدة من
أجل انتشارها من التعاسة.

اتكأت نانا إلى الخلف في مقعد الطائرة الواسع ورأت حياتها
الجديدة أمامها مثل فيلم تترأسه البطلتان اللتان اتحدتا بعد
سلسلة من الصعوبات. أغمضت عينيها.

وتخيلت كيف أن مارياما وبعد لقاء مؤثر بوصولها والمرور
البطيء للشهور والسنوات تتفتح وتصير امرأة شابة ذكية جميلة
وقد أخذت شكل صورتها هي. ستكونان مثل أختين تتشابهان،
وفي الوقت نفسه مختلفتان.

خيال

وقعت عينا نانا عليها بعد أن انغلق الباب الأتوماتيكي من خلفها وقد وقفت جامدة قاطعة الطريق على جمع المسافرين التالي المتوجه إلى قاعة الوصول. بدت مارياما تائهة، مرعوبة تقريبا مما حولها وهي تمسك قويا بحقيبتها الرياضية من النايلون. شعرها الرمادي قد تمّ تنزيله فبدا مسحوبا متصلبا مثل باروكة. كانت ملابسها خفيفة جدا بالنسبة إلى الطقس الإنجليزي. لقد أرسلت نانا لها مبلغا وفيرا من أجل شراء ملابس دافئة والتي كما يبدو قد استخدمت لحاجات أكثر إلحاحا في العائلة.

كانت تبدو أكثر نضجا عند النظر إليها، أطول وأكثر انتصابا في قامتها وأكثر نحولا أيضا خلال السنتين اللتين مرتا قبل حصولها أخيرا على الفيزا إلى المملكة المتحدة. لم تحصل على شهادة جيدة بيدها لدراساتها التي لم تتمها. وبرغم الدرجات المُرضية نوعا ما من ثانوية «كانيفينج»، لم يكن استخراج الفيزا للخريجين أمرا سهلا المنال. وقد كان استهلاكها وضغطا للأعصاب بسبب الآمال الخائبة والتفاؤل اليوفوري قبل أن تتمكن نانا من

دفع رسوم الدراسة لفصلين دراسيين في كلية Southwark وتضمن إقامة مارياما بنسخة مطبوعة من حساباتها في البنك. وقد تمكنت أثناء هذه الفترة وبمساعدة ودعم صادق من هانس أن تسيطر بعض الشيء على حياتها وأن تنهض من إحباطها في «روان». الثَّلْمُ الوحيد كان في أن تختار الذهاب إلى لندن وأن تترك هانس بالتالي. لم يكن بمقدورها أن تتدبر أمر علاقة ثابتة، وفي الوقت نفسه تتكيف لحياة جديدة مع مارياما. بل إنها أخذت تشعر بجسدها بقربه وكيف صارت غريبة عن نفسها كأنها أخرى معه. أوهام، أوهام، تقول لنفسها وتعود مجددا لتكون حاضرة. إنها لا تود أن تترك للسينتيما التالية لتقودها. لقد اتخذت قرارا وعليها التمسك بالمعجزة التي، بفضل المعاناة المشتركة، قد استحصلت فيزا لمارياما إلى المملكة المتحدة الموعودة.

فرح مارياما الغامر في الأسابيع الأخيرة قبل سفرها كان مؤثرا للمشاعر. قد أمطرت نانا بوابل من المكالمات عبر الموبايل وكلمات الشكر المخلوقة بالبكاء، «ثانك يو، ثانك يو، ثانك يو». هزّها كون مجرد مبلغ صغير نسبيا يمكن أن يبعث كل هذا الامتنان البهيج. ولقد تحدثت أيضا مع والدّة مارياما على الهاتف. قد جاءت من القرية لتودع مارياما وقد حيّت نانا أيضا بكلمة «ثانك يو، خاضعة روتينية ثم تركت الموبايل في الحال ثانية لمارياما.

ظلت مارياما واقفة كأنها قد زُرعت منتصف الزحمة في المطار. لوحت لها نانا بذراعيها عاليا وشعرت بخيط رفيع من الخيبة مثل بالونة يتسرب منها الهواء. كان تقريبا إحباطا مفاجئا بعد وقت الانتظار الطويل المتوتر وقبل أن تخرج أخيرا

إلى صالة الوصول. القلق قد تملك نانا قبلها خوفا من حدوث شيء سيئ، فلربما لم تأت في هذه الرحلة. ولم يخبروها عند الاستعلامات بغير أن الطائرة قد حطت في الوقت المحدد وهذا التأخير طبيعي للمسافرين من غرب أفريقيا حيث يمرون بنقاط تفتيش.

وقعت عينا مارياما على الوجه الوحيد الذي تعرفه فبدأت بالتحرك ببطء ويدفعات صوب نانا ثم توقفت فجأة بضعة أمتار على مبعده منها.

- افتقدتك، أمي ترسل لك بحبها. إنها فرحة جدا لأجلي، همست لاهثة. شعرت نانا بأن الدموع تحاصرها.

- دعيني أحمل حقيبتك، قالت لها. ولكن مارياما لم ترغب في إفلاتها من يدها.

- ستلتقين بمضيفيك. وضعت نانا يدها بحذر حول كتفها.

- من؟ سحبت مارياما نفسها من نانا.

- هيا تعالي عزيزتي، قالت نانا بهدوء.

- لقد أخبرتك أن بن وبياتريس هما مضيفاك ولكن يمكنك البقاء عندي بالقدر الذي تريدينه. أنا أسكن قريبا جدا، أكدت لها نانا.

- لا أريد أن أكون بالقرب، أريد أن أسكن عندك، قالت مارياما بانفعال واستدارت مبتعدة عنها. لم تظهر نانا ردة فعل ولم تستمع إلى عنادها.

بن وبياتريس اللذان انسحبا إلى الخلف خلال ذلك تقديما إليهما. مدّ بن يده لمارياما مرحبا بها في لندن. صافحته مارياما

على مضض بأطراف أصابعها.

- شكرا، همست وأحنت رأسها.

- بن ويا. قدمتهما نانا لها.

- نحن متشوقان لمجيئك عندنا في البيت، قالت بيا وحضنتها.

- هيا، لنذهب إلى البيت ونأكل، لابد أنك جائعة. رفع بن

حقيبتها فنظرت مارياما إلى نانا بارتباك.

- سأسكن عندك أليس كذلك؟ همست وهي متشبثة بقوة

بذراعها.

- لا تقلقي بشأن هذا مارياما، قالت لها. استسلمت مارياما

وتركت لـ «بن» أن يحمل حقيبتها إلى اللاند روفر التي كانت في

محل توقف السيارات قصير الأمد خارج قاعة الوصول. أخذت

بيا يد نانا وعصرتها لتطمئنهما وتؤكد مسؤوليتهم المشتركة. هل

يعني هذا الاعتناء أنها فقدت مارياما مقدما لياخذها كل من بن

وبياتريس؟ شعرت نانا بهدوء غريب كمن ينظر إلى أسفل هوة.

هذا الخوف المضرب الذي عاشته في الستة أشهر الأخيرة قبل

مجيء مارياما قد تجسد.

حصلت مارياما على جولة لتري أرجاء طوابق البيت الثلاثة

كلها عند بن وبياتريس في بورتلاند رود. تفحصت كل شيء من

دون أن يحمل وجهها أي تعبير ولم تُبدِ إعجابا بالمحيط المريح.

كانت تهز رأسها متعرفة كأنها قد عاشت كل شيء من قبل في

حياة أخرى أو في مسلسل أمريكي. تركت نانا لحالها بينما

استقرت مارياما في غرفتها التي تم تجديدها وأزيل منها كل أثر

لن أقام فيها من قبل.

فكرت في القرب الذي صار بينها وبين بن وبياتريس بسبب الجهود المشتركة من أجل استقدام مارياما إلى المملكة المتحدة وفي فرحها للصدّاقة التي جمعتها بهما أول إقامتها في لندن. لقد سارت بمكتب B&B الاستشاري عبر الأزمة من دون خسارة كبيرة وبهذا دُعمت رأسمال الشركة. كبرت بصمت وهدوء في ظل تقدير الأصدقاء وتعزّز هذا الشعور الغريب الذي يشبه الرباط العائلي بينهم.

راقبت نانا عند الغداء رد فعل مارياما إزاء الطعام ولم تتمكن نفسها من بلع ولو لقمة. ولكن مارياما تناولت بأدب كل ما قُدّم لها. لقد تصرّفت عموماً مثل سيدة تدبّرت الموقف غير المعتاد بلياقته على طريقته. تطلّعت نانا للتسوق معها وملء خزانتهما بالثياب وبالأخص اصطحابها إلى حلاق جيد. لقد اتفقت مع بن وبياتريس على أن تتولى هي أمر ثيابها ومصرف جيبها بينما يتكفلان هما بطعامها وسكنها وراتب قليل لقاء الأعمال المنزلية البسيطة لكي تتصرف به كما تشاء. أن ترسله كله إلى عائلتها أو تقسمه بين الأم والخالة روزي. كانت مارياما كما قالت هي «إنسانة طيبة» وحريصة جداً على تولي دور المعيل للعائلة بعد إقالة روزي من عملها في البنك.

كانت أجواء حميمية حول مائدة الطعام. شاركت مارياما بالحديث على شكل إجابات مختصرة على أسئلة محتضنيها الثلاثة.

قطعت فجأة الحديث ووضعت الشوكة والسكين جانبا ثم تنهدت عالياً.

- أنا تعبـة جداً، قالت ونظرت في الصحن أمامها.
- ألا تريدان المزيد؟ سألتها نانا مرتبكة. لم تستطع أن تجيد دورها كشريك ثالث. هزّت مارياما رأسها نضياً.
- اذهبي مع نانا فوق إلى غرفتكِ وافتحي حقيبتكِ واستريحي بينما نرفع الصحنون، اقترحت بيا وهي تنظر إلى بن. نهضت مارياما ونانا بكل أدب وصعدتا إلى الطابق العلوي.
- رفعت نانا مفرش السرير وطوته بعناية جانباً. رمت مارياما بجسدها على السرير ورأسها إلى الجدار. جلست نانا على الحافة.
- ليس لديّ ما أخرجه من الحقيبة، تمتمت مارياما. كان ظهرها النحيل الطويل داخل سترتها الخفيفة يسطع بالإهمال الذي يقطع نياط القلب.
- أنا لا أتفق معك نانا، قالت واستدارت.
- ما الذي لا تتفقين معي فيه عزيزتي؟
- هذان الاثنان في الأسفل. وأشارت إلى الأرض.
- إنهما صديقان طيبان ومثللك «ناس طيبون».
- أنا أفقدكِ. أخذت مارياما يدها.
- أنا هنا عندكِ، طمأنتها نانا.
- أنت ستروحين وسأبقى وحدي.
- ولكننا سنلتقي كل يوم، قالت نانا وهي تعلم جيداً أن ذلك لن يكون كل يوم.
- منذ أخذتني الخالة روزي من القرية إلى سيرا كوندا وأنا أفقد أُمي دوماً. أنا أفقدُها هنا. جلست مارياما على السرير.

- بإمكانك الاتصال بأمك كما ترغبين.
- ليس لديها تليفون. دمعت عينا مارياما وعادت ثانية الطفلة الصغيرة التي التقتها نانا على الشاطئ حيث فندق «جولدن باي». أخذتها إلى صدرها وأخذت تهددها. استغريت أمر أنها ومن دون أن تفكر عرفت ما الذي يجب فعله. كأنها ليست هي تلك التي جلست على السرير تحضن طفلا بين ذراعيها بل امرأة أمومية أخرى قد استولت على جسدها.
- سنتدبر أمرنا من دون شك، همست نانا لها. تملصت مارياما منها بحركة مفاجئة.
- لقد فحصوني في المطار.
- فحص جسدي؟ سألت نانا مرتعبة. هزّت مارياما رأسها إيجابا.
- هل كان ذلك السبب في تأخركِ قبل الخروج إلى صالة الوصول؟ لقد قلقنا حقيقة بشأنك.
- هكذا. تجنبت مارياما سؤال نانا وتركت يديها تنزلقان على جسدها.
- بأيديهم؟
- بالجهاز الكشف، قالت مارياما بخجل.
- على ملابسك؟
- طبعا، قالت ولم يبد ذلك مقنعا.
- ليس أكثر؟ أصرت نانا ولكن مارياما انفلقت وانسحبت إلى داخلها. أيقنت نانا من استحالة الحصول على المزيد من المعلومات منها.

نهضت مارياما وشرعت تتفحص بقلق الغرفة ومحتوياتها. تم التدقيق في طاولة الكتابة. وقُلبت الرقعة فوق سطح المكتب أسفل أعلى وأعيدت إلى مكانها بالمقلوب. كرسي المكتب بغطائه الجلدي البيج تم تدويره ثانية وثالثة. الجوارير الفارغة للمكتب سحبَت خارجا الواحد بعد الآخر وصفقت بعنف ثانية. وجدت سلة المهملات تحت المكتب فوضعتها على رأسها كأنها تسخر من نفسها.

- ضعي السلة في مكانها ثانية، قالت نانا.
- لست نفس ال نانا التي كانت في غامبيا.
- أنا نفسي طبعاً، أنزلي ذلك من على رأسك أرجوك، قالت نانا منزعجة. ظلت مارياما غير مبالية تقف والسلة بتوازن على رأسها.
- ضعي سلة المهملات في مكانها، أصرت نانا. لم تتحرك مارياما.

انتظرت نانا وصمتت. وبقيت مارياما صامتة مثلها. يئست نانا أخيراً وتوجهت إليها وأخذت السلة ووضعتها في مكانها.
- تعالي واجلسي بجانبتي، قالت بنعومة. من أين جاءها هذا الشعور الغريزي في كيفية معاملة طفل لم يعد طفلاً، فكرت نانا مع نفسها. جلست مارياما بجانبها. شعرت نانا باحتياج قوي لمساررتها.
- لقد تركت عملي وانتقلت إلى لندن، بدأت بالقول. صُعِبَ عليها أن تقولها بصوت عالٍ. لم تخبر بن ويا عن وضعها الذي تغير وهما لم يسألا. كان من المسلّم بالنسبة إليهما أنها بدأت العمل في «سيتي».

- لا عمل، لا خبز، أكذت مارياما. سخن خدا نانا ودار رأسها.
لم تكن قد تجاوزت بعد صدمتها بعد أن علمت بعدم حصولها
على عقد التوظيف لثلاث سنوات في فرع «روار- لندن» في شارع
باسنج هول كما توقعت.

- كيف ستحصلين على النقود وأنت لا تعملين؟ كررت مارياما
السؤال متشككة. كانت مازالت كشيء غير حقيقي بالنسبة إلى
نانا وهي تجلس على السرير إلى جانبها بقرب غريب عجيب.

- لدي مال في البنك، قالت نانا بتوضيح مفهوم بسيط
لوضعها الاقتصادي المعقد. نظرت إليها مارياما بخوف كأن
حياتها قد تعلق بخيط رفيع. ندمت نانا على مفاتها مقدا
بتغير وضعها وخشيت أن تسيء فهم الموقف وتتصور أنها صارت
فقيرة وتفكر في أن تتركها مادامت أنها لن تستطيع إعالتها.
أخذتها بين ذراعيها وضمتها إلى صدرها.

- ثقي بي، قالت نانا وخافت من وعدها الجدي. سحبت
مارياما نفسها بعيدا.

وجهها كان مرتبكا.

- شعرتُ باضطراب في البيت، هناك شيء ما..

- ماذا تعنين بهذا؟

- أمي أخذتني إلى مفسر أحلام قبل سفري. لم تكن مرتاحة
لوجود روح في أحلامي.

- أنت لا تصدقين بمثل هذه الأشياء أليس كذلك؟ شعرت نانا
بخيبة أمل غريبة. نظرت مارياما بجمود أمامها متحاشية نانا.
سمعتا ذات الوقت بيا تناديهما من المطبخ في الأسفل.

- ما الذي تعملانه في الأعلى؟ تعاليا لنتناول كوبا من الشاي.
كانت بيا تبدو فرحة مرتخية. نهضت نانا ومسدت ثوبها. تأرجحت قليلا قبل أن تتوازن بكعبها العالي. خلعت مارياما حذاءها غير المريح ومشت حافية إلى الطابق الأسفل عبر السلم المنتصب.

كانت بيا في طريقها إلى الطابق الأرضي مع صينية الشاي. هناك الكثير من التفاصيل العملية التي يجب التحدث بشأنها، قالت وهي تمر سريعا. لم ترها نانا مشرقة هكذا من قبل. تمت أن يكون ذلك مؤشرا لتجاوزها المرض الذي لم يذكر لها كل من بن وبيا ماهيته تحديدا. جلس الأربعة حول الطاولة المربعة الثقيلة. بدت مارياما متضايقة تنظر إليها طوال الوقت.

- هل يضايقك شيء؟ سأل بن.

- إنها الرحلة لا شك، أسرعت نانا بالقول.

- هل نقوم بنزهة لتري مارياما المنطقة؟ اقترحت بيا. كانت تعيش في عالمها ولم تلاحظ أن مارياما لم تكن على مايرام.
نهضت مارياما من مكانها وانطلقت بسرعة إلى الطابق العلوي. بعد لحظة عادت بهدايا في أكياس شفافة سلمتها لكل منهم. قلادة من صدف المحار لـ «بيا»، وسوار من اللؤلؤ لنانا، وحرز بشكل قناع خشبي غير ملون لبن.

- من أمي، قالت باعتداد. تساءلت نانا في سرها عن أمر عدم ذكر الخالة روزي. هل يكون السبب هو خيبتها لعدم تمكنها من الاحتفاظ بمارياما فانسحبت من دورها كأم راعية لها.
لقد أسرّتها مارياما بأن العائلة بأجمعها تخشى غضب الخالة روزي ولعناتها.

- هذا حقاً لطف منك عزيزتي، قالت بيا وحضنتها. حضنها
بن أيضاً. نظرت مارياما باستفسار إلى نانا ما أكد لنانا وجود
تواصل خاص أعمق بينهما.

بينما كانت نانا سارحة مع أفكارها وهي تتحسس سوار اللؤلؤ
بين أصابعها كان بن وبيا قد أجلسا مارياما بينهما على الأريكة.
بيا قد ارتدت قلادة المحار حول رقبتها. أما نانا فلم تملك إلا أن
تعجب بجمالها الناعم الداكن.

- لنر سوارك نانا، جاء صوت بن ثانية. مدت نانا يدها لتناوله
السوار وهي تعجب لأمر الاهتمام الذي أثارته بضع هدايا سواح.
هذه البهجة البيتوتية حول الطاولة جعلتها فجأة غير مستقرة
ومنحتها الشعور بالبلادة. اجتاحتها شوق عنيف للعمل ولأن
تكون في استنفار لأربع وعشرين ساعة.

- هل يمكن لهذا القناع أن يرعب السحرة ويطردهم؟ أمسك
بن بالقناع أمام وجهه. هزت مارياما رأسها وبحثت عن كلمات
تقولها.

- إنها قصة قديمة، دافعت عن عدم رغبتها في الخوض في
السؤال عن ذلك المعتقد الأفريقي الغربي بالسحرة ولكنها
جاهدت في سبيل أن تكون ضيفة مؤدبة كما أمرتها أمها أن تكون.
لقد وجدت أمها أخيراً بعد ذلك الزمن الطويل عند الخالة روزي
الذي مرّ من دون تواصل عدا تحايا قليلة جداً ترسل بواسطة
أفراد العائلة ممن كانوا يزورون القرية. لقد أعادت أوروبا أمها
إليها وسرعان ما أخذتها منها ثانية.

- فكرة جيدة تلك التي اقترحتها بيا بأن ترى مارياما المنطقة،

لكي ترى أيضا محل سكني، بأنه قريب جدا منكما، قالت لتقطع
فحص بن المركز للقناع الخشبي الذي جاءت به أم مارياما من
القرية.

نهضت مارياما بارتياح واضح.

- ولنرافقك الطريق إلى بيتك نحن الثلاثة، قال بن سعيدا
لنانا التي كانت تتشوق إلى الذهاب لبيتها لتكون وحيدة. كانت
في حاجة إلى أن تفكر وتستوعب مارياما المفعمة بالحيوية بعد
فترة انتظار طويلة مملوءة بالمكالمات الهاتفية المحبطة، المال
الذي تنقل من يد إلى يد والخوف لئلا تحصل بالرغم من ذلك
على تأشيرة دخول ويفشل المشروع بأكمله. يجب أن تعتاد الآن
على حضور مارياما الذي أثار فيها مثل هجمة حمى. انفصلوا
مسرعين من دون أن ينظر بعضهم إلى بعض عند مدخل سكن
نانا في هنري ديكنز كورت التي تقع على مبعدة عشر دقائق من
سكن بن ويا.

عادت مارياما كأنها محشورة بين ضيفيها إلى البيت في
«بورتلاند رود». كانا ظلين أبيضين شاحبين على جنبها. أريكما
أن هناك كلا من نانا الراعية لها وبين ويا اللذين ستسكن
عندهما. سرعان ما تحسست ذلك البيت الأصفر الضيق الذي
يشع بالنظام والانسجام ولكن اللمعان في الوقت نفسه محاط
بحزن رمادي، هو ذاته الذي بداخلها والذي تريد ارتدائه كحجاب
غير مرئي يحميها من الأرواح الشريرة.

في اللحظة التي خطوا فيها داخل البيت طلبت منهما الإذن
لتأخذ حماما وانسحبت إلى غرفتها. أكدت لها بيا أن بإمكانها

فعل ذلك وطلبت منها أن تشعرهما إن احتاجت لشيء ما . سيتناولون الطعام في الساعة الثامنة ولكنها ستناديها إن نسيت الموعد . أغلقت مارياما الباب بحذر على نفسها في غرفتها لكي لا تحدث ضجة وأحضرت حقيبتها حيث التقطت منها طقم ملابس داخلية جديدا . إنها والددة مارياما لا شك، لا يمكن أن يكون غيرها من وضع سجادة صلاة في قاع الحقيبة من دون علمها . كان لونها أزرق مطرزة بألوان متفاوتة للأخضر مثل البحر في باكاو .

كانت الأم على علم بالتزام روزي الضعيف بالتعاليم الدينية وكانت تلومها بحضور مارياما على إهمالها في التربية لهذا الجانب . ولكن أسلوب الأم الخجول جعل روزي تسرع بالدفاع عن نفسها بهجوم عنيف يدور حول ظروفها العصبية كونها أما وحيدة لخمسة أطفال صغار ولرعاية ابنة يقتضي التكفل ليس فقط بمدرستها بل بكتبها المدرسية وملابس الزي الرسمي لها . نصحت والددة مارياما أختها بقولها إنها وأولادها ومن باب أولى بحاجة إلى حماية الله . كانت حينها تتحدث بصوت خفيض جدا حتى أن مارياما التي جلست إلى جانبها كانت بالكاد تسمع ما تقوله . كان ذلك في اليوم ما قبل السفر إلى أوروبا وهو يوم سفر الأم كذلك التي كان عليها أن تقطع طريقا طويلا من أجل عودتها إلى قريتها .

دخلت مارياما الحمام وفركت جسدها بالإسفنجة الصفراء الخشنة بنوع من الغضب حتى سخن جسدها وأضحى أحمر غامقا ثانياة مثل باذنجانة . ويرغم اغتسالها المستمر أولا في

حوض الاستحمام وبعدها تحت الدوش لم تشعر بأنها نظيفة.
لن ينمحي الجزء المتبقي إلا بالصلاة. جفّفت نفسها بالمنشفة
الكبيرة جيّدا وتسلّلت إلى الغرفة وارتدت تنورتها الطويلة وألقت
إشاريا خفيفا على رأسها. وضعت بعد ذلك سجادة الصلاة
بوجهة أمام النافذة تصورتها وجهة الكعبة في مكة. أغلقت الباب
كي لا تقتحم بيا الغرفة لتذكرها بموعد العشاء. كانت ممتنة
لضيافة مضيفيها ولكن قلبها كان عند نانا التي حققت حلمها
الذي حملته بداخلها منذ بدأت العمل على الشاطئ برعاية روزي
وقد كانت بالكاد تتمكن من الوقوف على قدميها تحت ثقل
صينية الفاكهة على رأسها.

شعرت ركبتها بخشونة سطح سجادة الصلاة عبر قماشة
تنورتها. كانت أفكار أمها منسوجة بتلك السجادة المربعة الصغيرة
التي رافقتها رحلتها الكبيرة التي تمنيتها من دون أدنى تفكير.
تمتت بأسماء «الله»، وصلّت من أعماقها بشكل لم تقم به
منذ كانت طفلة عندما كانت تصلي مع أمها عند شروق الشمس.
صلّت من أجل نقائها ومن أجل أن ينمحي العار الذي لحقها
بالمطار يوم الحساب الكبير وأن تعود كما كانت من قبل. تركت
نفسها لتصعد إلى أعلى سماء. كانت أخف وزنا من الطير، من
دون وزن مثل ملاك. مرّت عبر قصور لؤلئية من الغيم، نافورات
وأفواج من أسماك ملونة مبهرة. نظرت في عوالم بجمال غريب.
جبهتها تلامس السجادة فتغلّغت في الأبدية.

نهضت وطلّوت السجادة. شعرت بأنها نظفت وهي الأنظف،
«النظافة من الإيمان» كان من ضمن تعليم الطفولة لكنها كانت

تعلم أيضا أن ذلك لن يدوم إلا لحين موعد صلاتها اللاحق وعليها لذلك ألا تفوت فريضته لتحافظ على نظافتها. تمنى لو كانت أمها إلى جانبها لتستمتع بنصحها الروحي الذي لم تكن بحاجة إليه في سيرا كوندا، حيث كلمات الخالة روزي كانت أوامر فاكتفت هي بالصلاة بين فترة وأخرى عندما تتذكر ذلك. ولكن روزي أوفت بوعدها وأرسلتها إلى المدرسة معظم شهور السنة. كانت مارياما محظوظة مقارنة بالأطفال الآخرين. الخير كان مكتوبا لها. تطلعت إلى اليوم الذي تصير فيه نجمة مضيئة عندما يحين الوقت.

لم تكن نانا قد ألفت شقتها الصغيرة في الشمال من هنري ديكنز كورت. وقت الفراغ الذي أجبرت عليه والذي لم تعتده قد ملأ الفضاءات بفراغ محرض على صداد الشقيقة الذي اشتد جراء الضوء الحاد والحركة السريعة. كانت تسير بهدوء في شبه ظلمة مرتدية نظارتها السوداء عندما تشاهد التلفزيون أو تخرج نهارا. كان في مجيء مارياما ضغطا إضافيا لأعصابها.

واضطرت في الأيام التي لحقتها أن تحتجب تماما عن العالم من حولها.

لم تجلب معها سوى بضعة أشياء قليلة شخصية إلى شقتها. ألبوم صور لفترة الدراسة الذي خلد حفلات القسم الداخلي وكل العلاقات الفاشلة لتلك الفترة التي كان العالم فيها مفتوحا. تأثرت برؤيتها لكل ذلك الشباب الذي كانت جزءا منه قبل خمس وعشرين سنة مضت. على سدة النافذة وضعت بومة من البورسلين الملكي قام أبوها بإهدائها لها ليذكرها باستخدام العقل. لقد تبعت نصحه الهادئ والمسافة كبرت بينها وبين

الوالدين كثيرا حتى اختفيا عن ناظريها. عندما نفذ الخزي بسبب خيانتهم كانا قد تلاشيا ببساطة معه. لم يمرا ببالها قط. ليس لهما وجود في وعيها، ولا تنوي حتى أو تمنى ذلك مستقبلا. ولكن في هذه الشقة الصغيرة المؤثثة المعتمة الضد المعاكس لبیت الطفولة المقموع بداخلها بفضائه الواسع الكبير بدأ وميض من الذكريات الغائمة يتبعها مثل رجح في فيلم. نثار من أحداث، وجوه تظهر فجأة على السطح، أصوات صعدت من قاع البحر محمولة من قبل ذاكرة الفريق المحررة.

العمل الذي انغمست فيه في «روار» جعل ذكريات الشباب والصدمات القديمة تختفي داخل عتمة الكبت الذي كانت ترى أنه المكان الذي تعود إليه. ولكن الأمور لم تسر كما خططت هي والإدارة في «روار» في «أمار بوليفارد» لها. لقد توقعت أن تندمج هي من دون صعوبات مع فريق العمل في لندن والذي كانت تتعاون معه بانتظام عبر سنوات في «روار» العالمية. ولكن الباب كان قد صفق بوجهها وأبقاها خارجا حتى إشعار آخر. كان على فرع «روار- لندن» أن يختزل طاقم عمله بنسبة عشرة بالمائة. مع ذلك فقد حصلت على اتفاق مع مدير مكتب التوظيف للموارد البشرية بهذا الشأن حالما يتضح لهم مسار الأزمة المالية كما يأملون.

جلست نانا في المطبخ تستمع إلى موسيقى فاغنر في جهازها «الآي بود» بينما كانت تنتظر أن يمر الوقت حتى بلوغ الساعة الرابعة لتتصل بجاكوب. لقد أرسلت له رسالة قصيرة تطلب فيها النجدة منه لتعجل من موعد الجلسة معه عبر الهاتف. كانت

بحاجة إلى سيطرة لتدبر أمورها في الفترة الأولى مع مارياما .
لم تستطع التعامل مع مشاعرها القوية تجاهها . لم تفهم من
أين جاءت وماذا تحمل في ثناياها سوى أن تلك المشاعر مسحت
هانس وافتقادها للاستقرار النفسي الذي أمدتها العلاقة به .
مدرّب الحياة التابع للشركة رشّح لها جاكوب الذي دفعت أتعابه
من جيبها . كانت «روار» كريمة في منحها ثماني جلسات لمرتين
استنفدتها منذ زمن . نانا قبلت العرض كإثبات على تقدير
الشركة لجهودها ولكنها لم تعد واثقة بشأنه فيما لو كان هدية
لرجوعها أم لوداعها .

اعتاد جاكوب أن يجيب في الحال ولكن هاتفه مغلق . أقلقها
ذلك . غير طبيعي . بقيت متهيئة والهاتف في يدها ولم تستطع
التركيز على الكتاب الموضوع أمامها . كانت قد عثرت على «رسائل
سينيكا» مصادفة في محل لبيع الكتب القديمة في هولاند بارك
أفنيو حول مفهوم الوقت وموت الإنسان . رأت في ذلك إنذارا
لوصولها مرحلة جديدة في حياتها . وكان عليها أن تقرأه ببطء ،
كلمة كلمة لتفهم المعنى . ابتعدت كثيرا عن دراستها الأساسية
وهي الفلسفة . في المقابل فقد نجحت في تحقيق منصب وظيفي
عال وخبرة جعلتها على اتصال مع مراكز المال في الكرة الأرضية
كما منحتها بالإضافة إلى ذلك حياة مريحة وريحا ماديا وفيرا .
ذلك كان يعني لها أكثر بكثير من المواد الفلسفية أجمع . ولكن
خيبتها من فرع «روار- لندن» جعلها تفتقد غذاء روحيا .

اتصل جاكوب أخيرا وخلصها من أفكارها المزعجة .

- آسف آسف، ذهبت مع ابني إلى الطوارئ بعد سقوطه المؤلم

من دراجته، ولكن كل شيء على ما يرام الآن. كاد يصيح في أذنها.

- أين أنت الآن؟ غير جاكوب نبذة صوته.

- وصلت مارياما لندن.

- صحيح؟

- لا أحتمل ذلك.

- لماذا؟

- لا أجد نفسي في كل هذا.

- دعينا نبدأ من هناك. لقد تحققت أمنيتك الكبيرة. لم يبد

جاكوب حاضرا قريبا تماما كالمعتاد.

- يبدو أن علينا أن نكون حذرين بخصوص ما نتمنى، تمتت نانا.

- لأجل مَنْ تمنيت أن تجلبي مارياما إلى لندن؟

- لم أطق فكرة هلاكها، من دون دراسة، من دون عمل، قالت

بتردد.

- هل كان احتمالا فعليا أم هو مجرد تصورك بأنها لن تتدبر

أمرها من دون تدخلك؟

- لم يكن وهما، قالت نانا بغضب.

- هل نتحدث عن موضوع إغاثة؟

- لا، هذا أمر آخر.

- كيف آخر؟

- شخصي أكثر.

- كيف شخصي؟

- لا أعلم شيئا غير أن كلا منا في محل ما مرتبط بالآخر

جدا.

- كيف هي علاقتك مع أصدقائك؟
- بن وبيا فيهما كل ما لستُ عليه.
- هل بإمكانك أن تعطيني أمثلة حول ما هما عليه وليس أنت؟
- إنهما شخصان منظمَان مائة بالمائة في كل ما يقومَان به.
- ألسْتَ كذلك؟
- مارياما أفضل حالا معهما.
- إذا كان قرارك جلبها لتسكن معهما هو الصواب، علق جاكوب بجفاف.
- أجل ربما ولكن ذلك لا يجعل الأمور أسهل، قالت بانزعاج من استنتاجه السريع.
- أسهل لمن؟
- لنا جميعا.
- ما هو الأمر الذي ليس سهلا بالنسبة إلى مارياما؟
- إنها تفضّل أن تسكن عندي.
- يجب أن يكون ذلك في موضع اختبار. وما هو غير السهل لبن وبيا؟ تابع جاكوب.
- إني عبء ثقيل زائد عليهما. نهضت نانا من مكانها، مشّت إلى النافذة ونظرت إلى الضياء حيث بضعة أولاد يلعبون كرة قدم بعلبة بيرة فارغة.
- ولكنه مشروعك أساسا، عارضها جاكوب.
- لم تجبه نانا.
- وما هو الذي ليس سهلا عليك؟

- أن أدور هنا من دون أن أعمل شيئاً. جلست ثانية.
- كم من الوقت مر منذ مجيئك لندن؟
- ستة أسابيع.
- إنها ليست فترة طويلة، مثل عطلة صيفية عادية من معلوماتي أنك لم تقضيها في السنوات الأخيرة.
- أنا غير مهياة لشيء تماماً.
- مارياما بحاجة إليك.
- ولكنها أفضل حالا معهما. كررت نانا.
- لا تدعي خوفك يسيطر عليك.
- أي خوف؟
- خوفك من مشاعرك لمارياما التي وفوق هذا قد اخترت أن تكون أول أولوياتك.
- ربما كان ذلك أيضا قرارا خاطئا.
- لا يندم الإنسان لحصوله على طفل.
- أنا لا أهرب من مسؤوليتي، قالت نانا بغضب.
- لنكتف بهذا اليوم، ختم جاكوب حديثه.
- شكرا لوقتك معي، لا أعرف ما بوسعي عمله من دونك.
- يومك سعيد، اعتن بنفسك.
- قال وأسرع للحاق بابنه المصاب، فكرت نانا مع نفسها ثم اتصلت بالحال بين وينا. كانت مارياما من تناول السماعة.
- أين غبت؟ همست لها. صوتها الناعم المعاتب وخز ضمير نانا لأنانيتها السلبية.
- سأتي إليك في الحال، أسرع بالقول.

- لا، أنا أريد أن آتيك، أصرت مارياما.
- هل تدلين الطريق وحدك؟
- لقد مشيته عدة مرات ووقفت أمام بيتك.
- ماذا تريدان؟
- لم أجد اسمك على الباب.
- هل يمكنني التحدث مع بن وبيبا؟
- إنهما يعملان.
- بلغيهما التحية عني وقولي لهما إنك ستزوريني، وإن بإمكانهما المرور بنا بعد انتهائهما من العمل ليصحبانك، اقترحت نانا عليها. إن كان هناك من شيء تكن له كل الاحترام فهو العمل.
- سأتي الآن، قالت مارياما باندفاع. جهدت نانا من أجل ألا تأتي بنصائح من قبيل أن عليها أن تنتبه لتدل الطريق وأن تنتبه إلى إشارات المرور. كان من الصعب عليها أن تراها من أهل المدينة ممن اعتاد على السير في فوضى المرور في سيرا كوندا.
- وقفت نانا عند المدخل لتستقبل مارياما التي صعدت السلم ببطء وبإيقاع يكاد يكون للتأمل وهي تقضم تفاحتها.
- كيف حالك؟ سألت نانا.
- شغل البيت كثير مثلما كان عند الخالة روزي. كانت مارياما ترتدي معطفا قطنيا أزرق اللون مع بنطلون واسع من الصوف أخفى قامتها النحيلة، من ثياب بيا القديمة كما خمنت نانا.
- هل دعوت بن وبيبا لتناول الشاي معنا؟ قالت لها. رفعت مارياما كتفها وهزت رأسها إيجابا في الوقت نفسه.

بينما كانت نانا تعدّ الشاي قامت مارياما بمسح سريع للشقة. لم تكن نانا تميل إلى أن يطلع أحد على خصوصياتها وأن يستعرض فوضاها في الأدراج وخلف أبواب الخزانات. كانت الفوضى تحت السرير كذلك حيث كومة كبيرة من ثياب وأحذية فقدت قيمتها. نادى نانا على مارياما لتأتي إلى الصالة. لم تكن متهيئة لاستقبال ضيوف ولم يكن لديها غير قطع بسكويت جاف للشاي. جلست مارياما تضع مثل سيدة ساقا على ساق بطريقة تذكّر بـ «بيا» وراحت تنظر إلى ما حولها.

- هل هذه أشياءك؟ سألت مارياما بشك واستدارت إلى نانا.
- لقد قمت بتأجير الشقة مؤثثة، قالت نانا. كانت خيبة مارياما واضحة. صبت نانا الشاي مستمتعة بتقديمه لها.
- هل اتصلت بأهلك لتطمئن على وصولك؟ قالت مستغربة فقد توقعت مراعاة وتفكيراً منها لم تكن هي نفسها عليه.
- لقد أخبرتك أنني لا أستطيع الاتصال بها. أجابت بنفاد صبر.

- ماذا عن الخالة روزي إذن؟

- إنها بعيدة. لقد سافرت.

- أين؟

- عادت إلى القرية، إلى زوجها.

- بإمكانك الاتصال بالخالة روزي من هاتفك، قالت نانا وهي

تحاول أن تجمع أفكارها للخبر الذي سمعته.

- أريد أولاً الاتصال بعمي هنا.

- ولم لم تتصلي به عند بن وبيبا؟

- أردتُ سؤالك أولاً، همست مارياما ونظرت إلى ما حولها في الصلاة كأن للحيطان آذانا.

- كوني عاقلة مارياما. بن ويا هما مضيفاك هنا في لندن مقابل أن تقومي ببعض الأعمال المنزلية.
- شغل كثير في البيت، اعترضت مارياما.
- ماذا تفعلين؟

- أستيقظ قبلهما في الصباح كي لا يكون هناك انتظار بشأن الحمام. أعدّ الفطور لنا نحن الثلاثة. يحصل بن على صينية في الطابق العلوي. هو ليس ممن يحبون الفطور. بدا واضحاً أن مارياما لم تكن مرتاحة بشأن نقل تقرير عن عملها.

- يبدأ العمل في الثامنة والنصف. أنا أبدأ بالتنظيف وعندما أنتهي أقوم أحياناً بالتسوق. بعدها يكون الوقت لي حتى السادسة، حيث نتساعد في إعداد العشاء هكذا بشكل عائلي. سردت مارياما برنامج عملها عن ظهر قلب.

- سترتاحين عند بن ويا، بمجرد أن تعتادي وجودك بينهما.
- ولكن أنتِ الراعية لي، قالتها دفعة واحدة حزينة وقانطة.
- بإمكانك المجيء إليّ عندما تنتهين من عملك. لم تصدق نانا أنه لم يكن حلماً أن تجلس في زاوية من الأريكة ومارياما إلى جانبها تتجاذبان الحديث كأنهما من عائلة واحدة.

- شكراً، شكراً نانا، قالت مارياما بانزعاج وسحبت نفسها بعيداً عن نانا.

- ما بك؟
- أخذونا إلى الخارج هكذا... وأدخلونا في غرفة باردة، قالت

مارياما غاضبة. نسيت نانا كل ما مرّت به مارياما في مطار
(كاتويك)، ولكنها حدثت على الفور أن مارياما تتحدث عن ذلك.
- كان عليّ أن أقف وذراعاي جانبا... حتى ساقّي. تقرفت في
مكانها على الأريكة.

- في كل مكان.. تحت الذراعين.. أشارت بخجل إلى بعض
المواضع في جسدها.
- و.. همست ولم تستطع أن تلمظ ما حدث، الانتهاك،
بشفتيها.

أصاب نانا نوع من شعور بالذنب لا يمكن تحديده ولم تعرف
ما يتعين عليها قوله.
- شعرتُ بدوار.. غامت الدنيا في وجهي.. سمحوا لي بالجلوس
على مصطبة.

- ما الذي كانوا يبحثون عنه؟ حاولت نانا أن تظل هادئة معها.
- مخدرات، قالتها من دون اكتراث كأنه كان شيئا معروفا
للكل. لم يكن لديها فكرة عما تبحث عنه الشرطة إلا بعد أن
قاوم أحد المسافرين الشرطة وأخذ يصرخ اللعنة ليس كل من
أتى من غرب أفريقيا يعمل في المخدرات وبطنه محشوة بها من
بوليفيا. قاموا بتهديته وإبعاده عن المكان سريعا وقد أزعجها ما
سيكون عليه مصيرها بعد ذلك.

- يا للحظ أنك نجوت بارتعابك، حاولت نانا أن تواسيها.
- أعادوا جوازي إليّ.. ورافقوني في الخروج إلى حزام الحقائق.
- إنها القوانين بالتأكيد، يجب أن تعلمي أن عليهم أن يوقفوا
المخدرات من الدخول إلى أوروبا، قالت نانا كأنها تفكر مع نفسها

بينما كانت تراجع امر تقديم شكوى.

- أنا بهذا لا أحب القوانين، قالت ذلك ثانية بصوت غاضب متظلم.

- يؤسفني أنكِ حصلت على هكذا استقبال مزعج، ألا تحاولين نسيان ذلك؟

- ليس بيدي.

- لا أريد أن يحدث لك شيء سيئ، أكدت لها نانا لتجعلها تفهم أنها تشعر بما مرت به.

- لماذا شيء سيئ؟

- لأنكِ شابة جميلة، قالت لها لكي لا تفرعها من دون داع.

- لا تقلقي نانا أنا لست جميلة بالمرّة، قالت وربّدت على ذراع نانا.

- في عيني أنتِ أجمل زهرة في الحديقة وأحلى شجرة في الغابة. عجبت نانا للصور التي جاءتها من وحي قصص رسوم الأطفال.

- ما أجمل هذا منك. لم تعرف مارياما كيف تتجاوب مع إقرار الحب الأمومي لنانا الذي كان بعيدا جدا عن طريقة الخالة روزي المباشرة.

- لن أخذلك أبدا. قالت لها نانا وحضنتها.

- شكرا، شكرا نانا، قالت مارياما وتركت لنانا أن تحضنها. هذه الـ «شكرا شكرا» الأبدية بدت فجأة كأنها عائق لا يقهر بينهما.

- أنا أتمنى أن تراني أُمي في بيت بن ويا، أتمنى أن ترى أن كل هذا الغنى موجود في الواقع، قالت بسعادة فجأة.

- بن ويا ليا غنيين. قاطعتها نانا.
- ولكن البيت، اللاند روفر، وكل الأثاث والأشياء؟ سألت مارياما.
- إنه بيت عادي. شكت نانا للحظة. كانت تجد نفسها من ذوي الدخل الأعلى، ربما كان كل من بن ويا في ذات المستوى. لم تفكر في ذلك من قبل. المال كان شيئاً تتعامل معه بتخصص لا غير.
- أنا لا أحب النوم وحدي. تابعت مارياما.
- ولكن لديك غرفة جميلة.
- ولكن كل هذه المساحة لي فقط وهذا البيت الكبير لثلاثة أشخاص فقط. كأن ساكنيه ماتوا، ويا وبين الباقيان في حداد. ارتجفت مارياما.
- ولكن تذكرني أنه مكان عملهما أيضاً، دافعت نانا عن سكن صديقيها.
- لم أرفي حياتي أحدا يعمل بالقدر الذي يعملان عليه هذان الاثنان. إنهما يعملان طوال الوقت، كذلك ليلا. ليس هناك من ضيوف، فقط من يأتي للاجتماع خلف باب المكتب المسدود. كانت مارياما سريعة في حديثها حتى أن الكلمات تداخلت بعضها في بعض، واستمرت بإخبار نانا أن بيا وبين لم يراقبا عملها، إن كانت تقوم به على الوجه الأكمل أم لا. تطلق الخالة روزي على هؤلاء «المتساهلين» مثل أمها.
- لا يتمتع المتساهلون باحترام من المحيط هناك. وبالتالي احترام مارياما لأنها لم تكن مجرد سائحة على الشاطئ بل راعيها التي تمكنت من تحقيق أشياء عظيمة.

- هل نتفق على موعد لنذهب للتسوق في المدينة ولنشتري لك ملابس؟ قالت نانا نشوى بفعل تصريح مارياما الذي ينطوي على ثقة بها.

- أنا أفقدكِ نانا، أجابت مارياما بألية. وهي لا تنظر بشكل مباشر إليها.

- هناك امرأة تستجدي عند عتبة «تيسكو»، قالتها من دون مبالاة.

- لم أتنبه إلى ذلك.

- أنا أعطيتها النقود الصغيرة.

- عليك الابتعاد عن هؤلاء، نصحتها نانا. بدا العصيان على وجه مارياما.

- سأرافقك إلى البيت. لا أعتقد أن بيا وبين سيأتيان. نهضت نانا وهي تنظر إلى ساعتها.

- إنهما يعملان كثيرا جدا، كررت مارياما بقلق. بن وبيا كانا نسخة مطابقة للسيد والسيدة براون في أول كتاب لها لتعليم الإنجليزية. كانا يتحدثان الإنجليزية الراقية وينتميان إلى السلالة البريطانية الرفيعة نفسها التي كانت وفق الكتاب تعشق بيوتها وحدائقها التي تفوح بالورد الجوري وتقول «بيتي هو قلعتي».

كانت نانا في طريقها إلى السوبر ماركت «تيسكو» في هولاند بارك أفنيو. كانت تحب أن تخرج وتتسوق بملابسها الرياضية المستهلكة مكتفية بمعطف «البيربيري» فوقها. وقع بصرها في الحال على المرآة النحيلة الشقراء عند المدخل بشحوبها المضيء

في عتمة بعد الظهر. كانت ترتجف بمعطف من النايلون ترتدي قفازين وتضع سيجارتها في فمها. الساحة بين أشجار الدلب العالية وواجهات البيوت بالمحلات والمقاهي بدت مثل شرفة زجاجية مغلقة. كانت المرآة راكسة في مكانها متقرصة. شعرها الأشعث يشبه عش طيور. وفجأة تستدير برأسها إلى الخلف لتقول شيئاً ما. مثل خداع الصورة رأت نانا مارياما موضوعة في الصورة بشكل مائل من خلف المرأة على المنحدر الإسمنتي الضيق لدخل السوبر ماركت.

وقفت نانا مولية ظهرها تنظر في نافذة محل النباتات الأكزوتكية وأشجار بونساي. لم تستطع تجنب سماع نثار من حديثهما.

- هل أنت غبية أم ماذا؟ قالت المرآة لمارياما عندما طلبت بأدب أن تكرر ما قالته قبل قليل.

- ذلك على حساب كرامتي أن أكرر نفسي، قالت بامتعاض وقد بدت مريضة. لم تعر مارياما لذلك اهتماماً وظلت تنتظر. طلبت المرآة منها أن تنصرف فهي لا ترغب في التحدث مع من لا يفهمون اللغة.

- الإنجليزية هي سيدة العالم، من دونها فأنت لا تساوين شيئاً، ارتشفت قدح القهوة ذا الغطاء. بقيت مارياما جالسة في مكانها في هدوء تضع كيس التسوق الشبكي في حضانها تتفرج على الناس المارين. دعته المرآة لرشفة من قهوتها الباردة وكما يبدو فقد سامحتها.

رفضت مارياما عرضها ونهضت واختفت في تيسكو.

- على مهل بلا عجلة وإجهاد، صاحت المراه إثرها . عادت وحيدة مع قدحها الفارغ من القهوة واللوحه من الورق المقوى الباعثة على البكاء «شابة وجائعة» والتي من المفترض أن تخزّ ضمير زبائن تيسكو المهندمين مع أكياس تسوقهم الملأى. لا تظن نانا أنها تبدو شابة إلى الحد الذي يجعلها تجاهر بذلك بشكل مباشر. ظلت واقفة بانتظار أن تخرج مارياما مع كيس تسوقها. انضم إلى المراه خلال ذلك رجل ذو كرش كبير من الكاويوي وقد بدت المراه أصغر بكثير في ظله. كان منظرهما يكفي ليكون مصدر استفزاز لنانا. لقد حاول كل منهم هي وين وبيا الكثير من أجل تحذير مارياما بشأن خطورة لندن بالنسبة إلى شابة مثلها ولكنها لم تكن كما يبدو واعية لجدية التحذيرات ما دام أنها اعتادت الاختلاط مع هذا النوع من الحثالة.

خرجت مارياما مسرعة من تيسكو مع أشياء قليلة في كيسها الشبكي. ارتاحت نانا وهي تراها تعبر المراه مع رفيقها مسرعة ومكتفية بتلوiche متحفظة في طريقها.

بعد أن اختفت في شارع بورتلاند اقتربت نانا من تيسكو ودخلت مارة عبر الزوجين التعيسين اللذين جلسا يتوسطهما كوب مشترك للاستجداء ويرشف كل من قنينته. كانت تود لو تركل القدح البلاستيكي المشقق الذي يحوي حفنة من الفلوس في مجرى مياه الأمطار.

بعد أن باشرت مارياما في كلية Southwark حدث تغيير لافت عليها. كان يزداد وضوحا أكثر وأكثر في كل زيارة أسبوعية. لم تكن نانا راضية عن نفسها وعن افتقارها إلى القدرة في

تعاملها مع مارياما التي ازداد اعتمادها على نفسها واستقلالها. لم تستطع معالجة الصراع العاطفي، محاولة التنقل بين اللين والشدة ولكنها لم تجد نفسها في أي منهما. كانت مجرد شكل اتخذته خارج ثيابها، استعارت ريشا من المبالغات التربوية. لم تكن لديها خبرة لتغرف منها في حياتها. لقد أدارت ظهرها لوالديها عندما كانت في عمر مارياما.

في كل مرة توشك مارياما على مغادرة البيت يحدث خلاف. كانت تصر على الذهاب إلى عائلة عمها وحيدة في «أبتون بارك» ولم تكن تتزحزح عن قرارها. حذرتها نانا من خطورة التحرك في شوارع لندن في المساء مع العنف المتصاعد والطعن بالسكين الذي يستهدف في الأغلب الطلاب من الشباب الأجانب.

- مضى زمن كاف على وجودي في لندن ولست بحاجة إلى من يتابعني مثل طفل صغير، ردت مارياما وهي تلوح بجوازها وتاريخ مولدها، وترجو نانا أن تحسب كم بلغت من العمر.

- شهادة ميلاد تم استخراجها من قبل الرجل الكبير بالطلب، يمكنهم استخراج ما شئت من الوثائق الرسمية، الشهادة ليست إثباتا لشيء، قالت نانا منفعة وقد كتمت أنها هي التي دفعت بنفسها المبلغ المطلوب للأوراق.

- شهادة الميلاد مكنتني من الحصول على جواز في مركز الشرطة في كوتو ولذا فقد تمكنت من التقدم بطلب الحصول على فيزا إلى المملكة المتحدة، قالت مارياما بانتصار.

- عليك إذن على الأقل أن تستقلي تاكسي، أصرت نانا.

- لندن ليست كما تتصورين أنت وين ويا. لم أقابل غير ناس

مريحين طبيين، عارضت مارياما بانزعاج للقلق المستديم لدى مضيفتها خشية ألا تتدبر أمورها في لندن لما كانت بحاجة أكبر إلى نصح وإرشاد بخصوص أسئلة أكثر جدية.

- هل تقصدين أناسا مثل هؤلاء الذين تخالطينهم عند تيسكو، جاءت نانا بتعليقها اللاذع.

- إنهما صديقاى بيردي وخطيبها فيانس.

- لا أحب مخالطتك لهذه الأنواع.

- أنا أحبهما لأنهما دائما في ذات المكان عندما أذهب إلى

تيسكو. إنهما يحكيان لي الكثير، أوضحت مارياما.

- إنهم رفاق سوء لك.

- إذن أنا رفيقة سوء أيضا. نهضت مارياما واندفعت نحو

المدخل وركضت نانا خلفها لتدس في يدها بعض الأوراق النقدية.

- على الأقل تستقلين تاكسي، طالبتها نانا. استدارت مارياما

غاضبة نحوها. لقد قلّ تقبلها لكرمها.

- هذا تبذير. الباصات كثيرة في لندن. التاكسي شيء جيد

هناك في أفريقيا حيث يضطر الناس إلى المشي لمسافات طويلة

على أقدامهم، أخبرت نانا. لقد بدأت التحدث عن أفريقيا بدلا

من غامبيا.

تصورت نانا أنها كانت تحت تأثير زملائها في الدراسة، من

النوع المسعور من بين الطلبة الأكثر طموحا ولباقة. لقد تصورت

الكثير الذي يعوز واقع أن مارياما لم تكن كثيرة الكلام بشأن

حياتها الجامعية. ومثلما كانت نانا مرعوبة عندما افترقتا عند

شاطئ الفندق لفكرة ما يمكن أن يحصل لمارياما في هذا العالم

المغلق المنيع الذي انسحبت إليه تخشى أن مارياما توشك على خلق حياة مستقلة في لندن تكون مغلقة في وجهها.

كانت مارياما مشغولة بمغادرتها، لم يكن لديها الوقت لتحية نانا إلى العم ولعلبة الشيكولاتة إلى العائلة. لقد اتفقتا، وأن نانا على أية حال اتفقت معها على أن تكون في البيت في الساعة الثانية عشرة.

- أولاد عمي سينتظرونني في محطة ليفربول ستريت ويرافقونني في طريق العودة، أكدت لها مارياما. لم تستطع أن تستوعب تركيز نانا على الساعة والتوقيات.

حالما خرجت من الباب أصاب نانا عدم استقرار ولم تستطع أن تهدأ في مكان. حرصت على أن يكون الهاتف المحمول أمام ناظريها إن اتصلت مارياما وطلبت مساعدة، نقودا أو شيئاً آخر. لو كان في مقدورها أن تفعل لها ولو شيئاً صغيراً لكان من شأن ذلك أن يروح عنها. جلست في مكانها من دون عمل على الأريكة تنتقل بين المسلسلات الأمريكية عندما رنت السيمفونية التاسعة لبيتهوفن وأصابتها مثل نغمات خلاص. لم تجرؤ أن تصدق أنها مارياما. من خلفها انطلقت ضحكات وأصوات عالية، من الواضح أنها أجواء حفل.

- سأبقى هنا عند عمي الليلة. إنه لا يقبل أن أعود إلى البيت متأخرة. إنه يبلغك التحية ويشكرك على الهدية وويخني لأنني لم أصحبك معي. عذرا نانا، يقول في المرة القادمة ستزورينه برفقتي. إنهم يبلغونك التحية جميعاً. أراك غدا.

كادت نانا تركع. الشكريعود إلى هذه العائلة التي خشيت أن

تنحيها جانبا لكنها كما يبدو رحبت بها من دون رؤيتها والتي أعادت مارياما ثانية لكي تكون ناعمة، البنت الواثقة التي قابلتها عند الشاطئ أسفل فندق جولدن باي. شريت نانا وثملت فقط لأنها كانت ممتنة.

صارت إقامة مارياما في الويك أند أقصر وأقصر. اختزلت تواصلهما إلى محادثات عبر الموبايل ولقاءات مقهى سريعة. لم تعرف نانا ما يجب أن تقوله لها لتجعلها تنفتح معها في الحديث. أي سؤال عليها توجيها، أي عرض مغر واقتراح يمكن أن تأتي به لتلين الموقف! كلمات مارياما المقتضبة جعلتها غير واثقة بنفسها وأمدّها بشعور أنها غير صالحة للمهمة. قصدت بن وبيا لتشتكي من محنتها ولكنهما لم يملكا ذات الشعور ولم يفهماها. إن مارياما منغمسة تماما في دراستها قلبا وروحا وسرعان ما صار لديها أصدقاء، قالوا لها وأكدت لها أنها هي ربما التي لديها مشكلة. هل أن زوجين محل ثقة أكثر من أعزب؟ هل أن الأعزب بحد ذاته تهديد متنقل ضد القانون والنظام؟ هل مازال الناس يخلطون حياة الأعزب بالوحدة المعروفة في الماضي التي تنجب وحوشا.

- إنها مؤدبة، تربت تربية جيدة، لا تأخذ شيئا من الثلاجة إن لم تستأذن أولا، علقت بيا.

- إنها حزينة وليست مرحلة. صبر بن له حدوده. كان قد كبر مع خدم في البيت.

- لديها حنين لوطنها، ستتغلب عليه، دافعت بيا عنها.

- قد تكون لا تحبنا إطلاقا، قال بن بسخرية وانسحب إلى

مكتبه.

- أخذنا نتعلق بهذه الطفلة، واصلت بيا الحديث. يداها الجميلتان مضمومتان في حضنها.
- بالتأكيد، قالت نانا مماشية لها. لم تحب ما يذكرها بأن مارياما لا تخصها وحدها.
- جميل أن تكون لنا عائلة من جديد. تابعت بيا كأنها قرأت مشاعر نانا المتضادة.
- أجل، قالت نانا غير فاهمة ما قصدته. تحركت بيا في مكانها على الأريكة بقلق وقد بدت فجأة متألّمة.
- بن مشغول للغاية حالياً. علينا بأسرع وقت اتخاذ قرار بشأن التقليل من المشاريع أو توظيف أحد مستشارينا الذين يعملون لدينا بشكل مؤقت.
- ألا يمكنني المساعدة؟ اقترحت نانا.
- لقد قمت بمساعدتنا بإعادة توزيع الأصول المالية للشركة. ومن دونك كانت الشركة ستفلس، قالت بيا مباشرة.
- لا عليك إلا أن تطلبي إن كنت أستطيع المساعدة.
- ولكن هل لديك وقت لعملك؟
- لقد وضع على الاحتياط لإشعار مؤجل. من الجانب الآخر فذلك يمنحني وقتاً أكثر لمارياما. وهذا مهم بالنسبة إليّ حالياً، ربما الأهم، قالت نانا وهي تشك في نظرتها هذه إلى وضعها. لو كانت تعرف قبل بضع سنوات ما كان ينتظرها لكانت قد اعتبرت حياتها الآن بمنزلة نهاية العالم.
- جاءت مارياما في زيارة لم تعلن عنها. كانت لها مفاتيحها فوقفت فجأة في الصالون من دون أن تسمعها نانا.

- أية مفاجأة جميلة. أطفأت نانا التلفزيون ونهضت من مكانها على الأريكة. لم تكن متهيئة لضيوف وشعرت بأنها فوجئت على حين غفلة في سريرها.

- لقد حصلت على عمل في السوبر ماركت «سينزيري» في شارع «جيرنج كروس». كان وجه مارياما يشرق بالرضا.

- أرجو فقط ألا تهملني دراستك، نصحتها نانا وهي تراها تتجه إلى منحدر. على الأخص بعد الذي رآته عند تيسكو ودفاع مارياما عما أسمتهم أصدقاءها.

- أنا بحاجة إلى النقود لإرسالها إلى أهلي. إنها عشرون ساعة في الأسبوع فقط، أسرع لكى تضيف بحماس بعد حصولها على موافقة نانا.

- عليهم أن يفهموا أن عليكِ الاهتمام بدراستكِ أولاً. كانت نانا قد تعبت من تدخل العائلة. وكان على مارياما أن توضح لها للمرة الألف أن من واجبها تسديد المبلغ لعائلتها للحياة والرعاية التي حصلت عليها والتي وضعتها منذ الولادة في دين بلا قعر.

- وما رأي بن ويا في عملك؟ رأت نانا فجأة أن ذوق مارياما في ثيابها يشبه ذوق بيا.

- إنهما لا يعلمان بعد بذلك. نظرت مارياما بنفور إلى فوضى المطبخ وعرضت عليها المساعدة. تغاضت نانا عن سماع اللوم غير المباشر وتركت لها الحرية للقيام بما تشاء.

حدثتها مارياما خلال ذلك عن عملها بفخر كمحاسبة. أنها تحب كل الوجوه التي تعبرها مع بطاقتهم التخفيضية. كل

الزبائن كانوا متقدمين في السن وملوني البشرة. ليس هناك من تمييز ما دام لديهم القدرة على الدفع. هذا ما شدد عليه رئيس الموظفين للمتعيينين الجدد خلال أسبوعين للاختبار. ولكنها تنزعج كثيرا للكنة القادمين من أوروبا الشرقية، الذين لا يخرج من أفواههم غير مزيج من كلام غير مفهوم، اشتكت لها. أنها تفضل الزبائن الدائمين الذين عرفت وجوههم بمرور الوقت.

- هل باشرتِ العمل منذ فترة؟ قالت نانا وهي تشعر بأنها خارج اللعبة تماما.

- سأنهاي تقريبا فترة الاختبار ولكني سأحصل على العمل، قالت مارياما بثقة. كانت قد انتهت من وضع الأكواب والصحون المتسخة في غسالة الصحون وعليها المغادرة.

قبل أن تلحق نانا لتسألها عن وجهتها رن هاتفها. أطلقت مارياما تنهيدة وهي تنظر إلى شاشته واختفت في غرفة النوم. تحدثت بصوتها العالي الحاد الذي تخلل الأبواب والجدران.

- لا، لم أستلم راتبي بعد. لا أستطيع. سقف جديد؟ ولكن...، مومو يعيش في لندن منذ سنين. لديه شركته الخاصة. سيارة جديدة تماما في السنة المقبلة؟ أجل، إنه ولد طيب. اسمعي خالة روزي أنا أفعل ما بوسعي. سأرسل لك هدية بأقرب وقت.

أعلم جيدا أنك فعلت كل شيء من أجلي. أنهت المكالمات بنفاد صبر وجاءت إلى الصالة وغطست في المقعد وهي تجفف جبهتها من العرق بظهر يدها.

- ما الذي حدث؟ سألت نانا قلقة.

- علي سماع تباهي الجيران طول الوقت: مومو يرسل هذا

ويرسل ذاك. يظنون أنه ليس عليّ إلا أن أنحني لأجمع النقود من الشوارع. إنهم يجهلون تماماً كيف هو الحال في أوروبا. وقد صدقتهم وأنصتُ إليهم طيلة ما أذكر من حياتي، قالت متذمرة. - هل يمكنني المساعدة؟ قالت نانا. رفعت مارياما يدها رافضة. - أمي لا تطالب بغير الهدايا من لندن التي تريد أن تريها لسكان القرية. تتصل من هواتف الجيران كل يوم وتوبخني لأن عليها تسديد ديون لاتصالها بي. بدت مارياما فجأة متعبة ومجهدّة.

- تقول إن من واجبها أن تعرف عن حال ابنتها ما دامت بعيدة عنهم وليس لها من يرشدها. لقد طمأنتها بأن لدي الخالة أمينة والعم سولاي في أبتون بارك ولكني لم أخبرها بأنهما مشغولان جداً، لا وقت لديهم للتدقيق فيما أفعله وكيف هو حالي مع الإنجليز. الخالة أمينة تعمل في التنظيف صباحاً وبائعة في محل إكسسوارات بعد الظهر حتى الساعة العاشرة مساءً. العم يعمل سائق تاكسي عشر ساعات، سبعة أيام في الأسبوع لكي يتمكن أولاد عمي من الدراسة. نهضت مارياما وكانت في طريقها إلى الباب. تشعر نانا بالعجز عندما لا تستطيع حل مشاكلها بمبلغ من النقود.

- أخبريني إن كنت بحاجة إلى مساعدة في حل الواجبات. ألم يحن وقت تسليمها؟

- لديّ وقت كاف. وقفت متعجلة خروجها.

- خذي حذرك عزيزتي. استسلمت نانا لأعذارها وتركتها

تذهب.

ويرسل ذاك. يظنون أنه ليس عليّ إلا أن أنحني لأجمع النقود من الشوارع. إنهم يجهلون تماماً كيف هو الحال في أوروبا. وقد صدقتهم وأنصتُ إليهم طيلة ما أذكر من حياتي، قالت متذمرة. - هل يمكنني المساعدة؟ قالت نانا. رفعت مارياما يدها رافضة. - أمي لا تطالب بغير الهدايا من لندن التي تريد أن تريها لسكان القرية. تتصل من هواتف الجيران كل يوم وتوبخني لأن عليها تسديد ديون لاتصالها بي. بدت مارياما فجأة متعبة ومجهدّة.

- تقول إن من واجبها أن تعرف عن حال ابنتها ما دامت بعيدة عنهم وليس لها من يرشدها. لقد طمأنتها بأن لدي الخالة أمينة والعم سولاي في أبتون بارك ولكني لم أخبرها بأنهما مشغولان جداً، لا وقت لديهم للتدقيق فيما أفعله وكيف هو حالي مع الإنجليز. الخالة أمينة تعمل في التنظيف صباحاً وبائعة في محل إكسسوارات بعد الظهر حتى الساعة العاشرة مساءً. العم يعمل سائق تاكسي عشر ساعات، سبعة أيام في الأسبوع لكي يتمكن أولاد عمي من الدراسة. نهضت مارياما وكانت في طريقها إلى الباب. تشعر نانا بالعجز عندما لا تستطيع حل مشاكلها بمبلغ من النقود.

- أخبريني إن كنت بحاجة إلى مساعدة في حل الواجبات. ألم يحن وقت تسليمها؟

- لديّ وقت كاف. وقفت متعجلة خروجها.

- خذي حذرك عزيزتي. استسلمت نانا لأعذارها وتركتها تذهب.

- كيف؟

- أنت بحاجة إلى أن تساعدني، ولكن هل مارياما بحاجة إلى مساعدتك؟

- إن تحدثنا عن الجانب المادي فهي بحاجة إلى ذلك.
- أنا أتحدث عن الوضع الحالي حيث الجانب المادي مضمون.
- لا أدري إن كانت هي بحاجة إلى شيء غير كفالتي، لا أدري إن كان لدي ما أمنحه لها غير النقود.

- ها أنت لا تستطيعين الفصل مجددا. الأمر لا علاقة له بمقدار ما لديك من أشياء أخرى لتعطيها وأكثر من أن تعرضني عليها دعما ماديا بقدر السؤال إن كانت مارياما بحاجة إلى شيء أو أكثر.

- ليس لديها الكثير الذي يعينها في حياتها. كانت طفلة مهمشة لم تعيش طفولتها حقيقة.

- لديها ولا بد قوة بداخلها لتصل إلى ما وصلت إليه الآن، قاطعها جاكوب.

- ولكنها وحيدة تماما في هذا العالم.
- كم هي وحيدة فعلا مع كل هذه العائلة؟
- العائلة تجعل كل شيء أكثر صعوبة، قالت نانا بانزعاج.
- إنه الواقع الذي تعيشينه.
- كان الأمر أسهل لو لم يوجد الواقع، قالت نانا ساخرة من نفسها.

- لم اتصل برقمي للطوارئ، اعترضها جاكوب.
- عندما أنظر لنفسي في المرأة أرى قناعا.

- ما الذي تخافينه؟ قال جاكوب بموضوعية.
- وضعي المادي على المدى الطويل، من دونه لا أستطيع مساعدة مارياما.
- انسي مارياما وركزي بنفسك على عودتك إلى الطريق. هل لديك فرصة معقولة للحصول على عمل في «روان» فرع لندن؟
- لديّ تواصل جدي مع مدير مكتب التوظيف. القرار بيده.
- كم من الوقت ستمنحينه قبل أن تبحثي في مكان آخر؟
- لا أستطيع ان افعل شيئاً غير هذا.
- غير ماذا؟
- روان.
- ألسيت في طريقك للبحث عن تحديات جديدة في هذه القفزة التي اتخذتها؟
- حالياً وضعي فوضوي فقط.
- عليك أن تفكري بطريقة بناءة وتتصرفي من خلال ذلك.
- لا أستطيع التفكير في غير مارياما حالياً.
- دعيها وشأنها.
- لا أستطيع.
- إن كانت لديك حاجة لعمل شيء لأجل أحد فلم لا تلقين بنفسك في العمل في إحدى الجمعيات الخيرية؟ أن تجدي عملاً تطوعياً في محل للمواد المستعملة أو الطبخ في الشوارع؟
- هل تعني ما تقول حقاً؟ أن أعمل مجاناً وبهذه السيرة الذاتية التي عندي؟
- لمَ لا؟ إن هذا يمنحك تركيزاً ويجلب النظام إلى هذه

الفوضى.

- ذلك دون مستواي.

- عذرا ولكن ما المستوى الذي أنت عليه حاليا؟

- أعرف جيدا، تمتعت نانا.

- واجبك للمرة المقبلة هو أن تشرعي في البحث عن شيء

معقول لتعمله. إن كان براتب أو من دون راتب، سنبقى على

اتصال.

- شكرا لتوبيخك. أغلقت الهاتف وهي تشعر بأنها قد سُحِقت

تماما.

اتخذت نانا من المجيء إلى «سيتي» عادة يومية لها بعد الظهر نحو الرابعة. كانت تستخدم في طريقها قطارات الأنفاق إلى بانك لتتجول إلى ذلك الأمان المجهول الهوية من الرخام والزجاج. كانت تشعر بأنها في بيتها في تلك الصحراء من الخرسانة العاجية اللون، حيث اعتادت أن تأتي بانتظام في السنوات العشر أو الاثنتي عشرة الأخيرة. كانت تعرف الشوارع والمقاهي، والبارات، والبنائات المشرببة الصقيلة التي تحجب السماء. تعرف البدلات الرجالية المفصلة وملابس التنزه، الكعوب العالية ومحافظ الوثائق ذات الماركة التي تستخدمها. تعرف الخطوات التي تدل طريقها والتي تطلق جلبة بين الجدران مثل صدى مجوف لعيدان طبول.

لقد حصلت أخيرا على موعد من قبل مدير قسم التوظيف. دارت حول «City Place House» حيث مقر «روان» ثم انتهت إلى الجلوس في المقهى ذي السقف العالي الكبير هناك واحتلت

مكانا إستراتيجيا عند طاولة تجاه الواجهة الزجاجية لكي تشرف على محل عملها السابق. جلست على الأريكة المنخفضة ترشف من كأس الشراب. طالعت صحيفة الفاينانشال تايمز وهي تشعر بأنها خالية من التركيز. تعرفت على البعض من زملائها القدامى الذين مرّوا بها على الرصيف وانعطفوا عبر الساحة إلى المدخل الرئيسي.

استطاعت نانا أن توهم نفسها بأنها عادت إلى وعيها السابق بعد أن جلست طويلا في محيطها المعتاد تنظر إلى الجرائد وأسعار الأسهم التي تداخل بعضها ببعض وصارت نقشات معروفة، أن توهم نفسها بأن كل شيء كما كان وأنها بمجرد أن تنتهي من قدحها ستعود إلى قاعة الاجتماعات واللاب توب. ولاحقا بعد انتهاء يوم العمل ستتناول «السوشي» مع بعض من زملائها قبل أن تستقل الطائرة آخر اليوم لتعود إلى كوبنهاجن. شعرت بنشوة وهي تستدعي حياتها العملية ساعة بعد ساعة بتفاصيلها الصغيرة. كأنها تنظر إلى جنة مفقودة.

انتهت من كأسها وغادرت متوجهة صوب City Place House «وساحة المرمر الموحشة. بمظهرها الأنيق البهي، أناقة الثوب الرصينة، الحذاء الذي ناسب قدميها والكعب الذي رفع من طولها سبعة سنتيمترات كانت نانا تشبه سيدة الأعمال، التي كانت عليه في حياتها قبلا والتي تلاءمت وانسجمت مع المحيط من حولها. وجدت فجأة أن مرآى النافورة وسط الساحة مؤثر لعرائه المختزل بخيوط الأشعة الرفيعة المجموعة في إضمامات عمودية.

دخلت البهو وتوجهت إلى الاستقبال حيث أظهرت بطاقة «روار» الشخصية وأعلمتهم أن لديها موعداً مع السيد باتريك كلوفر. طلب منها التفضل بالانتظار حيث مجموعة من الأرائك عند النباتات الداخلية. جلست بانتظار السكرتير ليرافقها إلى الطابق الثامن. لقد سبق أن قابلت مدير قسم التوظيف بشكل عابر عندما كان عملها قائماً مع الشركة من قبل. ولكن بعد أن انتقلت إلى لندن لم يكن بينهما من تواصل غير المكالمات الهاتفية وعبر البريد الإلكتروني. تتذكره بشكل غائم كرجل جذاب في أجمل عمر للرجل. في مكالمتهما الأخيرة كان هناك تيار داخلي من غزل بينهما. وقد أفلحت في الحصول على موعد لديه. تأخر مجيء السكرتير. أصاب نانا خوف من مقابلة الرجل ذي السلطة وجهاً لوجه. ولكنها طمأنت نفسها بأن لديها ما تفوز به ولن تخسر شيئاً.

كانت وجهتها في جلستها تشرف على المصاعد وفجأة رأت رجلاً وسيماً في منتصف العمر يدخل البهو ويقف مباشرة أمام مجموعة الأشجار الداخلية. مدير قسم التوظيف نزل بنفسه ليصحبها. شعرت بالخجل مثل طفلة مدرسة ونهضت بحركة مرتبكة من مكانها. ولكنها سرعان ما استعادت سيطرتها. للمحيط مفعول منشط لها. وتلك الاستراحة اللاطوعية لم تستطع أن تمسح آثار ذاك الاحتراف القديمة فيها.

- سكرتيرتي مجازة اليوم، أوضح لها سبب نزوله من الأعلى.
- لم أعتقد قط أن سكرتيرة يمكن أن تأخذ إجازة يوماً، قالت نانا بلمسة صغيرة ساخرة. كانت تجيد لغة «روار» كأنها نشأت وسطها.

- الأمر يستحق أن نكون كرماء بين آونة وأخرى. كان رده وهو مرتخ. استغرقت أمر عدم انتباهها له من قبل.

- استثمار ممتاز، أضافت هي.

- فضلا عن الناتج، قال وهو يصدر طقة بلسانه. أخذت نانا نفسا طويلا.

- لن نظل واقفين هنا، أكمل وهو يضع يده على ظهرها ليقودها إلى المصعد.

جعلها باتريك كلوفر تتقدمه في الدخول إلى المصعد. التقت نظراتهما مثل ومضة برق في المرأة. شفقة غير محسوسة صعدت بهما إلى أعلى. تنحى ثانية إلى الخلف بأناقة لتسبقه في الخروج من المصعد إلى الموزع حيث طاولة صغيرة من الزجاج مع عصير برتقال طازج وسلطة فاكهة.

- جميل، أليس كذلك؟ قالها بنبرة أرسقراطية ثم تقدمها في الممر الطويل إلى مكتبه في النهاية. غمر جسدها شعور حلو حارق مثل صحوة بطيئة من الموت. لقد مروقت طويل منذ أن شعرت بأنها حية. خطر ببالها ثوب الربيع للأشجار وتبدى أمامها أن الأغصان والأوراق نمت من ذراعيها العاريتين. نظر باتريك مباشرة إلى الورا ليتأكد أنها تتبعه. وأمسكت نانا عن الابتسام ردا على ابتسامته. لم تكن تسلم بشيء. لم تشأ أن تخمن القدر. الحظ وحده الذي يمكن أن ينقذها، لعبة صدفة تضع القطع المفقودة في مكانها كي تفتح لها كوة رغم كل الصعاب.

جلسا كل في مكانه عند الطاولة في المكتب الضخم الذي احتل زاوية في المبنى. جلست نانا قلقة على طرف المقعد تطفئ

أهمية اللقاء على تفكيرها. عندما تتعرض إلى موقف يشكل ضغطاً عليها يدور في رأسها في الوقت نفسه خط مواز ترى فيه نفسها من الخارج يرافقه تعليق داخلي بينما هي تحاور باتريك. بدا أصغر سناً من نظرتها إليه في الوهلة الأولى كما أن هياته المسالمة جعلتها ترتخي. وجدا نفسيهما يدخلان في أحاديث جانبية ويختبر أحدهما الآخر في مباراة كرة منضدة حيث الضربات القوية بينهما في تبادل فوق طاولة المكتب.

- تبدين نضرة ونقية مثل الندى كأن الحياة لم تمسك، قال باتريك بإرساله القوي وهو يصب الشاي لها. كان يشرب مياه معدنية. معدته لا تحتل حامض التانين، قال لها وشاي الأعشاب ليس من مستواه.

- لقد أمضيت ست عشرة سنة من حياتي في «روان»، قالت نانا بنبرة حادة واثقة. ليس لديه الحق في أن يتعامل معها بشكل غير رسمي. لقد جاءت لتتقن عملها ووجودها. لديهما التحصيل الدراسي نفسه وتقريباً ذات الأقدمية في المؤسسة. كل ما في الأمر أنه كان محظوظاً وهي لا.

- أرجو ألا تسيئي فهمي، كنت أقصد إطراءك، قال ليلاً الجو وابتسم بأسنان بيضاء مضيئة.

- بشرتكَ مصقولة مثل حرير، لا عمر لك. لا أجرؤ حتى على تقدير عمرِكَ. ربما هي قصة شعرك الولادية ولون الشعر المقصور. تناول ملعقة شاي بذراع طويل كانت في كأس الشاي العالي والذي لم يستخدمه وترك المعدن البارد غير القابل للصدأ ينزلق ببطء على خدها. اقشعر جلد نانا.

- أعطى الأولوية لعمله دائماً، قالت بموضوعية واعتدلت في جلستها على الكرسي.
- لكن المعروف عن «روار» أنها في العادة سبب التجاعيد والشيب، قال بسخرية.
- لقد حاولت أن أرقى إلى المستوى الذي اقتضته وظيفتي في مجموعة فريق المديرين، قالت نانا متجاهلة الفترة العصبية التعيسة في «روار دنمارك».
- لا أحد يشك في مؤهلاتك نانا. استقرت عينا باتريك عليها. كان هناك دفء تحت زي السيتي والربطة المشدودة.
- هل المؤهلات كافية بحد ذاتها، إن كان هناك أكثر من واحد يتنافس على المنصب؟
- أجل، إن كان المظهر في الوقت نفسه مناسباً. استدار باتريك بالمقعد وظل جالساً في مكانه مولياً ظهره لها مستمتعاً بالمنظر للحظة قبل أن يستدير ثانية.
- تفحصها بعين متخصص. هل نالت مسبقاً ما عزمت عليه عندما جلست عند البار منتظرة؟ هل اهتم في الحال رائجتها كفريسة سهلة؟
- هل ترين نفسك عضوة في فريق مديرينا؟ قطع تفكيرها.
- هذا هو ما هيأتني روار- دنمارك له.
- ما الذي تعرفينه بخصوص إدارتنا الجديدة؟ سأل باتريك بروتينية. لم تفهم إن كان سؤاله فقط لإضفاء شرعية على اللقاء.
- وفق تقارير الاجتماعات من العام ٩ والرابع الأول من العام ١٠

هناك حديث عن كسر للخط السابق من القرارات بالإجماع إلى الأغلبية التي تمنح مرونة ومواءمة للتأرجح الحاد في الأسواق المالية، أجابت بمعرفة مثل طالبة مستقيمة. كونها على لائحة الاحتياط حال دون ارتخائها بمقتضى الزمالة التي تجمعهما.

- الإدارة التنفيذية لها الكلمة الأخيرة، أي أن صلاحيات فريق المديرين قد رفعت إلى أعلى قمة الهرم، تابعت نانا بحماسة. لم يتم تحديها هكذا مهنيا لزمان طويل.

- باستثناء؟ ضغط باتريك أطراف أصابعه بعضها على بعض. «روار جوهانسبيرغ»، «روار نيروبي». تحيد أفريقيا عن بقية الأسواق. أفريقيا في نمو. استمتعت نانا بالتكافؤ المهني وشعرت بأن «أناها» القديمة تنهل ذلك مثل نبتة جافة.

- أنتِ على معرفة تامة بروار لندن، حدثيني عنكِ، قاطعها باتريك ويذا كأنه ضجر.

- لقد بدأت استشاري استثمار، بشكل رئيسي في الشركات التجارية، إدارة المخاطر المالية، إدارة السيولة المالية وحسابات الكلفة...

- يعني مسؤولية عن العملاء. لوح باتريك بحركة يد أمرة جعلها تجمد في تقديمها وتتردد.

- كنت في قسم فريق العملاء حيث عملنا مع تقريبا ٣٠ مجالا ضمن آفاق التسويق في جميع أنحاء العالم إلى أن تم تعييني كـ «صائدة»، البحث عن عملاء مع سفر نحو ٢٠٠ يوم في السنة...
- صائدة؟ قاطعها باتريك ثانية.

- ووسيط تجاري؟ متابعا وهو يحملق أمامه في نقطة بعيدة.

- نعم، لفترة قصيرة تقريبا قبل أن أدخل في مجموعة فريق المديرين بالدنمارك. أحببت العمل على مدار الساعة، ذلك ينسجم مع مزاجي.
- هل عملت كوسيط مع عمولة؟ نظرت باتريك مباشرة إليها. وهزت نانا رأسها تؤكد قوله.
- أي الوظائف هي المفضلة لديك؟ أطلق باتريك سؤاله إليها مثل لسعة سوط.
- كل الوظائف كانت حجب بناء لخبرتي في «روار» ولكن وظيفة مدير فريق حاليا هي المفضلة، قالت وهي تشعر بأنها معرأة.
- دعيني أوضح. فجأة صار باتريك حاضرا.
- أنت مازلت في خط الشركة، ولكن بالطبع حرة لتختاري مجالات أخرى. ونحن لا نتمنى لك غير الحظ السعيد إن اخترت طريقا جديدا، قال ملخصا. بسبب هذه الـ «نحن» التي قالها انحسر اندفاعها.
- أنا لا أعرف وضعك، أعلم فقط أنك ولأسباب خاصة قد ارتبطت بلندن. لذا فنحن (هذه الـ «نحن» الباردة ثانية) لا يمكننا أن ننقلك مباشرة إلى هونج كونج أو سنغافورة.
- صرتُ أقل قدرة على التنقل الآن، أقرت نانا باقتضاب. لم تكن تود مناقشة علاقتها الخاصة مع باتريك.
- شيء يتعلق برعاية طفل كما فهمت؟
- يمكن القول، أجل، لا، ليس تماما.
- تبني؟ مثل مادونا؟ حيلة إعلامية مؤثرة أعطت الكثير من الدعاية المجانية، قال باتريك بحنق. لم يكن سهلا كما كان في

الانطباع الأول، فكرت في خطها الداخلي الموازي.

- لا ليس كذلك. أصابتها فكرة أن باتريك يعتقد أنها على خطى مادونا وأن مارياما لم تكن اختيارها الشخصي بل من أعراض التقليلات العصرية.

- إذن أنت لست وحدك ولديك التزاماتك؟ تابع قبل أن تنتهي نانا من التفكير.

- وأنت أيضا بالتأكيد، طارت من فمها بينما كانت في الخط الموازي تفكر إن كان التبني احتمالا عليها التفكير فيه.

- هاتان الأميرتان. ناولها باتريك إطارا من الجلد يحوي فتاتين بهيئة جدية وبأزياء الموضة في عمر ما قبل المدرسة. كما يبدو فلقد أنجب متأخرا. الوقت ليس متأخرا بالنسبة إليها كذلك، هو ما فكرت فيه في الخط الثاني الموازي على العموم. الفكرة لم تخطر ببالها من قبل فبإمكانها الحصول على المساعدة عبر العلم الأكثر تقدما من تلك الفترة التي خلقت فيها. كيف وابتها تلك الفكرة؟ لقد أقسمت ألا تستعين يوما بتكنولوجيا الخصوبة التي جاءت بها إلى العالم. لعلها فكرت بصوت عال فقد ترجأها باتريك أن تعيد ما قالت.

- هل قلت شيئا؟ لم تكن نانا حاضرة.

- تمتت بشيء حول «الجرأة في التعامل»، قال باتريك منزعجا.

- عفوا، لقد فكرت في جرأة «مادونا»، ارتجلت القول.

- الأمر برمته ليس أكثر من تجارة أطفال، استهلاكية بمعنى ما، ثم قال بعدها مشددا على الكلمات «so ein Ding muss

ich auch haben (*). شعرت نانا بأنها المقصودة. لم تستطع أن تتجنب رؤية علاقتها بمارياما كعلاقة اقتصادية أساسا.

- على الأفريقيين وحدهم أن يجدوا طريقهم في الخروج من الفقر. دعيهم يظهروا ما هم قادرون عليه.

- لا يمكن للأطفال أن ينتظروا طويلا، دافعت نانا عن نفسها. لم تكن متهيئة للدخول في نقاش حول أفريقيا والذي لم تشعر بأنها بمستواه ولم تلحق أن تراجع قبل وصول مارياما إلى لندن واستحواذها على كل اهتمامها.

- انقطع خيط حديثنا. استجمع باتريك تفكيره حول أمر نانا. أنتِ مدرجة في قائمتنا. أنتِ من الذين نعول عليهم بالتأكيد.

- في مقياس من ١-١٠ أين تضع قضيتي؟ لم تمس نانا شاياها. كانت تخشى أن ترتجف يدها. كانت بحاجة ماسة إلى شيء ما ليقويها ونظرت طويلا إلى الزجاجاة التي لم يمسه أحد بعد في الصينية.

- لا يمكنني أن أعدك بشيء ولكن أنتِ وكما يقال على لوحة الإعلانات الضوئية. وعلى الأخص الآن بعد أن تعرفت على قدراتك.

- شكرا، قالت نانا وهي تشك في إعلانه. ناولها باتريك الكأس مع قطعة ليمون وثلج.

- اللقاء الشخصي مهم دائما. ضغط باتريك على «الشخصي» واستمتع بالرشفة الأولى من شرابه. نظر إلى ساعة يده. صورة

(*) «أنا أريد هذا الشيء أيضا».

- الأميرتين الصغيرتين كانت لاتزال بينهما على المكتب.
- كان لطفا منك أن تجد لي وقتا في مفكرتك، قالت نانا برسمية. كانت تريد منه أن يتخذ الخطوة اللاحقة.
- من دواعي سروري، أجابها بذات النغمة. نانا خشيت انسحابه مسبقا.
- من النادر أن نشعر بأننا على الموجة نفسها، جسرت على القول ومدّت يدها لتتناول الكأس. لن يرميها خارجا قبل أن تفرغ كأسها أو على الأقل لتصل نصفها.
- التحدث معك لا يشعرني بأني أتحدث مع امرأة إطلاقا، قال بتفكير.
- لديك ذكاء ذكوري واضح، تابع باتريك.
- لم تستطع نانا أن تجزم إن كان هذا حكما ساحقا أم إطرء عظيمًا. لقد تقلصت تحت أشعة نظرة باتريك السيئية وشعرت بأنها معرأة.
- أفضل أن أفهمها كإطراء، قالت بإيجاز.
- وذلك ليس خطأ تماما كذلك، قالها مسرعا من دون أن يبدد شك نانا ونظر إلى ساعته ثانية.
- يؤسفني أنه ليس بمقدوري دعوتك إلى العشاء. عليّ أن أحضر اجتماعا بعيدا جدا في الطرف الآخر من لندن.
- لست مجبرا على ذلك، قالت نانا مريكة بعض الشيء. لم ينبعث من باتريك الهدوء ذاته والاهتمام كما كان قبل ولكنه أرسل إليها بضع إشارات غامضة مختلفة.
- سأرافقك إلى الأسفل. نهض بخفة من مكانه.

- لديّ رغبة في أن أريك استوديو «بيدفورد سكوير» الخاص بي. لعل طريقة عيش «السكان الأصليين» تثير اهتمامك. عليّ في كل الأحوال أن أجلب بعض الأوراق للاجتماع من هناك، تابع بينما كان يضع اللاب توب في الحقيبة الجلدية التي تحمل مونوغراما.

- يبدو ذاك ممتعا، عقت نانا ورفعت حقيبتها.

- سنستقل التاكسي، قال باتريك وهو في طريقه إلى الخروج من المصعد. هزت نانا رأسها محيبة وتمنت لموظفي الاستقبال «مساء جميلا». كان موظفو روار على مدار الأربع والعشرين ساعة في المبنى. البعض يبيت ليلته على أريكة في زاوية بعيدة، وآخرون يكتفون بإغفاءة قصيرة حيث ترتاح جباههم على طاولة العمل. كان استوديو باتريك ذو الغرفة الواحدة عشا مبطنا صغيرا بستائر مخملية ثقيلة، سجادة سمكية من الجدار إلى الجدار غطت كل الأرضية والمطبخ المصغر والحمام الضخم بالجاكوزي. بدا المكان مجهولا وغير مأهول.

من دون أشياء شخصية أو لوحات على الجدران، عدا ملصق سياحي من روما للكولوسيوم بإضاءة مصطنعة. رمى باتريك بجاكته على السرير وفتح ذراعيه. كان من الواضح أنه فخور بكهفه الخاص. شعرت نانا بأنها قد انحبست ولم تكن واثقة بأنها اتخذت خطوة ذكية. من ناحية أخرى فقد هزّها تعليقه بشأن ذكائها الذكوري (أنت تفكرين مثل رجل) إلى درجة جعلها تصمم بشدة على إثبات أنها امرأة.

- البيت بيتك، قال باتريك بصوت ناعم وأبعد في لمح البصر

فرشة السرير عن السرير المزدوج الواسع. وقته كان ضيقا.

- ماذا عن أم طفلتك؟ ساورت نانا مخاوف فجأة، ليس شفقة على زوجة باتريك بقدر ما كان بسبب وظيفتها في روار.

- أليس من المتأخر التفكير في زوجتي الآن؟ رفع باتريك حاجبيه معا. كان لديه سبب قوي لغضبه.

- آسفة. كانت نانا جاهزة للمغادرة. تولى لديها شعور بأنها توشك أن تخسر مستقبلها في روار.

- لا تقلقي، قال باتريك بفتور، نحن نعيش معا من أجل الأطفال ولكننا نعيش كل على حدة، كما تعرفين «زواج صوري».

- هكذا إذن، جلست نانا بحذر على السرير. لم يخطر في بالها يوما في أقصى خيالاتها أن تستخدم أنوثتها للوصول إلى ترفيع وظيفي. لم تكن تعرف نفسها عن طريق جنسها ولكن عن طريق درجة الماجستير والتخصص لها وقد كان لديها من الطموح والزهو بنفسها ما يمنعها من استخدام الجنس كوسيلة في حياتها المهنية. ولكنها لم تكن على طبيعتها ولم تتصرف على طبيعتها. بمجرد أن تعود إلى روار سيعود كل شيء طبيعيا وهي نفسها ستعود طبيعية ثانية. الطبيعية كانت المثال لها، أن تكون رقما في تسلسل، مجندة في جيش العمل.

كانت دائما تود لو كانت مثل الآخرين، تتكيف مع محيطها وتنتمي إليه. قبل كل شيء أن تنتمي.

أمسك باتريك بحنكها ودفعها إلى الخلف بعنف غير متوقع، بينما حاولت نانا أن تقنع نفسها بأن الموقف سيسهل عليها إن لم تمتزج المشاعر فيه.

جلست مارياما بانتظارها في شقتها وهي بمعطفها وحقيبتها

البلاستيك عند قدميها . كانت الموسيقى المنطلقة من سماعات
مسجل الأسطوانات المضغوطة تطرق الجدران . رمت نانا حذاءها
وأطفأت الجهاز .

- الجيران، قالت لها منتصف الصمت الصلد الذي حلّ .
- ألم تري علماً بصليب أحمر يتدلى من الشرفة؟ نظرت
باهتمام إلى مارياما التي كانت تحملق في وجهها .
- علّم القوى البيضاء، إنهم عنصريون، هنا جوارنا . ألفت نانا
نفسها تهمس .

- هناك الكثير من الناس عنصريون، رفعت مارياما كتفيها .
- ليس الكثير عزيزتي، البعض فقط، صحت نانا ما قالته
مارياما . لم تكن ترغب في شيء بقدر ما كانت تريد للندن أن
ترأف بمارياما .

التفتت فجأة إلى مارياما، كانت قد بدت مثل مَنْ جاء في
زيارة توديعية قبل سفر طويل وتذكرت أن منتصف الأسبوع هو
ليس موعد زيارتها .

- ما الذي جرى؟ هل أنت بخير؟ تبع السؤال احتضانها الذي
حاولت مارياما تجنبه .

- أريد أن أبقى عندك .

- ماذا يعني ذلك؟

- لا أريد البقاء عندهما . بدت مارياما مرهقة ومهمومة كأنها
لم تنم لليلٍ متتالية . تبعت نانا إلى المطبخ وتحدثت مثل شلال
بينما كانت نانا تعد الشاي .

- لا تغضبي مني نانا . ليس هذا إنكاراً لجميل بيا وبين ولكن بيا

تقول إني أجلب حزنا قديما إلى البيت، بدأت مارياما بالقول. حزنت حزنا كبيرا بسبب قول بيا التي تذكرها ملابسها بالأكفان بقياسها الفضفاض وألوان الباستيل الحساسة. مثل ملاك طلع من القرآن ولكنها لا تجرؤ على قول ذلك لها. هي وبن لا يؤمنان بالله، كما قال بن، ملحدان عن قناعة. ذلك جعلهما في عينيها مجنونين بعض الشيء وخطرين. لم تستطع أن تتخيل أن هناك أناسا لا يؤمنون بآله. جدتها تنحدر من عائلة مسيحية وقد علمتها اللحم والدم والقيامة والذي سرعان ما نسيته. كان مخيفا. على الرغم من أن الجدة أوضحت لها أن عيسى كان أيضا من الأنبياء في القرآن، ولذا فعلها ألا تخشى لحم هذا الرجل ودمه. ولكن القرآن لم يساعدها لأنها لم تستطع قراءة لغته. سمح لها الإمام مرة أن تمسّ الكتاب المقدس. ظلت حرقه لمسه طويلا في يدها فيما بعد ولم تبطل حتى دخلت المدرسة وصار كتاب الإنجليزية كتابها المقدس. كانت الخالة روزي هي من علمها أن تحب اللغة الإنجليزية الناعمة والمرنة والتي تعشقها هي لأن أمنيته في الحياة كانت أن تصبح مدرّسة للغة الإنجليزية.

- ولكن بن قال إن بيا بحاجة إلى شابة في البيت. لقد صارت أقوى بكثير بعد أن سكنت في غرفة الأطفال عندهما، قالت نانا معارضة.

- ألا تعرفين شيئا إطلاقا عن الطفلة التي نشأت في البيت في شارع بورتلاند وصارت بنتا شابة؟ فاجأت مارياما نفسها لتقول «مثلي».

- لا أعلم شيئا عن هذا، تمتعت نانا وتركتهما تسترسل.

- لقد تركت البيت غاضبة مخلفة وراءها رائحة حشيش حامضة وخزانة ثياب ملأى بعلب البيرة الفارغة التي انقلبت على الأرضية بدوي سبب الأزمة القلبية الأولى لبيا .
إنها لا تريد رؤيتهما ولكنها تتصل كل ليلة رأس سنة جديدة وفي أعياد ميلاد بيا . إنها منحرفة وهما يرفضان التحدث معها .
هما لا يستحقان ذلك ولا هي في حالتها هذه، قال بن .
- ذلك حقا جديد بالنسبة إلي . شعرت نانا بالأرض قد مادت تحت قدميها .

- البنت جانيت هي بنت متبناة . جاءت معها خلال مهمة في أوغندا . لقد تم إقناعهما بإنقاذ طفلة صغيرة من ملجأ للأطفال في كامبالا حيث لم تحب الطفلة العيش هناك ولم تنطق بكلمة لسنوات طويلة .

انخفض صوت مارياما بالتدريج . كانت روح البنت هي التي شعرت بها من اليوم الأول . وخوفا من الروح في البيت أخذت بعمل واجباتها في المقاهي التي كان فيها مدخل للإنترنت . كانت تجر نفسها مع كمبيوترها المحمول أينما ذهبت والذي أهدته لها نانا عند استقبالها . لقد أهملت واجباتها بسبب الأصوات التي يصدرها الشبح والخراب الذي ألحقه في البيت في شارع بورتلاند . كانت نانا تنصت بصبر إلى قلق مارياما ، سعيدة لأنها كانت في حاجة لها وليس لنقودها فقط .

- لا يصح أن تثقلي هكذا بمشاكل بيا وبين فتهملي دراستك ، قالت نانا مستنكرة وأمسكت بيد مارياما التي سحبت يديها وأخفتها في حضنها . احمر خدا نانا بشدة وندمت لانجرافها

مع مشاعرها.

- ألا يمكنك أن تقول لي لهما إني سأنتقل للعيش عندك؟ كانت مارياما ترقب طيلة الوقت موبايلاها الموضوع على الطاولة أمامها.

- هل أنت متأكدة من رغبتك في ترك غرفتك الجميلة عند بيا وين والاكتفاء بغرفة الضيوف الصغيرة هنا؟ قالت نانا.

- نعم. كررت مارياما ثانية تقريرها الدرامي في شارع بورتلاند. كانت متأكدة من رؤيتها بوضوح للشبح من خلفها بشكل مائل في زاوية عينها وهي تخشى أنه يطالب باسترداد غرفته. هذه الروح المسكينة لم تستطع مغادرة هذا البيت وأهله.

إنها تختفي بين الجدران ليلا، خلف الأبواب وتحت السجادة. كان يشكو ويعول مثل الضباع. لقد سمعت مارياما قصصا فضيحة عن ضباع أكلت الشبابيك والأبواب لتعصف الرياح الأربع بالبيوت وتأخذ النيام معها.

تقرير مارياما عن الوضع في بيت بورتلاند هزّ نانا كثيرا. لم تكن لديها أدنى فكرة عن حقيقة المشكلة التي آلت بيا والتي يمكن أن تكون السبب خلف صحتها المنهكة.

- علينا أن نتحدث عن الموضوع مع بن ويا، أكدت نانا متجاهلة موضوع الشبح في الوقت نفسه الذي لم تستطع أن تأخذ موقفا تجاهه.

- ألا يمكنك الحديث معهما؟ اقترحت مارياما.

- ألا يجب أن تنتظري حتى الانتهاء من الفصل الدراسي قبل

الانتقال؟

- لقد حزمت أغراضي. رفعت مارياما حقيبتها البلاستيك

التي جاءت بها من غامبيا .

- نذهب في الحال للتحدث مع بيا وين، قالت نانا بعزم.

- ليسا في البيت. أريد النوم هنا الليلة، قالت مارياما بصوت

خجل ضعيف. لم يهون على نانا الرفض.

- هل يعلم كل من بن ويا أنك عندي؟

- إنهما في اجتماع في نيوكاسل وسيعودان في الغد، قالت

مارياما.

رنّ موبايلاها في الوقت نفسه. ذهبت إلى غرفة النوم. لم

تستطع نانا أن تتحاشى سماع أجزاء متقطعة من مارياما

بصوتها المنخفض: «... لا أستطيع... سأسال».

- هل كل شيء على ما يرام؟ قالت نانا عندما رأت جبهة

مارياما المعقودة.

- هناك عرس في القرية وأمي لا تملك نقودا لتعطي

العروسين. والخالة روزي تريد شراء منضدة لتبيع خضراواتها

عليها في السوق وتعيد الأطفال، تنهدت بصعوبة.

- لا يمكنك حلّ جميع مشاكلهم. عليك أن تهتمي بدروسك

وآلا تعلمي كثيرا. وكان نانا لم تكن تتحدث مع مارياما التي

أقفلت برفض للاستماع.

- ولكن بإمكانك أنتِ ذلك، همست بصوت خفيض جدا

اقتضى من نانا أن تجهد من أجل سماع ما قالته.

- هل طلبت منك الخالة روزي أن تسأليني من أجل تمويل

شراء منضدة للبيع؟ رقّ صوت نانا عندما أدركت المحنة التي

وُضعت فيها مارياما.

- قولي لها إن عليها الاتصال بي بنفسها.
- ليس لديها غير خضراواتها لتعيش منها. من الضروري أن تتمكن من بيعها في السوق. زوجها كبير ومريض. إن لم يكن لديها منضدة تطاردها الشرطة، إنهم يطردونها كل يوم من السوق، دافعت مارياما عن الخالة روزي.
- أنا أود أيضا مساعدتها ولكن إمكانياتي ليست بلا حدود، قالت نانا. حملت مارياما كأنها ترفض اعتقاد أن هناك نهاية لثروة نانا.
- وأمي، قالت بحذروهي تود أن توضح موقف أمها المحرج.
- أسألي عن مقدار المبلغ الذي تريده لنحوه عبر «الويستيرن يونين»، سبقتها بالقول. تسالت كلمة «نحن» إلى قاموسها مسبقا وقبل أن يُحسم أمر انتقال مارياما عندها في هنري ديكنز كورت. قضت نانا ليلة أرق بنوع من النشوة لحضور مارياما المخلّ بالنظام في يوم عادي من أيام الأسبوع. هذه الهدية غير المنتظرة جعلت من حياتها بديهية تحمل الروتين اليومي. استهلا صباحهما بسعادة مع البيض وشرائح اللحم والخبز المحمص ولكن قبل أن يرفعا السفرة حدثت مشادة بينهما. ألحت نانا على أن تذهبا معا لبن وياا لتحدثا بشأن الوضع الجديد معهما.
- كانت مارياما عابسة وعنيدة ولم تجد ضرورة لوجودها هناك. حاولت نانا أن تجعلها تفهم أنه ليس من المعقول ألا تشارك في نقاش يدور حولها وحول رغبتها في الانتقال. ولكن كل الأسباب لم يكن لها تأثير في مارياما. رفضت أن تدوس عتبة بيت شارع بورتلاند.
- لا أستطيع، أشعر بالخجل، اشتكت بقولها.
- بن وياا حكيمان وسيتفهمان.

- لا، لا أعنيهما، أعني الروح. أخذت مارياما ترتعد. حضنتها نانا.

- ما هذا الذي تقولينه. نظرت مارياما أمامها ولم تجد من الضروري شرح تدخل العالم غير المرئي في المرئي، والحدود غير الواضحة بين عالمي الإنس والجن.

- لدي أيضا محاضرة قبل الظهر، تذكرت مارياما وبهذا كان لديها عذرتكن له نانا احتراماً أكبر من الروح الهائمة المسكينة. - لذلك الأولوية بالطبع. قالت نانا وقد اختارت أن تثق بكلامها.

- بإمكانك المجيء بعد ذلك. لم يكن لدى كل من بن وبيا وقت قبل فترة ما بعد الظهر، واصلت.

- بعدها لدي ساعات عمل في «سينزييري»، همست مارياما بصوت خفيض جداً وغير واضح كأنها لم تقل شيئاً. تغلبت نانا على شكها. لم يتعين على مارياما أن تكذب عليها؟ - سأحدث بنفسني معهما، قالت حاسمة. لقد خسرت المعركة ثانية مع مارياما.

- شكراً نانا، أنت طيبة جداً، مثل أمي، قالت بصوتها الرقيق وانحنت وأعطت لنانا قبليتين في الهواء. - نجحت نانا في عمل موعد مع بيا قبل أن تتوجه إلى شارع بورتلاند.

عدا استثناءات قليلة كانت هي التي تزورهما وليس العكس. كان ضغط العمل الكبير يحول دون ممارستهما للحياة الاجتماعية بشكل فاعل. في المقابل كان بيتهما مفتوحاً لها. كان مرحباً بها

على الدوام للمرور بهم وزيارة مارياما . في الطريق إلى هناك وقبل أن تغادر هنري ديكنز كورت مرّت على الرصيف المقابل امرأة مسنة جافة تتكئ في سيرها على مشاية بعجلتين . كانت الحلي تتدلى منها ، سوار وسلاسل تصلصل ، قلادات وبروشات من الذهب مثل أنواط على ياقة المعطف . كأنها أفرغت صندوق مجوهراتها خوفا من اقتحام البيت وسرقة القطع التي ورثتها خلال تنزهها بمصاحبة ممرضتها السوداء التي كانت ترقب سيرها خطوة خطوة وتهمس في أذننها بسر . رؤية هاتين المرأتين غير المتشابهتين اللتين تتمتم إحداهما للأخرى أفرعتها فأسرعت في سيرها كأن ذلك نذير شؤم .

فتحت بيا الباب لنانا قبل أن تلحق لتقرع الجرس كأنها وقفت خلف الباب تنتظر وصولها . كانت جميلة ناعمة وتشع كعادتها بهشاشة شفافة كانت نانا معجبة بها . ربما لأنها قد خلقت من مواد صلبة . اقترحت بيا أن تتوجهها إلى غرفة المعيشة حيث جهزت صينية الشاي . كانت وحدها في البيت مما سهل على نانا مساررتها .

- أين بن ؟

- تم استدعاؤه لاجتماع طارئ . الأمور تكاد تتعقد مع برنامج التلقيح لدينا . إطار الميزانية لم ينضبط . كان لصوت بيا اهتزاز طبيعي .

- أنا قلقة بشأن مارياما ، واصلت بطريقتها المباشرة وأسلوبها الصريح . خاب أمل نانا لرغبتها هي في البدء أولا بالحديث . كانت قد تدربت في البيت على ما ستقوله لبيا . عليها أن تقول

كلماتها بطريقة لا تحزن بيا أو تجعلها تغضب من مارياما أو من كليهما. بن ويا صارا عائلتها وهي لا ترغب في خصامهما. - إنها لا توجد في البيت عمليا. بن يرى الوضع غير محتمل وأن عليها الانتقال من البيت. أنا لا أجد ما يقوله صحيحا برغم أنه لا يتمنى إلا الأفضل لها. كانت بيا تتحدث بشكل سريع حتى تقطعت أنفاسها.

- لقد تحدثت معها، قالت نانا وقد شعرت بارتياح لأن مشكلتهم مشتركة.

- إنها ليست على مايرام في لندن، تفتقد بلدها وتفتقد عائلتها. بيا كانت قلقة بشكل جدي بشأنها. لم تعرف نانا ما الذي عليها قوله. يبدو أن مارياما لم ترغب في أن تدلي بما يؤلمها. بأنها لم تكن على ما يرام في بيتها.

جلستا كل مع أفكارها. لم تبد بيا معافاة. هل كانت البنت من أوغندا التي تطاردها؟ هل تحلّ لعنة على هذا البيت؟ لم تجرؤ نانا على السؤال عن سبب علتها. بيا ويرغم كونها كائنا لطيفا وواضحا كانت كأنها مغلفة لا يمكن مسّها.

- نحن على وشك أن نختلف بشأن الموضوع هذا. لأول مرة في حياتنا معا، قالت بيا بحزن وهي تعود إلى الموضوع.

- ربما تكون مارياما أيضا مستعدة لتجربة شيء جديد، الانتقال إلى قسم داخلي مثلا، قالت نانا وهي ترمي بتعليقها.

- إنها غير ناضجة بعد لذلك. إنها بحاجة إلى حماية ريثما تستقر تماما، عقت بيا بحدة.

- ولكن لماذا لا توجد في البيت مطلقا؟

- لأننا مريان فاشلان. عضت بيا شفتها. احتارت نانا في اختيار كلماتها.

- لقد احتضنتما مارياما، منحتها المسكن والطعام وأعفيتماها من الواجبات لتنصرف إلى دراستها. ما الذي في وسعكما فعله أكثر من ذلك؟ قالت نانا محتجة.

- الوقت الذي لدينا لها قليل جدا.

- أليست هي من ليس لديه الوقت لكما؟ عقت نانا.

- نانا، أنت لا تعلمين حجم معاناتي، انفجرت بيا بالبكاء.

- اهدئي بيا. تملك نانا رغبة في حضن يدها وتمسيد شعرها لكنها حاولت أن تبقي رأسها باردا.

- عفوا، شهقت بيا، فقدت أعصابي.

- لا تعتذري، قالت نانا متضايقة. لم تكن لديها خبرة في التعامل مع المواقف العاطفية.

- أنا بخير الآن. اعتدلت بيا في جلستها وصبت المزيد من الشاي.

- ربما وجود مارياما، أعني بالإضافة إلى ضغط عملكما الكبير كان أمرا متطلبا، قالت نانا كمحاولة.

- كان ذلك قرارنا المحض ووفق ما أذكر كان ذلك هو مقترح بن. كنا ننوي أن نحرض أنفسنا، انظري إلى ما وصلنا إليه.. تنهدت.

- على ماذا؟ تشجعت نانا في قولها. نظرت إليها بيا كأنها قد نسيت وجودها.

- الاشتياق الذي يجثم على القلب مثل قطعة ثلج... الأطفال

غير مسموح لنا إلا باستعارتهم. اعتدلت في جلستها على المقعد وتابعت:

- تصورنا أننا قد استفدنا من تجربتنا. كانت بيا شاحبة، بيضاء تقريبا في بدلتها الصفراء. لم تعرف نانا ما الذي تقوله.
- أرجوك، ناوليني من فضلك حقيبتني. أمسكت بصدرها وأخذت تلهث. ناولتها نانا الحقيبة السوداء.
- هل يمكنني عمل شيء؟ تمتمت نانا.
- لا، شكرا، لو كان بإمكانك فقط أن تبقي قليلا، لا يمكنني البقاء وحدي. قالت والتقطت زجاجة الحبوب من الحقيبة.
- لن أتحرك من مكاني، أكدت لها نانا.
- يجب أن تحصل مارياما على فرصة عندنا. من المبكر الاستسلام. لقد اعتادت بيا أن تحصل على ما تريد.
- أعتقد أنها قد تطورت. إنها تتدبر أمرها وحدها بشكل جيد.
- إنجليزيتها قد تحسنت كثيرا، صار لديها عدد أكبر من المفردات، حاولت نانا من زاوية إيجابية.
- ينقصها تنوع أفضل في التعبير، قالت بيا بتدقيق.
- ما مقدار ما يمكن أن يتعلمه المرء خلال خمسة أشهر؟ قالت نانا مدافعة عن مارياما وقد استاءت لكونها لم تعتن باختيار ملابسها وغادرت البيت بالجينز الديزل القديم لا غير.
- أنا لا ألوم مارياما، نحن الذين فشلنا.
- أنتما تضعان شروطا عالية لنفسيكما.
- لقد وعدت نفسي ألا أستسلم، قالت بيا.
- كنت قد فكرت أن من الأفضل لمارياما أن تقيم معكما لتتعلم

العادات البريطانية ولتندمج بشكل صحيح.

- كان ذلك تفكيراً جميلاً منك نانا. ولكننا لم نصلح لذلك.
كم من الإحباطات يمكن للمرء أن يحتمل؟ خرجت بيا ثانية عن
طورها.

- لا أتمنى مارياما غير أن تقف على قدميها، قالت نانا
مواسية.

- ستبقى مارياما حالياً هنا بغض النظر عما يقوله بن. صبره
قليل جداً مع الناس.

- ولكن ألا تستمعان إلى رأي مارياما حول الموقف؟ سألت نانا
بحذر من دون أن تبوح بشيء.

- أظن أنها مشغولة بالاستمتاع بحياتها، قالت بيا مع طرفة
صغيرة في صوتها.

- ما المشكلة تحديداً بينكم عداً عدم وجودها كثيراً في البيت؟
- أشياء صغيرة تصير كبيرة وتخلق مشاكل سخيفة بيني وبين
بن أكثر من بيننا وبين مارياما. تنقل أشياء دائماً من غرفتها
وتتركها هنا وهناك في كل مكان. أشياء تزعج نومها وتجتاح
أحلامها كما تقول. تستخدم الحمام كمحل صلاة وتغلق على
نفسها داخله ساعات طوال، هي تزعم أن الحمام هو الغرفة
الوحيدة تجاه مكة.

- إنها لا تصلي عندي بقدر معرفتي. داخلت نانا بقولها.

- لم نعد نشعر بأننا في بيتنا، أمر سخييف جداً، أشعر
بالخجل. ويتكرر ذات النمط كأن مارياما هي نسخة من...
- ممن؟ قاطعتها نانا.

- شيء علينا أن نعتاد العيش معه. لا يريد بن أن يتركها،
الطفلة الجاحدة، تدمر حياتها كما يقول. ولكن الأمر ليس بهذه
السهولة بالنسبة إليّ. عذرا نانا. في مرات قادمة، الحديث عن
ذلك مؤلم جدا. ألحت بيا إلى أنها تعب وتود أن ترتاح. برنامجها
المقحم قد ألقى بظلاله على نانا التي لم تستطع أن تنجز
مهمتها عدا آراء غامضة لم يكن لبيا مجال لتفقهها.

- هل سيخفف عنكم إن انتقلت مارياما لفترة عندي؟ اقترحت
نانا بحذر. لا يبدو أن بيا قد سمعتها. كررت السؤال بهمس. لم
تأت بيا برد فعل كذلك لكنها ظلت جالسة في مكانها في وضع
جامد.

- بيا، هل قلت شيئا خاطئا؟ قالت نانا بعجز.

- أنت تستغلين تعاستنا. لم أكن أتوقع ذلك منك. أدارت بيا
رأسها ببطء.

- لا أفهم...

- تريدين الاستحواذ على مارياما. كانت بيا من الواضح
منتكسة.

- أود المساعدة، هذا كل ما في الأمر. لعنت نانا نفسها لأن
خوفها من البشر يتحكم فيها إلى درجة أنها لم تتمكن في الحال
من قول الحقيقة كما هي، أن مارياما ترغب في الانتقال عندها.
- مارياما...

- ما بها؟ قالت بيا بغضب.

- اقترح أن نجتمع نحن الأربعة لنحل المشكلة بينكما ومارياما.

- ليس لبن وقت لهذا.

اضطرت نانا إلى قول الحقيقة. بيا، مارياما جاءت عندي بالأمس وأخبرتني في رغبتها في الانتقال عندي. ارتجف صوتها.

- لمَ لم تقولي ذلك منذ البداية؟ كنا وفرنا الكثير من الوقت. كانت بيا تنظر إليها مثل حيوان غريب.

- إن كانت هذه رغبتها فنحن لن نمنعها. قد أتمت الثامنة عشرة كما أعرف، واصلت بموضوعة.

- يمكنها أيضا أن تنتقل إلى قسم داخلي ربما، قالت نانا في محاولة يائسة من أجل أن تصلح الأمر وتتهادن معها.

- سيكون ذلك مكلفا بالنسبة إليك.

- أنا مستعدة لأهبها القميص الذي علي.

- أنت إنسانة خيرة نانا. استعادت بيا رياطة جأشها.

- ستنتقل في العطلة الصيفية بعد انتهاء الفصل الدراسي، قالت نانا بانتحارية وهي تعلم تمام العلم أن مارياما تود الانتقال في الحال.

- لربما نلحق أن نلحم الشظايا، قالت بيا للغرابة من دون حزن. أقرت نانا بهدوء أنها لا تفهم البشر ولكن عليها أن تكتفي بالإعجاب بهم من على مبعدة.

كانت مارياما تحزم حقيبتها في شارع بورتلاند. لقد وافقت على مضض على المبيت عند بيا التي لم تشأ أن تبقى وحيدة. عاتبتها بيا عند العشاء لأنها قصدت نانا وأخبرتها برغبتها في الانتقال من دون قول كلمة لها أو لبن. لم يكن في ذلك وفاء ولا عدل، قالت لها بقناع وجه مشوه أفزع مارياما وكشف عن كون بيا كانت متلونة كإنسانة ساحرة (لا يجب أن تفكر هكذا في

لندن لكنها فعلت). تحت مظهر بيا المشرق كان هناك مدّ وجزر خطيرين. غالباً ما أنذرتها روزي بشأن سيطرة القمر على المد والجزر والتناوب بين سكون الانسحاب وصعود الماء المندفع الذي لا يفلت منه أحد.

كانت بيا تتبدل خلال ثوان من جُزُر مسالم إلى تسونامي ينهض مثل جدار شاهق وينزل منهارا عليها. دافعت مارياما عن نفسها بقولها إن نانا كانت أمها التوباب ولذا فقد لجأت إليها أولاً. ولكن نانا تكون قد أساءت فهمها إن اعتقدت أن القرار بشأن أين ترغب في البقاء قد حُسم. الأمر يقتضي الكثير من الأفكار والتفكير لاتخاذ قرار حاسم جداً.

شعرت مارياما بالإهانة لاتهام بيا لها بالالوفاء وأدركت في الحال أنها اقترفت خطأ فظيلاً بشأن «الأم التوباب» الطفولية. لم تكن بيا تطيق سماع الكلمة «أم» في بيتها بسبب تلك البنت الأوغندية التي تركتها في غيمة من اللعنات. حاولت مارياما أن توضح لبيا أن عليها أن تتحلى بالصبر. ستعود البنت حالما تستجمع الشجاعة وتستوعب الأمر. لن تخذلها. إنها عائلتها. ألم تعلم بيا أن الأفريقيين مخلصون لعوائلهم إلى درجة جلد أنفسهم؟ لقنتها مارياما ذلك بنبرة حادة.

نزل ذهن بيا من الأعالي العاصفة وعاد إلى الجزر ثانية، أرادت أن تعلم فيما لو كانت مارياما تعتني بنفسها جيداً. لقد أصبح من الخطورة جداً المشي وحيدة في شوارع لندن بعد حلول الظلام. عليها أن تحرص دائماً على مرافقة أحد الزملاء أو أحد من العائلة عندما تخرج للمدينة مساءً. كانت مارياما ممتنة

لرعايتها ولكن ألم يكن عند بيا غير تكرار قلقها وقلق نانا عندما تكون هي وسط محنة وفي حاجة إلى رأي ومشورة؟ بدأت تشك فيما لو كانوا بالفعل يرونها كما هي، شابة تنشد موطئ قدم في عالم غريب.

- دعينا نتحدث مارياما، قالت بيا كأنها قد قرأت أفكارها. وقفتا، إحداهما أمام الأخرى، في الصالة. كان السكون يعم البيت. كان لدى بن ندوة ليومين في برايتون.

أخذت بيا يدها وقالت بصوتها المعتم الجميل إنهما كبيرتان ورشيدتان وإنها منذ البداية شكت فيما لو ستكون بصحتها المنهكة وذهنها الحساس رفيقة مناسبة لمارياما.

- أجل، أكدت لها مارياما. شعرت بأن بيا في حاجة إليها وكانت مستعدة لأن تضع نفسها جانبا. كان ذلك ما تعلمته كنصيحة أولى عند الخالة روزي، كل شيء يأخذ الأولوية دونها.

- لا يمكن لنا إلا أن نحبك، ابتسمت بيا.

- ولكن لم نقف هنا، دعينا نجلس على الأريكة، تابعت بابتهاج. جلست مارياما مرغمة على طرف الأريكة. لم يكن لديها الكثير من الوقت للروح والمجيء. كان لديها موعد مع صديقتها بينتا من أجل مراجعة منهج الامتحان. كانت دراسة بينتا ممولة من قبل عائلتها في بلدها. والدها موظف في السفارة الغامبية في داكار. كانت تشعر بالوحدة في القسم الداخلي وضغطت على مارياما من أجل أن تنتقل عندها لتدعم إحداهما الأخرى. كانت المسافة الاجتماعية ستحول دون تخالطهما في بلدهما. ولكن والدة بينتا كانت معجبة

لأنها وجدت لها صديقة تتحدث الـ «ولووف» ولن تنسى بذلك لغتها. لم تكن راضية عن بينتا أثناء تحدثهما عبر الهاتف عندما كانت بدلا من أن تبحث عن الكلمات كانت تحول إلى التحدث بالإنجليزية. «بكسبك العالم ستخسرين روحك» كانت مقولتها الدائمة. لم تكن تعلم أن الصديقتين كانتا تتحدثان في الغالب الإنجليزية مع بعضهما.

- عفوا، ولكن ليس لدي الكثير من الوقت الآن، قالت مارياما بينما نظرتها موجهة إلى الموبايل.

- سنختصر. أنتِ تودين الانتقال. برأيي يجب أن نسمع رأي بن في الموضوع. هذا قرار لا تتخذينه وحدك. علينا أن نقوم به معا، قالت بيا. فهمت مارياما الأمر في كونها علاوة على ضرورة استماعها إلى النصيح عليها أيضا أن تحصل على إذن في الانتقال. وربما أساءت فهم بيا فلم تستمع كل منهما جيدا للأخرى.

انزعجت فجأة وشعرت بالغضب من نفسها لأنها وضعت نفسها في هذا الموقف الشائك. لم يكن ليحدث ذلك في بلدها حيث لن تملك حينها هناك غير أن تكتم غيظها وتحتمل. كان إريাকা كبيرا ذاك الذي وجدت نفسها فيه، والذي جعلها تتدمر مثل الدخن بسحق النساء له بالهاون. كان رأسها يطرق طرقا. لم يكن في مقدورها اتخاذ أي قرار. خيل إليها أن كل القرارات خاطئة. وكل ما ستقدم على فعله سيتسبب في تعاسة أناس آخرين. لقد دخلت في عاصفة صحراء أثارتها بنفسها. والآن لا يمكن لها أن ترى حتى يدها في الظلمة. افتقدت أطر العائلة

الثابتة والقوانين الموضوعة التي يجب اتباعها من دون نقاش، كانت متشوقة فجأة إلى بيتها.

- مارياما، ألا تشعرين بالراحة عندنا؟ هل هناك من خطأ من جانبنا؟ وضعت بيا يدها على ذراعها.

- إنها البنت الأوغندية، طارت الكلمات من فمها. لم تستطع أن تكبت الضغط الداخلي. شحبت بيا مثل جثة وأمسكت برقبتها.

- إنها في الغرفة مساء، همست مارياما بفزع.

- دعينا نتحدث، كررت بيا. تنبّهت مارياما إلى أن هناك لقاء لها مع بينتا عندما تلقت رسالة قصيرة أخرى عبر موبايلها.

- جاءت جانيت من كامبالا من شمال أوغندا حيث الأطفال يختطفون من قبل مجاميع المتمردين. الأولاد يصيرون جنودا أو عمالا عبيدا، والبنيات يغتصبين ويبعدها يصرن زوجات للجنود. جانيت هي نتيجة لاغتصاب جماعي لأمها التي كانت في الخامسة عشرة. تلك المسكينة لا تريد أن تعرف عنها شيئا وتركتها في مكتب «أوكسفام». جانيت كانت ابنتنا لاثني عشر عاما.

- ولكنها مازالت ابنتكما. ولكنها غير موجودة هنا الآن. اعترضت مارياما بشدة.

- إنه خيارها، قالت بيا باستسلام.

- سأساعدك في العثور عليها، قالت مارياما بحماسة ونسيت للحظة موعدها مع بينتا.

- هي لا تريدنا.

- لماذا؟

- لا تقول شيئاً. لا تريد التحدث معنا. ليس في وسعي غير أن
أؤكد أننا لم نفلح. خرجت بيا عن طورها ثانية.

- آمل أن نكون قد تعلمنا شيئاً، وتنهدت.

- لعل كل الخبرات محض أوهام. الناس تقترف ذات الأخطاء
ثانية وثالثة، ضحكت بيا بتهكم من نفسها. تغير مزاجها وخشيت
مارياما أن يتجمع المد والجزر إلى تسونامي ثانية.

- لابد أنها بحاجة لأن تجد طريقها، قالت مارياما كأن البنت
التعيسة كانت هي نفسها.

- لم يكن القصد أن أثقل عليك بمشاكلنا، قالت بيا بجمود،
برفض تقريبا. لم تفهم مارياما إشارات بيا وشعرت بالإساءة
لدفعها خارج حزنها. ندمت لأنها اقتنعت بالمبيت عندها الليلة.
كان عليها ألا تلغي موعدها مع بينتا. لم يكن عليها أن تبقى في
بيت تحتله روح البنت.

جلست بيا في زاوية الأريكة تحمق بنظرة فارغة مثل زومبي.
لم تكن لتشعر بمارياما إن غادرت غرفة المعيشة وتسللت خارجة
إلى الباب الرئيسي. لم تستطع النهوض من مكانها. لقد تسمرت
في مكانها على المقعد. هل سحرتها الروح؟ اجتاحتها شعور
بالضيق ونال العرق منها. كانت وحدها تماما مع الروح. تراه
من خلف كتفها الأيمن. فصلت نفسها عن المقعد وأوقدت كل
المصابيح حتى سبحت الصالة في الضوء. انتفضت بيا بصرخة.
- ماذا أصابك؟ بدت كأنها رأت شبحا.

- إنها الظلمة، تأتأت مارياما.

- لا يمكنني احتمال الضوء القوي. أصاب بيا ضيق في

التنفس. ارتعد جسد مارياما وخجلت من كشفها لتقبلها موضوع الأرواح. ذلك لا يمت إلى لندن بصلة. ولكنها كانت على يقين من وجود جانيت في البيت. فبمجرد أن يحل المساء حتى تأتي بحثا عن الطعام ولكن لم يكن في مقدورها مساعدتها. لا أحد غير بن وبيا في مقدوره ذلك. إنهما من تريد جانيت الاتصال به. لم تكن غير تلك التي رأتها وأوصلت رسالتها إليهما.

أطفأت بيا كل المصابيح ثانية إلا واحدا عند الأريكة. هبطت الظلمة الناعمة على الأثاث وصفوف الكتب، على تمثال الخصب الأفريقي وأقنعة المحاربين. أدركت مارياما فجأة أنها ستشاطر جانيت مصيرها إن بقيت طويلا في هذا البيت والتي حكم عليها بالدوران حوله. إنها لن تجد لها موطن قدم في مكان ما إطلاقا. - لقد أحببتك كثيرا، قالت بيا ولم تمسك نفسها عن احتضانها. تجمدت مارياما في مكانها. ولكن بيا لم تلاحظ عدم ارتياحها. كانت منشغلة بإخفاء هزيمتها هي وبين والذي كان أفضل بكثير منها في كبتها.

- لقد استقبلتmani ومنحتماني الرعاية. بادلتها مارياما مشاعرها المتفجرة.

- دعينا نتحدث، كررت بيا للمرة الثالثة. كانت مارياما مرهقة جدا لانفعالات هذا المساء ولكنها جلست بأدب قرب بيا. - لا بأس إن قررت الانتقال للعيش عند نانا ولكن عديني أن تفكري جيدا في ذلك.

- لا أدري ما الذي أريده، أنا في حاجة إلى فرصة، إلى وقت مستقطع، قالت مارياما بعصبية. لما تمت إعادة بناء الانسجام

بينهما عاد الشك مجدداً.

- لا داعي كذلك لأن تستعجلي، أكدت لها بيا. أجل، كان لديها سبب لم تجرؤ على ذكره بصوت عالٍ.

كانت بيا حساسة جداً لسماع شيء بخصوص الأرواح ودخولها وخروجها الغريب. وكان من الخطورة أيضاً الحديث عنها بعد حلول الظلام.

- أرجو أن تحتلمي مزاجي. لم يفترض في أن أعاتبك. من الطبيعي أن تسري إلى نانا بما لديك. إنها راعيتك الأولى، قالت بيا لتصالحها. شعرت مارياما بالفرح بعد أن حلّ السلم بين الطرفين الراعيين لها.

- لا بأس بيا. نحن جميعاً نخطئ. قالت متسامحة. اعتاد الرجل الكبير أن يقول لها ذلك عندما تشكو له الخالة روزي لشدتها وتفرقتها في التعامل بينها وبين مادلين. لقد مرّ زمن طويل منذ أن خطر ببالها. هو الوحيد من بين أفراد العائلة الذي لم يتصل في كل الأوقات ليطلبها بإرسال نقود أو بإقناع راعيتها الغنية كي تساعد في عوزهم. الجميع حملها تأنيب الضمير. كيف يمكن لها أن تعيش هذه الوفرة من دون أن تتقاسمها مع عائلتها؟ كل صلواتها انحصرت حول ذلك السؤال. ولكنها لم تحصل على جواب.

- أن نبري الزوايا الحادة يقتضي منا الوقت والصبر وأن نتصالح معاً، قالت بيا. هزت مارياما رأسها تجاوباً من دون أن تفقه ما كانت بيا تقصده. كان من الصعب فهم بيا.

- يمكننا الانسحاب الآن، ألا تتصورى ذلك. أطفأت بيا الضوء

الوحيد وتلمست طريقها وسط الظلمة إلى الباب حيث أوقدت ضوء السلم.

- تصبحين على خير حبيبتي، قالت وأسهرت بالنزول إلى العمل الذي كان في انتظارها.

- تصبحين على خير، همست مارياما ويدها على فمها خشية أن توقظ الروح. تسللت إلى غرفتها ورقدت لتنام تاركة المصباح مضيئا معتصرة الموبايل في يدها.

قامت نانا بتذكير بن وبيا لفترة طويلة من أجل حصولها على توضيح بشأن وضع سكن مارياما غير الثابت لكنهما كانا في خضم إدارة برنامج التلقيح في الكونغو ولم يكن لديهما وقت للاهتمام بـ «القضايا المنزلية».

- نحن ندفن أنفسنا في العمل بأيدينا لنخسرها، قالت بيا بنوع من الاعتذار. خاب أمل نانا بأصدقائها على الرغم من أنها هي بالذات من يتعين عليه تفهم أن العمل يأتي أولا. ولكنها ابتعدت كثيرا عن الشرط الأقصى الذي يفرضه ضغط العمل. كان «الشأن المنزلي» تحديدا الذي يشغلها أولا وأخيرا بعد أن لجأت مارياما إليها في «هنري ديكنز سكوير».

في آخر جلسات التدريب واجهها جاكوب بحقيقة ارتباطها الكبير بيا وبين. وقد بدأت هي في التفكير في مدى استحقاقه الأجر المخيف الذي يتعاطاه مقابل ذلك. وقد بدأ هانس يظهر محله في وعيها. شعرت في أغرب الأوقات فجأة بقريه الذي يذكرها بما تنازلت عنه. كانت قد وضعت على الفور خططا. لو تستطيع فقط أن تتغلب على زهوها

وتتصل به وتخبره بأنها ندمت على رفضها له وأنها مستعدة الآن للمحاولة مجدداً. في البدء كأصدقاء وربما لاحقاً في علاقة من على مبعدة مثل الكثير من ضمن حلقتهم من الحيوانات العاملة.

- هل اتبعت نصيحتي؟ قال جاكوب مستهلاً بنغمته التحقيقية.

- أية نصيحة؟

- بأن ترتبطي بشيء ذي معنى.

- لقد اتخذت لي عشيقاً. مدير مكتب التوظيف في فرع روار لندن. بإمكانه أن يعيدني للحظيرة بكبسة زر. بدت نانا أكثر إعجاباً مما تصورت.

- هل سيفعل هذا حقاً؟

- ذلك يعتمد على مدى تقديره لي.

- تلعبين بمخاطرة.

- أنا مقامرة. اهتز صوت نانا.

- بالنسبة إليّ فالأمر يبدو أنك تتصرفين من باب اليأس.

- أعرف ما أفعل. لا أستطيع أن أخذل مارياما في منتصف

الطريق، قالت نانا بحدة. هي لا تريد أن تقيم عند بن وبيا، تريد الانتقال للسكن عندي.

- وما قولك في أنها ستسكن معك؟

- ليس هناك من شيء أتمناه بقدر أن تكون عندي. ولكن ربما

لن يكون هذا مثالياً بالنسبة إليها. ستستفيد أكثر من بقائها مع بيا وبن.

- هل اعتدادك بنفسك قليل لتظني أنه من المحزن أن «تكتفي» بك؟ قال جاكوب محرضاً.
- إنه استنتاج متطرف.
- هل أنت متهيئة لتحمل مسؤوليتها يومياً؟ أليس من المريح أن تكون على مبعدة منك تزورك في نهاية الأسبوع؟ تحدث جاكوب بنبرة كأنها مواجهة حاسمة بين زوجين منفصلين.
- أنت تبسّط الأشياء يا جاكوب. لم تبد نانا مقتنعة تماماً.
- بقي جاكوب منتظراً.
- كانت المصادفة أن تدخل مارياما في حياتي. لقد عرفت إنسانة هي أهم بالنسبة إليّ من نفسي. كانت طفلة عندما التقينا على الساحل. الآن هي امرأة شابة، قالت نانا بصوت يشوبه لوم للنفس غريب.
- عليك وحدك أن تقرري إن كنت تودين تحمل مسؤوليتها يوماً بيوم.
- عليّ أن أناقش الموضوع مع بيا وبين أولاً.
- ليس هما من يقرر ذلك.
- نحن فريق، دافعت نانا.
- ولكنك أنت مديرة الفريق، قال جاكوب. احتارت نانا. هو لم يعطها مقابل ما دفعته له.
- أنا أعرف بما يخص عمل الفريق وإدارة الفريق أكثر مما تعرفه أنت، قالت نانا بحدة.
- أنت من تلجأ إليها مارياما في حل مشاكلها، لذا فلن تتركي القرار حينها لبن ويا.

- ربما سيكون حلا وسطا أن تنتقل إلى قسم داخلي في الفصل الدراسي المقبل؟ حاولت نانا بقولها.
- قل لي هل أنت خائفة منها؟
- أنا لا أدفع لك شقاء عمري من أجل أن تهينني، قالت نانا.
- واجبي هو أن أدلك الطريق، أكد جاكوب.
- حسنا، قالت نانا وسيطرت على نفسها، لم أكن يوما خائفة من شيء. عندما كنت طفلة كنت «الولد الذي لا يمكن إخافته».
- كنت أقود دراجتي عبر الغابة آخر المساء. لقد تسلقت أعلى الأشجار إلى قممها. قفزت من على ارتفاع عشرة أمتار من القفاز. لاحقا مارست القفز بالأربطة المطاطية وحصدت الجوائز.
- كل هواياتك الرياضية لا تمنع من كونك تخافين من الناس الذين يفرعونك، قال جاكوب.
- لست خائفة منك... أنت الوحيد الذي لا أخاف منه، أضافت نانا بضعف.
- ولكن هل أنت خائفة من مارياما؟
- أنا لا أحب استنتاجاتك.
- عليك أن تكوني صادقة مع نفسك.
- أنا أخشى الناس، همست.
- ما الذي فعلوه ضدك؟
- لا شيء. مجرد أنني لست على طول الموجة نفسها معهم.
- لا أعرف ما الذي سأفعله بنفسني. إن تقربوا مني انصفتُ مثل بيت من ورق اللعب.
- كيف يكون ذلك وأنت مديرة فريق في روار؟

- يكون أدائي في أفضل حالاته بما له علاقة بالعمل.
- ألا تحاولي أن تري نفسك كإنسانة عادية خارج مجال العمل،
- شدد جاكوب من نبرة صوته.
- أنا لست طبيعية خارجا.
- إذن هي نفسك التي تخشينها؟
- أنت تقلب الأشياء رأسا على عقب.
- أنا أسأل وأنت تجدين الأجوبة، قال جاكوب بشعور بالإهانة.
- عذرا إن أزعجتك، أسرعت نانا بالقول.
- ما الذي ستفعلينه مع مارياما؟
- سأواصل التفكير بالقسم الداخلي. وسأتفق مع بيا وبين بشأن المكان الذي ستقيم فيه حتى ذلك الوقت.
- حسنا، حظا سعيدا. قاطعها جاكوب. هذا الوقت الثمين قد انتهى. وقد تركت لحالها ثانية.

كانت نانا تستمتع بشراء الكثير في تسوقها وتقديم أشهى المأكولات. لكن مارياما تأكل مثل عصفور وتصنف وتركن معظم ما في صحنها جانبا. على نانا ألا تعد لها الكثير من الطعام وألا تملأ صحنها، تلومها مارياما. من الأفضل أن تفكر في الأطفال. قالت مارياما من دون تحديد أدق أي أطفال. خشيت نانا غضبها فتركت لها تولي أمر قائمة المشتريات. تحاشت النظر إلى البضائع الكمالية في قسم أصناف الطعام الشهية في تيسكو واستغنت عن الكافيار وكبد البط. كان الأمر كأن مارياما قد عاشت معها مسبقا، كأن روحها قد ملأت الهواء الذي كانت تتنفسه، وأنها الآن قد تجسدت في هيئة الكائن الحي. عندما كانت نانا تغادر تيسكو

بأكياس التسوق كان من واجبها أن تضع باوندين في قدح بيردي البلاستيكي. لقد تقبلت وجودها لكنها ترفض أن توصل إليها سلام مارياما كما تطلب منها.

اقترحت نانا دعوة بينتا للعشاء. كانت تقيم في القسم الداخلي «نيدا» في «كنجس كروس» وهو ما جعل الموضوع مهما بالنسبة إلى خطط نانا المستقبلية لمارياما. ولكن مارياما لم ترحب بالفكرة إطلاقاً، ما جعل نانا تفهمه كنقد غير مباشر لها. - ولكنك دعوتِ أصدقاءك في بيت بيا وين، قالت نانا مجروحة. - لا تضغطي عليّ، لدي كثير من الواجبات، قالت مارياما وتجنبت أن تخبرها بأن بينتا لا تود زيارتها لا هي ولا بيا وين. - درستكِ أولاً، تراجعت نانا.

- كانت تقف في خط مائل خلف مقعدها تنظر إلى ضفائرها المصففة التي تحسنت بعد المعالجة ذات التكلفة عالية الثمن للشعر المتضرر. رغبت نانا في تمسيد تلك الضفائر الرفيعة العديدة. لكنها أحجمت ولم تشأ الإزعاج.

سقط نظرها على شاشة الكمبيوتر التي كانت مفتوحة حيث موقع منتدى الغامبيين البريطانيين، «ممارسة الحب قبل الزواج». أمسكت نانا أنفاسها وهي تنزل سريعاً بنظرها أسفل الصفحة. «إن كنت ستمارس الحب مع كل صديق أو صديقة لك. كم من الناس ستمارس الحب معهم؟». «لا أنصح إطلاقاً بالحب ما قبل الزواج. ذلك يبدو أكثر منطقياً». «حسناً، إن ترك لي الخيار للاختيار بين عذراء وغير عذراء سأختار الشخص الذي يحبني ويحترمني أكثر». «الحب قبل الزواج أو العكس لا يهم،

المهم: لا تفعلها قبل الـ ١٨، وإن فعلتها تأكد من أنك تفعلها بـ «طريقة مأمونة»، وما تبقى هو محض هراء».

شعرت مارياما بنظرة نانا إلى رقبتها واستدارت بفزة.

- لا أحب أن تتجسسي عليّ، قالت وأسرعت بغلق الكمبيوتر.

- لم أستطع تجنب رؤية ما كان على الشاشة، اعتذرت لها نانا

وظلت واقفة في مكانها بشعور جامد غريب في جسدها.

- كان علينا أن نتحدث في الموضوع، تابعت بارتباك ولم تعلم

ما الذي تفعله معها. لم تجب مارياما.

سرت رعدة غير محسوسة عبر ظهرها الضيق.

- هل لديك حبيب؟ كان بإمكان نانا أن تسمع في اللحظة

خطأ ما قالت. تخفت مارياما خلف صمتها. برأس فارغ تماما

أخذت نانا تمسد شعرها.

- ليس حبيباً... ولكن هناك أحدا أفكر فيه، قالت مارياما

عندما سحبت نانا يدها أخيراً.

- جيد، أليس كذلك؟ لم تشعر نانا بأنها متمكنة وقادرة على

تولي الموقف.

- لا، ليس جيداً، ذلك يوزعني، حسمت مارياما.

- ألا تحبينه؟

- ربما... الأمر يحتاج للوقت ليتطور.

- تحدثي مع خالتك في أبتون بارك، قالت نانا ممتنة لوجود

خالة يمكن أن تتولى الأمر. هزت مارياما رأسها نضياً.

- كم مر من الوقت منذ أن تعرفت عليه؟

- لقد التقيته مرة واحدة... لا مرتين...

- إذن لا حاجة بعد للتفكير فيما يأتي.
- ماذا لو ضغط عليّ؟ قالت مارياما مترددة وقد بدت بعيدة.
- ألن تحدثني مع خالتك؟ خشيت نانا أن تقترف خطأ وأن تنصحها بشيء يتعارض مع تقاليد عائلتها. لم تأخذ طوال عمرها موقفاً من الحب كأمر للنقاش على مستوى أخلاقي.
- أفضل أن أبقّيها خارج الموضوع.
- بإمكانها أن ترشدك وتساعدك بشكل أفضل في اتخاذ قرار صحيح.
- إنها تتبع التقاليد فقط. لم تصل حقيقة بعد إلى بريطانيا على الرغم من أنها تعيش هنا منذ عشرين عاماً.
- ولكنها تعرف ما هو الأحسن لك.
- أنت تتفهمين موقفي بشكل أفضل.
- هل تحدثت مع بيا وبن؟ كانت نانا تخشى ألا تتدبر أمر دعم مارياما الذي تحتاجه.
- أنا أعيش عندك لذا فأنت من أتحدث معها حول ذلك.
- تمنيت مارياما لو كانت نانا هي كل من بن وبيا، لو كانت تستطيع أن تقسم نفسها وتصير اثنتين. لا وجود لامرأة من دون رجل، لا في هذه الحياة ولا في الأخرى.
- القرارات الكبيرة يجب أن تُتخذ على أساس جيد. نصحتها نانا من منطلق عالم التجربة الوحيد الذي لديها.
- هل يمكنني الوثوق به؟
- لا يمكن الوثوق بشيء في هذا العالم. ليست هناك استثمارات مضمونة مستقبلاً.

- الله، قالت مارياما.
- ماذا؟
- يمكن الوثوق بالله.
- أجل أجل، هو.
- بينتا تخشى الملحدين. تراهم مجانين وغير معول عليهم، فلتت الكلمات منها.
- هل تعني ذلك حقا؟ ضحكت نانا وتذكرت فجأة أنها قد بلغت الخامسة والأربعين.
- إنها تخشى الناس الذين لا يؤمنون بالله، قالت مارياما بجدية وأصرت من أجل أن تفهم نانا أهمية الموضوع.
- لا تجرؤ أن تزورني مادمت أسكن عند بريطانيين غير مؤمنين.
- أنت لا تخشين الملحدين أليس كذلك؟ أرادت نانا أن تحضنها لكنها سحبت نفسها بعيدا.
- ليس أنت، قالت متملصة.
- ولا داعي لتخافي. أنا غير خطيرة بالمرّة، طمأنتها. لم يشغلها موضوع وجود الله بشكل كبير.
- ولكن بن ويا ملحدان، قال بن. كان لمارياما جبهة معقودة قلقة.
- مادام أنه قالها بنفسه فذلك صحيح. هذا ليس بموضوع نتحدث بشأنه.
- لا أفهم، قالت مارياما مرتبكة.
- لا، عليك التفكير أكثر من ذلك. أنا فخورة بك. قالت نانا لتدير الموضوع إلى جهة أخرى.

- لِمَ أنتِ فخورة بي... فأنا لا أتدبر أموري، قالت مارياما غاضبة
بينما كانت دموعها تجري على وجهها. رأت نانا أن بشرتها كانت
فاتحة جدا ... هل كانت تستخدم كريم تبييض البشرة الخطر
الذي يسبب السرطان؟

- ولكن حبيبتي، وضعت نانا يدها على كتفها.
- طبعاً تتدبرين أموركِ، كانت نانا ذاتها من الطالبات
النخبويات ولا يمكن لها أن تتصور شيئاً آخر.
- سأساعدكِ في واجباتكِ. اقترحت نانا عليها متحمسة.
- أفضّل أن تذهبي معي إلى الطبيب. اعتدت أن يرافقني أحد
ما من العائلة.

- هل أنت حامل؟ طارت الكلمة من فم نانا.
- أنا طاهرة، أجابت غير متأثرة من سؤالها المخرج.
- ما بك؟ قالت نانا بشعور بالتقصير تجاهها.
- لا أستطيع التنفس، ترتفع درجة حرارتي وأشعر بدوار. كل
شيء يدور. قلبي غير هاديء بالمرة. لا أستطيع النوم. أحتاج إلى
مهدئات.

- هل الحالة جدية؟ قاطعتها نانا قلقة.
- كل صديقاتي يتعاطين شيئاً ما ليقاوموا الضغط. فتحت
مارياما الكمبيوتر باستعراض وانتظرت من نانا أن تتركها لحالها
لتكمل واجبها حول المرافقات الإنجليزية.
- سأحجز لك عند الطبيب وستحصلين على وصفة، قالت
نانا وظلت واقفة في مكانها عند الباب. ركزت مارياما على
الشاشة وتركتها واقفة.

- يجب أن تكوني على لياقة عالية عندما تبدأ الامتحانات.
علينا أن نقرر أي طريق ستختارين في توجّحك في الدراسة.
- عفوا نانا أفضل ألا أتحدث عن هذا قبل انتهاء الامتحانات،
قالت مارياما من دون أن تستدير.

- من الجائز أنك قد حلمت بدراسة ما، طب، قانون، علوم
سياسية، حاولت نانا بقولها أن تشجعها. لم تجبها مارياما.
- لم لا تنظرين إليّ عندما نتحدث معاً؟ أرادت نانا أن تعرف.
- ليس من الأدب أن أرفع عيني في عين شخص أكبر مني،
قالت مارياما بعناد وهي توليها ظهرها. فغرت نانا فاها ولكن
الكلمات خانتها. ذهبت إلى الصالة وأدارت التلفزيون وخفضت
الصوت لئلا تؤثر في تركيز مارياما.

بدأتا بممارسة رياضة الركض معاً في متنزه هولاند بارك
الذي تحبه نانا لحدائقه اليابانية، الأوبرا في الهواء الطلق
والمظلات الأنيقة والطواويس. كانتا منسجمتين بقامتيهما
الطويلتين. تبدوان تقريبا مثل صديقتين في عمر متقارب. كانتا
تركضان كل يوم أحد في الطريق نفسه بعد الظهر عبر ساحات
التنس وحول ملعب الكريكت انحدارا إلى أماكن لعب الأطفال
متابعتين إلى ممرات الغابة صوب المدخل قرب أفنيو هولاند
بارك. كانت مارياما هي الأسرع والتي ترفع من أداء نانا.

- نانا عليك بالمزيد من التمرين، ذلك مفيد لك.
- لا أستطيع التحدث في الوقت نفسه، لهثت نانا وجهدت من
أجل اللحاق بإيقاع مارياما. كانتا مثل طيرين جنباً إلى جنب
بحركة متزامنة. ينتقل الوعي من الرأس إلى الجسد إلى الأقدام

التي تحملهما مثل أجنحة. تخلفت نانا وتقلصت عضلات ساقيهما. وقفت لتستريح وترتخي عند جذع شجرة بلوط قديم وعر. عاندة نانا آلامها وتابعت بإيقاع أبطأ من دون أمل باللاحق بمارياما.

كانت تستمتع بأن تتبعها من على مسافة، تستمتع بتأمل أسلوبها الأنيق الحاسم بالركض.

انتابها تيار فجائي من شعور بالفرح.

- الدماغ يكبر عندما نركض. رياضة الركض تولد خلايا دماغية، قالت مارياما عندما جلستا في الجو الممطر تحت مظلة أحد مقاهي الأفنيو لترتاحا بعد جولة الركض.

- يبدو أنني بحاجة إلى لياقة أفضل وذكاء أكبر، قالت نانا بتهكم من ذاتها.

- لا أعرف شيئاً عنك نانا، قالت مارياما بصوتها الأنعم.

- ليس هناك الكثير لتعرفيه، لا تحب نانا أن يتحول الاهتمام صوبها.

- ماذا عن حياتك العاطفية؟ سألت مارياما بضحكة مكبوتة.

- لم يكن هناك وقت للحب في حياتي وفي المقابل فقد حالفني الحظ في اللعب.

- ألهذا السبب لست متزوجة؟

- لم أجد الشخص المناسب، ولكن إحصائياً يمكن أن يحدث هذا في أي وقت. تحاشت نانا ذكر هانس الذي يؤلمها الحديث عنه.

- هل تؤمنين بالإحصاء؟ مازحتها مارياما.

- إن كنت أوّمن بشيء فأنا أوّمن بأن المصادفة تسيرنا.
- أين عائلتك؟ تابعت مارياما ببراءة.
- إنها قصة قصيرة. أنا وحيدة والديّ وقد انفصلا عندما كنتُ في عمرك.. بعد امتحانات الثانوية مباشرة.
- ماذا عن بقية العائلة؟
- ليس لي تواصل معهم.
- ليس من الصحي أن تكوني وحيدة. عقدت مارياما حاجبيها.
- عندي أنت، هذا هو الأهم، قالت نانا وقد شعرت بأنها فازت بالجائزة الكبرى.
- نانا نانا. هزّت مارياما رأسها.
- في صحتك وصحة مستقبلك، رفعت نانا كأسها. صلصلتا بالكأسين ورشفتا عصير البرتقال.
- أريد أن أصير ممرضة مثل الخالة أمينة، قالت مارياما باندفاع.
- هناك حاجة كبيرة لهم. كتمت نانا خيبة صغيرة.
- ولكن قد تغيرين رأيك حين استلامك النتيجة، واصلت نانا.
- أريد أن أعود لأساعد الأطفال المرضى.
- ستكسبين أكثر بكثير إن بقيت في بريطانيا.
- أريد أن أخدم بلدي، قالت بتصميم. لم تعرف نانا كيف تتعامل مع مثالياتها.
- هذا فيما لو اجتزت الامتحانات، تنهدت.
- ألم تعينك الحبوب؟
- في البداية.

- خذي المزيد إذن حتى تنتهي فترة الامتحانات.
- أنت تريدين لي الخير نانا، ركزت مارياما على صحن الفطور المتأخر.
- أنا هنا من أجل ذلك عزيزتي، قالت نانا مبتهجة.
- أمي تريد صورتك، لكي تتخيل مكاني، قالت مارياما من دون أن تنظر عاليا.

- بالتأكيد، قالت نانا وهي تعلم أنها لا ترغب في أن توضع صورتها في كوخ في قرية ما مظلمة محقونة بالسحر الأسود وفنون السحرة. لماذا تفكر بطريقة بدائية جدا؟ هل كان هو تأنيب ضميرها لأنها لم تكن سعيدة كفاية بإقامة مارياما عندها وعدم مقدرتها على الارتخاء بحضورها؟ الانتقال جعل التركيز يكون على الجانب الاقتصادي. لقد صرفت أياها في تحريك أوراقها ثم إجراء حسابات لتعرف كم من السنين ستكون قادرة على العيش بالمستوى الحالي بهذا الرأس مال مع مصاريف مارياما ضمنا. والحسابات قد أفرعتها. في الوقت نفسه فقد اختفى أملها في أن توصلها علاقتها العابرة مع باتريك إلى نتيجة.

- هلا أرسلنا لأهلك صورتنا ونحن معا؟ اقترحت نانا.
- نعم، ولكن وحدك أيضا، أصرت مارياما، روزي فقط من رآك.
- إن كان ذلك يسعد أمك فلن يحدث شيء إن حصلت على صورة، تراجعت نانا وتركتها تنال مبتغاها.

الصورة المثالية قد كسرت بصياح وضجيج آخر الشارع. كانت بيردي التي دخلت في مشادة مع بعض زملائها. دفعوها وصاحوا بها، شيء مثل «غراب البين». همت مارياما بالنهوض لتساعدها ولكن نانا أمسكت بها.

- يمكن لتدخلك أن يكون خطرا، قالت لها، وامثلت مارياما وجلست لتريح نانا. أنقذت بيردي نفسها من دون خدوش وجلست مجددا في مكانها على المنصة.

- لحظة، ركضت مارياما إليها ووضعت بضعة نقود في قدحها البلاستيكي. رفعت بيردي يدها كشكر لها وعزفت مقطوعة بالهارمونيكا بفمها. كان على نانا أن تسيطر على نفسها كي لا تذهب وتوبخ تلك المراه لأنها أفسدت الأجواء الجميلة تماما. طلّت الخالة أمينة في يوم سبت بعد الظهر في هنري ديكنز كورت مع قدر من المينا كبير جدا انبعثت منه رائحة طعام مارياما المفضل، قطع دجاج في صوص زيت النخيل منقوع بالبصل والليمون والثوم والفلفل الحار. لم تستطع أن تدل كنغستون وحدها. لذا كان على أحد أولاد عمومتها أن يوصلها بسيارته، فكرت مارياما وخنقت المفاجأة التي لم تكن في محلها بابتسامة مشرقة بينما كانت تشعر بالأرض تميد وهي تحت قدميها. لم يكن لديها وقت بالمرّة لتضيف الخالة أمينة. كان عليها أن تنهي واجبين صعبين يجب تسليمهما يوم الإثنين. وللسبب ذاته غالبا ما كانت ترفض دعوات العائلة لنهاية الأسبوع.

لم تصدق أمينة أن لديها هذا الكم من الواجبات كل أسبوع وقد جاءت لتعرف ما الذي يقع خلف مناورات تهريبها. وإن كان ذلك حقا صحيحا مع كل هذه الدروس فلم لا تأتي بكمبيوترها معها إلى أبتون بارك وتنتهي واجباتها هناك في حضن العائلة؟

- نحن قلقون عليك، قالت أمينة برأس مائل وشفة عليا ممطوطة كشفت عن جسر من الذهب للسن الأمامي الأيمن.

حاولت مارياما أن تجعلها تفهم أنها لا تملك وقتا للزيارة كل اسبوع لما كان عليها أن تهتم بدراساتها وعملها والإنجليز (والتي كانت العائلة على انشغال كبير بأمورها ما يحول دون اهتمامها بهما). لم تقل ذلك بصوت عال ولكن ما خفف من تأنيب ضميرها أن أمينة والعم كانا بالقدر نفسه من الانشغال مثلها ولم يجدا الوقت ليهتما بها. أوضحت لها سبب رفضها للزيارات الأسبوعية بإحالتها الحذرة إلى حاجتها إلى هدوء لتجتاز كورس Advanced English و foundation في خمس مواد لنهاية الفصل الدراسي لكي تتمكن من الدخول إلى الجامعة وتتمكن بهذا من تمديد فيزتها الدراسية.

حالا سمعت أمينة الكلمة المكروهة والمفزعة «فيزا» صمتت وسألت عن المطبخ لكي تضع القدر على الفرن. لم تذكر مضيضي مارياما اللذين لا تعرف اسميهما. أن تقيم مارياما في عنوانين مختلفين كان وحده فوضى غير مفهومة لديها. شعرت مارياما بأنها ملزمة بأن تريها الشقة لأن ذلك هو ما كانت الخالة تتوقعه منها. راحت أمينة تجول في البيت بحرية تامة كأنها كانت تعرف كل قطعة فيه وتفصيله. طريقتهما بتفحص الخزف الصيني غالي الثمن والشمعدانات وأباريق الشاي جعلت جلد مارياما يقشعر رعبا. لقد حرصت طوال الوقت على أن تحوطها لخوفها الكبير من أن تأتي على إلحاق ضرر بالعفش المؤجر الذي كانت نانا مسؤولة عنه.

أخيرا أجلستها على مقعد في المطبخ عند المائدة حيث قدمت لها شاي المساء مع كل ما يتبعه. حددت أمينة نقاط شكواها

ولامتها لأنها لم تخصص وقتا كافيا للعائلة ولهذا فقد تحالفت مع زوجة أخيها روزي التي وبختها عبر الهاتف ولم تفهم ما الذي ألمّ بمارياما في لندن. ابنتها الصغيرة التي ربتها من أجل أن ترعى وتطيع أفراد العائلة الكبار. هل يعقل أن لديها واجبات دراسية بهذا الحجم؟ كررت أمينة بصوت روزي العالي الرفيع. كان فوق استيعابها أن تفهم وضع مارياما المضغوط بالواجبات التحريرية. على الرغم من أن أولادها يدرسون أيضا وسيخرجون مهندسين لم تقبل أن يكون وقت مارياما المخصص للعائلة محدودا.

- سأتي لزيارتكم في الأسبوع القادم، وعدت مارياما دائخة من زيارة خالتها المفاجئة. مجيء أمينة بنفسها إلى كنغستون شكّل ضغطا عليها. هي لا تريد المجازفة بمجيء أمينة إلى هنا كل يوم سبت بعد الظهر ومع مأكولاتها الشهية لأنها لا تثق بحصولها على طعام جيد عند الإنجليز.

- كل العطلة الأسبوعية؟ حققت أمينة معها مستمتعة بكل قضمة من قطعة معجنات الـ «سُكون» مع المريى والكاسترد كريم. صبت مارياما لها المزيد من الشاي (المرّة الخامسة) لتلينها وتؤكد لها أنها ستكون سعيدة بابتعادها قليلا عن الدراسة وارتخائها في شقة العائلة المزدحمة الضاحجة بستاثيرها السميكة ذات الثنيات والكشاكش المسدلة دوما في الصالة الكبيرة والأرائك الجلدية والثريات بحرص على عدم دخول ضوء النهار وأنها تعشق السهر منتصف الليل معها أمام الشاشة المسطحة الضخمة التي كانت تعمل (غالبا من دون صوت) بمسلسلات

ميلودرامية نيجيرية الإنتاج، وأن ترى المشاكل العائلية المضخمة
تحل في النهاية السعيدة لقصص الحب بينما تقرش رقائق
البطاطا الحلوة المعمولة في البيت.

كانت أمينة مستمتعة بالخدمة وظلت جالسة في مكانها
أطول فترة مما تصورت. وبعد كوب شاي إضافي بالحليب والسكر
أرسلت رسالة قصيرة لابنها الذي أوصلها عبر لندن إلى هنا
تخبره بأنها جاهزة للمغادرة. شددت على مارياما كي تتذكر أن
تأتي بالقدر معها في الأسبوع المقبل إذ يصعب عليها الاستغناء
عنه. لدى أمينة ثمانية قدور متشابهة ولكن مارياما لم تظهر
علمها بذلك ووعدتها بأن تأتي بالقدر معها. سُمع صوت منبه
سيارة عال من شارع سيردار فأسرعتا بفضّ الجلسة.

- لم لم يدخل عمر؟ سألت مارياما وهي ترافق أمينة عبر
ممرات المنطقة الخضراء بين العمارات السكنية.

- لا يريد إزعاجنا، قالت بشكل مبهم ولوّحت لابنها في السيارة
ليسلم على ابنة عمه ولكي يفتح لها باب السيارة أيضا. دخلت
مارياما بعد أن غابت السيارة عن نظرها تماما. الوداع جعلها
حزينة. والشقة بدت غريبة ومتروكة بعد زيارة أمينة. علمت في
البدء أن العائلة موجودة إن احتاجتها لتقدم لها النصح والمشورة
وكان ذلك بمنزلة دعم لها ولكن ما يترقبونه منها والشروط
المفروضة عليها صارت حملا ثقيلًا. كانوا يطالبون بالكثير من
وقتها الثمين.

كانت واعية بشكل دائم للوقت في لندن، الوقت كالسيف
يطاردها مثل ظل متوعد، كل ثانية في الدقيقة محسوبة،

الساعات، الأيام، الأسابيع والشهور. المكان الوحيد حيث الوقت يسكن كان عند الصلاة. ولكن قد بلغ بها الحال حدا لم تكن فيه قدرة على التركيز لخمس دقائق أثناء أداء الصلاة.

صحت من نومها منتصف الليل بخفقان في القلب وتشوش في نظرها تبعه صداد حاد. خشيت أن يكون قد أصابها شيء خطير. أن يكون «مربوط» (*) قد ألقى بالسحر عليها.

كانت تظن أن الشعور بأنها ستكون كما لو كانت في بلدها في لندن أمر مضروب منه، كما سمعت في حلمها عن لندن. ولكنها اكتشفت أنها لم تكن هي التي كانت في بلدها حيث الأطفال كانوا من ملكية العائلة ولا عليها إلا أن تطيع. كان لديها هناك توازن في داخلها وكانت تعرف من هي. كانت تعرف القوانين وتعلم متى تجاوزتها ومتى ستنال العقوبة العادلة من الله أو الخالة روزي. رأسمالها الأكبر كان سمعتها. كانت دوما على استعداد لمساعدة الآخرين، وإخوتها الصغار بالرعاية، على الأخص مادلين التي كانت تتعرض دائما لمشاكل، والأطفال في الثكنات عند محل تجميع القمامة. كانت فخورة لأنها حازت احترام الرجل الكبير لها. كان يمكنها أن تلاحظ إنصاته لها على الرغم من أنها كانت أصغر سنا منه بكثير وأن لكلماتها تأثيرا فيه عندما كانت تترجاه ليحلب المزيد من الكاسافا واليام للأطفال لكي لا يتشاجروا من أجل الطعام. كان يدفع لها أجرا قليلا تسلمه للخالة روزي. روزي المسكينة قد تغيرت بعد أن فقدت عملها في البنك. صارت مرة ولاذعة وانتظرت أن تعوضها مارياما ما خسرت من دخلها.

(*) المربوط هو إمام القرية، خليط بين الإمام ودكتور السحر الذي يشفي ويلقي اللعنات.. إلخ، الكثير من القرى في غامبيا تختلط فيها التقاليد والمعتقدات بالدين الإسلامي الذي يمتقونه.

في لندن حدث تغيير غير محسوس لها. قد تم استظهار مارياما أخرى نتيجة لإطلاق العنان والاستقلالية الأكبر. إنها تحن إلى نسيان نفسها والكف عن التفكير فيما كانت عليه، وأي الخطوات عليها أن تتخذ. وهل ما تفعله الآن هو الصحيح. لقد تعبت كثيرا من مارياما لندن التي كانت واعية للوقت دائما وهو يسير أسرع وأسرع وها هو الامتحان المخيف سيحل على رأسها. لم تعيش في الوقت الحالي. لم تكن محاطة بالوقت مثل طير أو سمكة في محيطها. كانت منفصلة عنه بشكل غريب يعبرها مثل سرعة شيطان شرير. تمنى لو أن الزمن يتوقف للحظة لتتمكن من التوقف ورؤية ما حولها وأن تترك النظرة تغطس في أشجار القرم الكثيفة بمحاذاة النهر وأن تجد لها طريقا ووجهة. اتخذت مارياما من حبس نفسها في غرفتها بعد ساعة طويلة من الاستحمام عادة لها. كأنها لن تنظف كفاية، وكأنها تود لو تفرك وتزيل وسخ العالم عن جسدها. من باب غرفتها المغلق انتشر سكون عميق في بقية الشقة ما أثار أعصاب نانا.

- ما الذي تفعليه في الداخل؟ خشيت أن تكوني قد ألقيت بنفسك من الشباك. لم تستطع أن تحجم عن قول ذلك عندما ظهرت مارياما متأخرة أخيرا لتناول العشاء الذي حفظته لها نانا دافئا.

- الحمام يهدئني، خفضت مارياما بصرها.
- أفضل من حبوب الأعصاب.
- بحاجة إلى أن يتوقف الوقت. جلست مارياما عند الطاولة تنظر في الصحن الخالي أمامها.

- يجب أن تأكلي شيئاً. لقد نحفت، قالت نانا ولم تقترب من سرّ الصلوات. رأت مارياما تشبه عارضات الأزياء على المنصات المصابات بالأنوريكسيا ولكنها لم تجرؤ أن تقولها بصوت عال خوفاً من غضب مارياما. نهضت مارياما مرغمة وراحت ورفعت غطاء القدر ولم تشته أن تأكل ما رأت. بدلاً من ذلك وضعت الماء على النار لتعد شايًا.

- ألا تحبين أكلي؟ بإشارة مناكفة لقدر أمينة الذي لم يُسلم بعد إلى أبتون بارك. لقد استمتعت بطبق أمينة دجاج «ياسا» وتسَلّت بوصف مارياما لزيارتها وقد شعرت ولو لوهلة بأنها من العائلة.

- لستُ جائعة، تمتمت مارياما. الآن فهمتُ تحذيرات أمها. «اخشي ما تتمنيه. سيصير عدوك عندما يتحقق». منذ كانت طفلة كانت تدعو الله كي يكون هناك طعام كاف للأطفال والنساء بعد أن يأخذ الرجال نصيبهم. لديها الآن ليس فقط الطعام بل كل شيء بفيض ولكن الجوع خانها.

- أنا قلقة بشأنك، ما الذي يؤذيك؟

- لا شيء. رفعت مارياما كتفها. لم تستطع أن تقول لنانا إنها تخشى ألا ترقى إلى كل التوقعات بشأنها ولديها رغبة كبيرة في ترك كلية Southwark.

- كيف الحال مع الدراسة؟ تحركت نانا في حقل الأغنام.

- الحبوب تؤدي مفعولها، قالت متملصة لا ترغب في أن تكشف لنانا أنها ومن أجل أن تكون في الجانب الأكثر أماناً ترجّت أمها أن تقصد الإمام وتجعله يصلّي من أجلها ويعمل لها

تميمة ترتديها بحبل من الجلد حول خصرها . يقتضي الأمر وسائل قوية إن أرادت الحصول على فرصة لاجتياز امتحانها ولكن لا الصلاة ولا التعاويذ قد عادت عليها بعد بتأثير إيجابي بما يخص مستوى درجاتها .

- أنت لا تقولين شيئاً قط .

- لقد درست وتعلمين كيف هو الحال .

- كورس إنجليزي متقدم وتأهيل ليس تماماً مثل ماستر في الاقتصاد . قاطعت نانا نفسها وشعرت بأنها قد أخطأت بقولها . ولكن مارياما ابتسمت فقط وأعدت لها كوب شاي وإبريقاً لنانا وانسحبت إلى غرفتها لتقيم وضعها . لقد اكتشفت أنها لم تكن قلقة بشأن عائلتها كما كانت قلقة بشأن امتحاناتها . امتحانها يشغلها تماماً . لا تفكر ليل نهار في غيره . وكأن القريب والبعيد تبادل الأمكنة . تساءلت فيما لو كانت قد تضررت وصارت بريطانية بداخلها بسبب إقامتها عند الإنجليز .

أليس من المحتمل أن تكون سعيدة تماماً من دون أن يتعين عليها دفع سعر لذلك ؟

أتت مارياما على كل ما في الزجاجة من حبوب ووبخت نانا لأنها لم تحرص على شراء علبة أكبر ولم تصر على الحصول على وصفة طبيب جديدة لها . ولتسلم نانا فقد أعطتها ما لديها . لقد تركت لمارياما أن تنال مبتغاها دوماً وتقرر نظام البيت المشترك . لم تلاحظ أنها تغيرت وأن تواضعها اللطيف كان يتفجر مراراً إلى غيظ . لديها ما يكفي لمحاربة الخوف الذي يقض مضجعها لفكرة أن صورتين لها موضوعتان في الواجهة عند الأم ، مفتوحتان

بلا دفاع ضد القوى الشريرة. فاجأها أنها ستكون ضحية لهذا النوع من التصورات البدائية. أنها كانت تحت سيطرة مشاعرها ولم تستطع أن توقف هذا الجنون الفظيع العداء.

لَمْ لَمْ تنتبه قبل الآن إلى أن العديد من المحاسبات والبائعات في المحلات في شارع هولاند بارك كانوا من السود؟ وأن ذات المنظر يقابلها عندما تذهب إلى السيتي، حيث كانت تجلس مرات عديدة خلال الأسبوع عند النافذة في المقهى عالي السقف مقابل مبنى روار في شارع باسينغال ترقب الداخل والخارج على أمل عبثي في أن ترى باتريك يأتي عبر الباب الدوار ويظل واقفا ينظر عاليا تجاه قطعة المربع الصغيرة من السماء التي تسمو فوق ساحة المرمز، حيث سيمنحها ذلك فرصة أن تترك البار وتعبر الشارع قطريا كأنما بالمصادفة تجلس عند النافورة وحينها لن تستطيع نظرتة أن تتجنب المرور بها.

بحوث نانا كما أطلقت على جولاتها إلى السيتي، أريكها حشد من الناس السود ببذلاتهم المخططة ومحفظاتهم. كان البهو في مبنى سيتي هول مملوءا بالسود في كل مكان، تحت أشجار النخيل، عند نضد الاستقبال، في الطريق من وإلى المصعد. لَمْ لَمْ تلحظ قبل ذلك أن السود قد اجتاحوا لندن؟ تدفقوا أمواجا جارفة وغمروا الجزر البريطانية. لم رأت هذه القامات السود بالوجوه الصقيلة وعظمة الوجنات العالية في كل مكان؟ هل كانت مريضة؟ هل قمعت السود في صورة الشارع ولم تود رؤيتهم؟ تذكرت أن مارياما قد استغرقت في البدء لعدد السود الكبير في لندن، ولكن نانا لم تأخذها على محمل الجد وقالت إن ذلك كان من باب التمني.

هل كان الخوف من أن تحط الصور عند أم مارياما في أيدي الناس الخطأ الذي استظهر هذا السرب من السود أنيقي الملبس وجعلها ترى رؤى؟ منطقها كان يقول لها (ولكن المنطق لم يكن له وزن) إن لندن حاليا كانت مضيضة ولا بد لقمة سياسية أو مؤتمر عالمي كان تمثيل أفريقيا فيه عاليا. من خلال المظهر والملبس ينبغي أن يكونوا من جنوب أفريقيا، هؤلاء الذين كانت تعرفهم أثناء اجتماعاتها في فرع روار جوهانسبيرغ. كانت تشعر بارتياح بصحبة زملائها من جنوب أفريقيا مستمتعة بأسلوبهم الأنيق، اعتدادهم من خلال بلاغتهم وتعاليمهم العفوي. وعندما استرجعت التفاصيل تذكرت علاقة قصيرة كانت لها مع أحدهم من وسطاء جوهانسبيرغ التجاريين الشرسين من الشباب.

لم تكن حشود السود في المدينة فقط التي داهمتها في داخلها وعتّمت على ذهنها. كانت هنري ديكنز كورت محتلة من قبل العوائل السود وبقية صغيرة من البريطانيين البيض المتعبين اجتماعيا، متقاعدین محنيي الظهر ينبشون في القمامة من أجل بقايا الطعام والقناني الفارغة. شباب يحملون سكاكين في أذرعهم وشعرهم ذاك الراسقفاري. لم تع إلا الآن وجودهم الكثيف في الفناءات بين المجمعات السكنية للدخل المحدود ذات الطوابق المنخفضة. كانوا هناك طوال اليوم يركلون بهوس علب البيرة الفارغة التي تصيب أي شيء كان بقرقة تشير الأعصاب وتفسد عليها فرحتها بوجود مارياما عندها في البيت.

اجتاحها السود حتى في أحلامها. كان هناك حلم بالأخص أو يكاد يكون كابوسا يتكرر. كانوا في سيارة الفندق الجيب التي

توقفت في مكان موحد أمام بنائيتين إسمنتيتين متطاولتين. كانت العيادة الخارجية مزدحمة في الداخل بنساء وأطفال بطول الممر الضيق. وقضوا مثل سردين محشور في علبة، وقد جلس على الأرض من كان لا يستطيع الوقوف على قدميه لمرضه. أدخلوا مجموعة السواح في صالة المستشفى التي كان هناك فيها بالكاد ثلاثة أسرة جلست عليها أو استلقت فوقها نساء حوامل وأمهات ولدن للتو يحملن أطفالهن الرضع على أذرعهن. كن يرتدين ملابسهن اليومية المزركشة وقد أشرقن كزينة زهور للمبنى الإسمنتي الشاحب.

كان السكون والسلام يعمّ والأجواء رائعة. بنت حامل فاجأها المخاض فاستلقت بوجه مشدود بانتظار مساعدة تخلصها. شابتان انصب كل اهتمامهما على الوليدتين اللذين انفصلا عن جسديهما قبل قليل. كان وقع المشهد على نانا عارما ما جعلها تجلس على أقرب سرير.

ابتسمت المرأة التي كانت على السرير لها وأشارت إلى الطفل الرضيع. استحسنت نانا الطفل الجميل. شرعت المرأة بالحديث مطولا بلغة قومها. وكأنها تسابيح توقفت فجأة مثل انقطاع تيار كهربائي. ناولتها الطفل بملامح جدية. لم تعرف إن كانت تجرؤ على قبول حركة المرأة، إن كانت تصلح لحمل طفل غريب. لم تحمل طفلا من قبل بين يديها، وكانت خائفة لئلا تأتي على اقتراف خطأ بسبب ارتباكها الدائم ولكنها تغلبت على ذلك واستقبلت الطفل باللفة.

كان في غاية الصغر، في غاية الهشاشة والحساسية. أصغر

وأهش وأكثر نعومة بكثير من دمي الطفولة التي كانت لديها.
دمية سوداء حية، طفلة صغيرة في القمط. تحدثت الأم إعجاباً
بلغتها الملحنة وأرتها كيف دعمت الظهر والرأس الذي سقط
فجأة إلى الخلف وإلى الجانب.

لم تكن واثقة بأنها يمكن أن تحتل الحياة والموت بين يديها
فأعادت الطفل إلى أمه التي حيتها برأسها وهي تتكلم مبتسمة
لها وراضية.

بوداع سريع (لم تستطع أن تترك جمع السياح ينتظر فترة
أطول) ناولت نانا الأم ربطة نقود، ولكن رفضت الأم أن تأخذها
شاكراً وقالت بهزة رأس:

– أعطيتها للمستشفى، أعطيتها للمستشفى، كررت، hospital
no money.

ألقت نانا النقود في حقيبتها ووعدتها بحركة جسدها ولغة
الأصابع أن تفعل كما قالت. نامت البنت الصغيرة بأمان عند
صدر أمها. شعرت نانا بزهوها الأمومي وهو يسري في جسدها.
تساءلت إن كانت هي الأم الشابة على السرير ويضرب من الجنون
أوهمت نفسها بأنها المرآة البيضاء الغريبة. كانت نانا تستيقظ
من نومها كل ليلة في المكان نفسه في الحلم وهي في فوضى
غائمة من دون أن تعلم أين مكانها ومن هي.

خوف نانا تسلل في غفلة إلى الشقة، إلى الجدران، على
طوال ألواح الخشب وفوق في السقوف. لقد انحبست في الخوف
وتصورت أن مارياما ومنذ البدء كان لديها مخطط لكي توقعها
في مصيدة.

مع الوقت أقنعت نفسها بأن مارياما كانت شريكة مع الأم التي كانت تحرك الخيوط من هناك. وأنها بخطة مشتركة منهما تريدان ومع الصور التي أرسلت أن تلقيا اللعنة عليها حتى تمرض وتموت.

خجلت نانا من نوبات الخوف وعاشت حياة مزدوجة، واحدة مع الخوف وأخرى مع مارياما. بدأت تشعر بعدم ارتياح بصحبتها وتتصرف بشكل غريب وبتشنج حالما تظهر. كانت قد غلّفت نفسها بخوفها إلى درجة لم تشعر فيها بالتغير الذي طرأ على مارياما. وكلما اشتدّ رد فعلها لضغط الامتحانات وأنانية نانا كبر الشك في داخل نانا بأن شيطاناً قد سكن بيتها.

ومن أجل أن تحصن نفسها ضد فنون سحر قارة بأكملها مجتمعة في قامة مارياما النحيلة وشخصها القوي شرعت بممارسة الركض بشكل مكثف وبأقصى حد من أجل الحصول على بنية جسدية بروح اليونانيين القدماء «العقل السليم في الجسم السليم». كان الأمر في البداية من أجل أن تبتعد عن الخوف وتستعيد السيطرة على نفسها وجسدها، وأن تجعل تلك العضلات المتمردة تعرف من هو الأمر الناهي. ضغطت على نفسها إلى أبعد حد وطورت وقتها يوماً بعد يوم. كانت ساقاها تركضان منها منفصلتين عن رغبتها. لم تكن هي التي تركض ولكن كائناً آخر غير معروف تكشّفت قوته تدريجياً فيها. كانت ستجاري إيقاع مارياما لو كانت تحضيرات الامتحانات قد أبقت لها وقتاً للتمرين. بدأت نانا في التفكير في المشاركة في ماراثون نيويورك الذي طالما حلمت به لولا منصبها الوظيفي كمديرة

في روار الذي لم يكن يمنحها الوقت لتفعل شيئاً حياله . عندما تنهي مارياما امتحاناتها ستقترح عليها أن تتدريا معا لماراثون السنة المقبلة وتجد مسافات أبعد مما يسمح به هولاند بارك .

كانت نانا توشك على عقد رباط حذاء الركض بينما كانت متهيجة ذهنيا لتمرين اليوم . دخلت مارياما مسرعة عبر المدخل وقد أوشكت أن تقلبها . حملتا في وجهي بعضهما مفزوعتين مثل جسدين غريبين كل من كوكب مختلف . ضحكت مارياما من الموقف الأحمق . شعرت نانا بعدم ارتياح جسدي لأنها خرجت من تركيزها وتمنت لو كانت قد غادرت البيت قبل مجيء مارياما .

حالا سمعت ضحكة مارياما المعروفة تراءت تلك الصور المشؤومة عند الأم أمامها وانهاالت الأسئلة على مارياما . أين تحتفظ أمك بالصورة؟ هل هي معروضة أم مخبأة في جارور؟ ما الذي فعلته بها؟ هل تأخذها معها عندما تخرج من البيت؟ كانت تسأل بشكل مرضي .

- إنها فخورة جدا بها، تريها للجميع في القرية، أكدت لها مارياما متقبلة بصبر استجوابها .

- ليصيبها أحد بعين الحسد . ضحكت مارياما لمحاولتها التفكير على الطريقة الأفريقية .

- أريد أن ترجعها لي، ألحت نانا بهستيرية . وماتت ضحكة مارياما .

- لا يمكن أن تكوني جدية نانا، قالت لها . كانت قد تحسنت

وصارت تعمل بتركيز أفضل وتدبرت أمرها بالقليل من النوم بعد أن بدأت بتناول الـ «ريتاين» الذي اشتراه صديق لها عبر النت .

- حتى إن لم تفهمي عليك أن تتقبلي حقيقة أن ذلك مهم،

مهم جدا بالنسبة إليّ. أصرت نانا.

- ألا تثقي بنا؟

- أثق بكما ولكنني لا أعرف كل القرية.

- لا، أنت لا تثقين بنا، قاطعتها مارياما. كانت متحدة بأمها

والقرية، في الجانب الذي هم عليه.

- لا أريد غير استرجاع هذه الصور.

- إنها إهانة لأمي.

- بخلاف ذلك لن يهدأ لي بال.

- لا يمكنني أن أفعل هذا بأمي.

- أنا لا أطلب منك غير هذا مارياما. خرجت نانا إلى الشرفة

لتستنشق هواء نقيًا. تبعتها مارياما.

- سأطلب من أمي أن تحذر من أجل الصور كي لا يحدث لها

شيء. هدأت مارياما ثانية. لم تكن نانا مرتاحة لوقوف مارياما

من خلفها تكاد تدفع بها صوب السياج. دفعتها جانبا ودخلت

المطبخ ثانية.

- أشعر بوحدة مع أفكاري، تمتمت نانا ونظرت أمامها.

- ولكنني هنا عندك. ألم تشعرني بذلك نهائيا؟ تقربت مارياما

ثانية منها ما جعل نانا تشعر بالتهديد.

- أم أنني غير موجوة بالمرّة؟ قالت مجروحة.

- أنا في طريقي إلى المتنزه. لم تستطع نانا أن تحتل قريبا

الجسدي الذي فرضته عليها.

- سأأتي معك. لم يكن لدى مارياما الوقت لجولة ركض ولكن

نانا كانت بحاجة لها.

- دعيني. تحاشت نانا مارياما وكانت تظن أنها رأت ظلا خلف كتفها.

- هل صحبتي سيئة لهذا الحد؟ وقفت مارياما أمام الباب.

- أنتِ تسيئين فهمي. لهت نانا.

- أنتِ لا ترينني كما أرى أنا نفسي. خطت مارياما جانبا وتركته تعبر.

- نحن مثل الأواني المستطرقة، قالت نانا وتناولت جاككتها المطرية وفتحت الباب. وقفت مارياما جامدة في مكانها ونظرت إلى نفسها في المرآة فوق الصوان ثم ألقت بكل ما فيها من قوة بالتمثال البرونزي من على رف القفازات على وجهها بالمرآة. سمعت نانا ذلك الصوت الخيالي، تشظي زجاج المرآة فأسرعت لتدخل ثانية.

- أنا آسفة نانا، ولولت مارياما وراحت تلمّ الشظايا بحركة وهيجان. لقد جرحت أصابعها وسال الدم. نزلت بقع كبيرة من الدم على الأرضية. أقعدتها نانا على الكرسي في المطبخ حيث الأرضية أسهل تنظيفا ولن يؤثر القليل من الدم فيها. لفّت حول أصابعها النازفة ورق الكلينيكس وأخبرتها أنها ستتولى جمع الشظايا ولا عليها إلا أن تبقي يديها ساكنتين لكي يتوقف الدم. عليها أن تفهم أن الشقة مؤجرة ويتعين تسليمها كما تم تسليمها. نظرت إليها مارياما نظرة غائمة من مكان بعيد ولم تشعر بأنها كانت قريبة منها. تركتها نانا تجلس هي وأصابعها المتشنجة وراحت لتكنس السجادة عند المدخل. عليها أن تسرع بإيجاد شركة تنظيف سجاد وأن تأتي بين وبيا من أجل أن يعترفوا

أن عليهما أن يقررا مكان إقامة مارياما ريثما يجدون لها مكانا في قسم داخلي. لم يكن من الصحي ألا تعرف إنسانة شابة إلى أي مكان تنتمي. يجب أن ترتاح في إقامتها عندهم وأن تكون فرحة وسعيدة وإلا فلا قيمة لكل تعبهم.

وقفت نانا في الطابور عند أحد الحاسبات في تيسكو. كان أمامها امرأة سوداء ضخمة بثياب حفل مبهرجة ومن خلفها رجل طويل نحيف ببذلة بيج متهدلة. كانت أنفاسه السود قريبة جدا منها. تحرك الموبايل في جيب سترتها. لقد نسيت موعدها مع جاكوب.

- عذرا جاكوب، الخط ليس واضحا هنا. وأنا محاصرة بالشياطين، قالت كما لو كانت ظاهرة يومية. خطت خارج الطابور ودفعت السلة بقدمها إلى الأمام وتحركت بسرعة صوب المدخل.

- شياطين؟ فكر جاكوب في نبرتها الخفيفة.

- أنا أرى سودا من حولي في كل مكان، تابعت.

- لا أعتقد أن هذا غريب في لندن المزدحمة بالمهاجرين من المستعمرات القديمة، قال جاكوب كأنه يقولها لمريض.

- لم يكن الأمر هكذا في البداية، والآن هم في كل مكان، اشتكت نانا.

- كيف الحال مع مارياما؟ أراد جاكوب أن يعودا إلى الموضوع.

- إنها واحدة منهم. وصلت نانا في مشيها إلى الباب الأتوماتيكي ووقفت تنظر أسفل إلى بيردي وعشها. كانت تجلس كعادتها في مكانها على الدرج الإسمنتي تحرس مدخل قصر الاستهلاك.

- واحدة ممن؟

- الشياطين.

- ما الذي حدث منذ آخر جلسة؟ قال جاكوب غير راضٍ عن تطور زيونته هذا، بالأحرى النقص في التطور.
- إنه غزو. بدأت نانا تتعرق تحت ملابسها.
- من الطبيعي أن ما نركز عليه حالياً نراه في كل مكان. إنها مارياما من ترين. لقد تمكنت منك. سيختلف الأمر عندما تصير جزءاً من حياتك.

- إنها تخفي نفسها عني، تخفي وجهها خلف قناع.
- لابد أنها مثل كل الشباب الذين يحمون حياتهم الخاصة.
- إنها تتجسس عليّ من خلف القناع. أسرّت له نانا.
- أين المراه ذات المنصب الوظيفي والتعليم العالي فيما تقولينه.

- أنا لم أعد نفسي.
- ما الذي حدث لك؟
- لقد أرسلت مارياما بعض صوري إلى أمها هناك.
- وما المشكلة؟ قال تعباً.
- أخشى أن يقوم أحد ما بعمل سحر ضدي.
- من الذي له مصلحة في هذا ولماذا؟
- أنت لا تعرف كم هم فقراء هناك.
- أنت راعية مارياما، لا أحد سيجرؤ على إصابتك بضرر.
- إنها تقتحمني بنظرها وتعلم ما أفكر فيه.
- لم تؤمنين بهذا الهراء؟ قال جاكوب مقاطعاً.
- لا، لا أفعل، قالت بغضب.

- ما الذي تتحدثين عنه إذن؟ شعر جاكوب بأنه يضيع وقته.
- لقد حصل لي شيء... لا أستطيع... الناس الذين تزاحموا في الخروج من السوبرماركت أتوا على دفعها بأكياس تسوقهم.
- طبعي أن يحدث شيء. لقد غيرت حياتك جذريا. ولكن كفي عن تسميته بالسحر.
- لا سيطرة لي على شيء.
- يجب أن تتحلي بالصبر. لم يتم بناء روما في يوم واحد.
- مارياما غريبة عني جدا.
- ولكن هذا لا يعني أن تجعل منها شيطانا.
- لماذا أفعل هذا؟ قاطعته.
- لكي تفهمي لماذا.
- أفهم ماذا؟
- أنك فقدت السيطرة.
- من حولي ضجيج عارم، أنا مضطرة إلى التوقف. غرق صوت نانا في الضوضاء.
- سأفكر فيما قلته وأعمل به، قالت نانا بأدب وهي تسأل نفسها إن كانت بالفعل في حاجة إليه بعد الآن، وإن كانت جلسات تدريبه قد أخذت مداها وانتهت. وضعت الموبايل في جيب سترتها وعادت إلى الطابور الذي صار خلال ذلك أطول بكثير. اشتاقت فجأة إلى هانس، إلى مراعاته ونظرته المتوازنة، تفهمه لخصوصيتها ونصائحه الحذرة التي لم يتجاوز فيها الحد إطلاقا. ولكنها لم تسمع منه منذ انتقالها إلى لندن وهي لم تستطع أن تعود زاحفة إليه.
- اتفقت نانا مع بيا بشأن المرور بهما في استراحة الظهيرة

بين الساعة الثانية عشرة والثانية. كان هذا هو الوقت الوحيد الذي كان كلاهما يستريح فيه. كانت الشركة قد تفجّرت في الفترة التي أقامت مارياما فيها عندهم. كان في حسابهم أن العمل الاستشاري للوحدة الأوروبية ومنظمات المساعدات الإنسانية سيقبل مع الأزمة الاقتصادية ولكن الأمر كان على العكس مع B&B للاستشارات. أصرت بيا أن يتحدثوا هم الثلاثة معا في تقديرهم للموقف، «مشروع مارياما»، كما حدّد بن بطريقته التهكمية في جدول أعمال اجتماع الظهر. كان رأيّه أن السيدات يمكن أن يجدن حلا من دونه ولكنه ضحى بنفسه فهو لا يملك لا الوقت ولا يقوى على تلك «الشؤون المنزلية» منتصف إعداده لتقرير تقييم صعب لقسم التنمية العالمية «DFID» الذي كان من أهم الشركاء لـ B&B للاستشارات.

- النقطة الأولى: كان من المفترض أن تكون مارياما قد خفّفت علينا يومنا. النقطة الثانية: أن تكون مع بيا لتؤانسها عندما أكون بعيدا. بدأ بن الحديث بفعالية كأنه اجتماع عمل.
- لدينا نزيلة قد بدأت الدراسة وليس مساعدة عائلة. علينا أن نكون على بينة من هذا. قاطعته بيا.
- النقطة الأخيرة كسيدة مرافقة لبيا قد تم العمل بها جزئيا، واصل بن متجاهلا ملاحظة بيا.
- أنا أحبها كثيرا. إنها ذكية. ذكرت بيا، والذكاء كان أعلى درجة في مقياسها.
- نحتاج نحن ومارياما إلى فرصة استراحة من بعضنا. قال

بن بشكل قاطع. لم تتصور نانا أن الأمور كانت بهذه الدرجة من
السوء.

- كما تعرفين أننا مختلفان بن وأنا. إن أخذت مارياما قرارها
بالإقامة عندنا رغم هذا فمن رأيي أن نمنح الأمر فرصة. لقد
اعتادت على إيقاعنا. وسيكون من الأفضل لها أن تركز مائة بالمائة
على امتحاناتها بدلا من الانتقال وسط الوضع هذا كله. أكدت
بيا. بدا الأمر كأن الأدوار تبادلت. كان بن هو المؤيد لاحتضان
مارياما قبل، بينما أبدت بيا تحفظها.

- الكثير من الوردية في هذا. حرك بن ذراعيه يأسا من الموقف.
- أنت تتصرف مثل طفل مدلل من تلك الفترة التي كان
لديك فيها مربية وخدم. خرجت بيا عن طورها.

- لا داعي لأن ندخل في الخاص، قال بن بعصبية في المقابل.
- مارياما ليست خادمتنا، صرخت بيا بصوت غراب مبحوح.
- أرجوك، لدينا ضيفة. حاول بن أن يهدئها.
- نانا طرف في القضية. لها الحق في معرفة وضعنا هنا،
عارضته بيا. هز بن رأسه. كان قد نحف وبدا منهكا جدا.

- ما قول مارياما؟ قالت نانا.
- لقد تحدثت معها. ترددت بيا.
- هل قبلت عرضك... عرضكما بالعودة للإقامة معكما؟
- دعيني خارج الموضوع. أبقى بن يده مرفوعة مستنكرا.
- ولكن لا فائدة إن لم تتفقا. لم تكن نانا مطمئنة إلى الوضع.
- بن حبيبي، حالما تنتهي من تقرير الكونغو ستتحسن الأمور.
ناشدت بيا فيه أنا الراسخة القديمة. ولكن لم تبق من طاقة.

تملك نانا تأنيب ضمير لأنها فرضت على الودودين مسؤولية
لم يكونا قادرين على تحملها علاوة على ضغط العمل الكبير.
كانت نيتها حسنة. لكي تمنح مارياما الشروط المثلى لإقامتها
في لندن. في ضوء نكستها بدا كل من بن وبيا على سيطرة تامة
من حياتهما.

- أألى يكون من الأفضل للجميع أن تنتقل مارياما بشكل دائم
عندي؟ كان من الصعب على نانا ألا تعيش مارياما معها.

- في رأيي يجب أن ندع مارياما بسلام لتجتاز امتحانها من
دون التفكير بقلقلة الانتقال، أكدت بيا.

- ولكنها مستقرة عندي الآن.

- ولكن أن تتكيف ذهنيًا، قاطعتها بيا وألحت في تحقيق
مبتغاها.

- بن هل أنت موافق على أن تبقى مارياما عندكما حتى تنتهي
من امتحاناتها؟ كانت نانا تأمل ولا تأمل بموافقته على ذلك.

- لا يعجبني هذا النقاش. نهض من مكانه بحركة مفاجئة
حتى انزلق الكرسي على أرضية المطبخ.

- نحن نتحدث عن مارياما كأنها رزمة متعبة يجب أن ننقلها
إلى المكان الأكثر راحة لنا، واصل وهو في طريقه للخروج من
المطبخ.

- ولكننا نناقش تحديدًا ما هو الأفضل لها، علقت نانا.

- أنا أنسحب وأترك الرزمة لكما.

- هل خذتكما؟ حاولت نانا أن تمسك به.

- بل العكس، نحن اللذان خذنا أنفسنا بأنفسنا. أخذ بن

يمشي جيئةً وذهاباً في المطبخ.

- ما قصدك؟ كشف الذات من قبل بن أفقد بيا عقلها.
- لم يكن علينا بعد هذه الخبرة الطويلة في أفريقيا أن نقع في مصيدة «عبء الرجل الأبيض».
- ربما أقمنا هناك فترة أكثر مما يجب. أوشكت بيا أن تفقد صوتها.

- لا أشعر بأن مارياما عبء، بل العكس إنها هدية الحياة لي، انفجرت نانا مطلقة العنان لمشاعرها.

- تجعلين الأمر يبدو وحشياً، قال بسخط.
- ما هذا الذي تقوله بن، أنت لست بوعيك، أكاد لا أعرفك، قالت بيا مفزوعة. غادر بن المطبخ قبل أن تكمل كلامها.
- ما الذي قلته لكي يغضب هكذا؟ قالت نانا بحزن.
- أنكِ قلتِ ما تشعرين به مباشرة. حاولت بيا أن تضع انفعالها الذي سببه رد فعل بن القوي جانبا.

- كيف يمكن لشعوري أن يكون مهيناً؟ تناولت نانا قطعة جبن بأصابعها. كانت بحاجة لأن تضع شيئاً في فمها.

- ليس للمشاعر حق دائماً، إنها تمثل الأكثر بدائية فينا.
- كانت بيا إنسانة تقودها مشاعرها لذا فقد أدركت مقدار ما يمكن أن يصيب المرء من عطب.

- المشاعر القوية هي من قوى الطبيعة التي من الممكن أن تسبب الموت والدمار، واصلت بحرص شديد على الموضوعية.

- لا فهم لي بهذا. قالت نانا بعجز.
- اعتذر لأن بن فقد زمام أمره. مزاجه مثل انفجار بركان. في

فترات متباعدة ولكن في المقابل عنيف جدا، قالت محاولة أن تسوي الأمر.

- بن مثالي يطالب بالمستحيل، إما كل شيء أو لا شيء.
- اعتقدت أنني فعلت شيئا لمارياما، أنني ساعدتها إلى الأمام،
قالت نانا بصوت ضعيف مفرغ من الشاعر.

- إنه بن الذي كان على خطأ. هو يحكم على الأشياء من منطلق مثاليته ولكن هذا هو ما أحبه فيه، إنه لا يقبل المساومة.
تجمعت الدموع في عيني بيا كأن اختناقات بن بتقرير التقييم
لقسم التنمية العالمية قد أمتها.

- دعينا نتناول شايا أخضر بالزنجبيل، قالت بفرح. تذبذب
مزاجها أقلق نانا. تجربة اليوم في شارع بورتلاند جعلتها تفهم
السبب وراء عدم شعور مارياما بالراحة في بيت حيث الهواء يموج
بالتوتر والأعصاب منهكة.

- لن تذهبي قبل أن يهدأ بن، لا صبر لديه مع الناس بالمرة.
عليهم أن يكونوا كاملين يرقون إلى مثالياته. من حسن الحظ
أني كذلك. ضحكت بيا ضحكة ناعمة مثل من خدع القدر.

- بن يعجب جدا بالناس عندما يقابلهم أول مرة. ولكنه يصاب
بخيبة كبرى عندما لا يصدق انطباعه الأول بعدها، قالت بيا
ثانية بموضوعية غطت على حساسيتها. وضعت نانا كل اثنين
معا: هي ومارياما فشلتا. أصابت جسدها رعدة.

وكان تيار ريح باردة قد اقتحم المطبخ.

- ولكن بن طيب وحساس، تساءلت وفكرت بالثقة التي أولاها
إياها بالاستعانة بها كمستشارة اقتصادية ووضع إدارة اقتصاد

- بصحة صداقتنا عزيزتي، رفعت بيا كوب الشاي وقرعنا كوبيهما من الخزف الصيني الرقيق. نهضت بيا من مكانها وفتحت باب الحديقة الخلفية التي كانت حديقة زينة من دون أثاث، شيء رائع للتأمل فيه وليس مكانا للجلوس. أمسكت نانا بذراع بيا واقتрحت عليها أن تمشيا وتتدفأ تحت الشمس.

استدعوا مارياما حالما عادت من القسم الداخلي نيدا حيث أخذتها صديقتها بينتا في جولة فيه. بعدها كان يتعين عليها أخذ قرار بشأنه مع نانا. كانت تعرف جيدا أن نانا ستفعل كل شيء من أجلها وتحقق أبسط أمنياتها. لم تفهم سر (أو ما الذي منحها في المقابل) سخائها لما كانت غير مؤمنة بالله. ولكن لم يكن من اللائق سؤالها حول السبب في كرمها الطاغي.

دخلت مارياما المطبخ وشعرت في اللحظة بأن شيئا ما قد أمسك بها بقوة غير مرئية وعلمت أنها قد ضاعت ولا خيار لها. قيدتها الروح في البيت في شارع بورتلاند. ما كان يجب أن تتبع محاولات نانا لإقناعها، بل أن تحترم القوى العليا. جلست عند المائدة وبقايا طعام الظهر أمامها لكنها لم تستطع بلع ولو لقمة واحدة. في لندن كانت هي التي تعتمد على الآخرين ومساعدتهم. في لندن ليس لديها لا سمعتها الحسنة ولا الاحترام الذي كانت تناله هناك على الرغم من أنها كانت في تلك الفترة مجرد طفلة وفي طريقها لأن تصبح كبيرة.

انهمكت في تنظيف السفارة ووضع الصحن والأقداح والملاعق والشوكات في غسالة الصحن. عندما دخلت كل من نانا وبيا من

الحديقة كأن المطبخ قد نفخ فيه.

- ما أحلى هذا، قالت بيا إعجابا. رفعت مارياما كتفيتها. هي لا تحب أن يمدحها أحد مثل الأطفال. عدا ذلك فقد كانت تتوقع أن الموضوع سيكون بينها وبين نانا فقط. لا تشعر بالارتياح عندما تكون أقلية. كانت تحبهما، كل بطريقة مختلفة وتفضل أن تكون معهما كل على حدة. لم تكن تتخيل أن امرأتين بيضاوتين يمكن أن تكونا مختلفتين بهذه الدرجة.

- لا أريد أن أقيم في القسم الداخلي لبيتنا.

- لماذا؟ انكسرت نانا فجأة.

- غالى جدا. ناولتها مارياما الأوراق.

- لا عليك التفكير في هذا. قالت نانا. شعرت بيا بنفسها فائضة عن الحاجة ف راحت تسقي النباتات في الأصص بالماء من مزهرية كان فيها ورد. كان بيتها يحوي كل النواقص الغربية التي تتفق مع ما يقال عن إنسان روحاني منعزل. جلست نانا مقابل مارياما التي جعلها الحضور متوترة ومتضايقه مثل امرأة عاشقة بحضور حبيبها.

- ولكنني أفكر فيه، قالت مارياما بتصميم لا يقبل النقاش. لا تريد أن تضاعف دين الامتنان أو تحرض القدر حتى موعد الامتحانات.

- أنا أريد العيش هنا إن سمح لي بن وبيا، قالت وهي تشعر بالروح تنفخ في رقبتها. الروح لا تريد أن تفلتها ثانية حالما خطت عتبة الباب في شارع بورتلاند. نظرت إلى بيا التي أولتها ظهرها تلتقط أوراقا يابسة من الجيران يوم. كانت لديها عادة أن

تتكلم مع نباتاتها.

- حبيبتي؟ قالت وهي تستدير بتعبير معتدل منشغل بوجهها.
- أريد العيش معكما هنا إن أردتاني، كررت بهدوء. آلم نانا أن ترى تلك الخصوصية والألفة بينهما. كان عليها السيطرة على نفسها لئلا تلقي بصحن الفاكهة في وجههما.

كانت تظن أن رغبة مارياما في الانتقال عندها أمر مفروغ منه أو في انتقالها إلى القسم الداخلي الذي ستدفع قسطه لها وبهذا ستكون في كل الأحوال تحت جناحها. كانت مستعدة تماما لتسلم المهمة من بيا وبين وبدأت تحلم بأيام سعيدة مع مارياما مثل تقارير المجالات من «البيت السعيد».

- اعتقدت... قالت بارتباك. أوضحت مارياما بصبر أنها ستنتظر قبل انتقالها حتى انتهاء الامتحانات. لا أحد يعلم ما الذي يجلبه المستقبل، بانتظارنا عتمة سوداء، أضافت بغموض.
- طبعاً ستبقين هنا، هو قصدنا منذ البداية، قالت بيا سعيدة. نهضت نانا من مكانها تنوي الذهاب للبيت لتستوعب نكستها.
- كلتانا لم تفلح بيا، كما فهمتُ حول طفلتك المتبناة من أوغندا التي بحث لي عنها في الحديقة. كانت نانا قد شعرت بالإطراء حينها لثقة بيا بها ولكن لا قيمة لها الآن مادام أنها فازت بمارياما.

- لن يتغير شيء نانا، واستها مارياما كأنها تعلم ما يلم بها.
- لا أخفي أن الأفضل لمارياما هو أن تبقى هنا وتنتهي امتحاناتها، قالت بيا.

ظلت نانا في مكانها حائرة لا تنوي على شيء كأنها لم

تعثر على الباب. الكعبان الرفيعان انحفرا في عمودها الفقري وصعدا إلى رأسها من الخلف. كان عليها أن تجلس ثانية. شعرت فجأة بمارياما تمسّد شعرها. كان عالما بالمقلوب. من المفترض أن يمسّد الكبار رؤوس الصغار، فكرت وهي توشك على البكاء.

توجهت في اليوم التالي ثانية إلى شارع باسينغال. دخلت في سيتي بلاس هاوس وأعطت اسمها في الاستقبال. لم يكن لديها أية توقعات من زيارتها الارتجالية لباتريك. لم تره منذ اللقاء الأول والوحيد في شقته الاستوديو.

كانت تشعر بضيق ولديها شعور قوي بأنها أخطأت بنزوتها مع أحد أكبر رجال روار سلطة. كلما كبرت سلطتهم صعب أن يُعوّل عليهم، هذا ما علمتها التجارب. ربما لا يريد لها أن تكون معهم داخل الشركة خشية حدوث متاعب مع عشيقة منبوذة. لمجرد خطأ بسيط يضيع الإنسان.

كان رأسها مثل كتيب نمل مملوء بالخاوف عندما صعد بها المصعد إلى أعلى. لو كان الأمر عائدا إليها لأنتهت العلاقة العابرة اليوم. إنها لا تريد أن تختطف الرجل ولكنها تريد حصرا الحصول على الوظيفة التي أمّلها بها. كان تعبيرا عن الشؤم واليأس أنها سلّمت نفسها له وكانت مستعدة للتراجع إن كان قد أراد ذلك.

خطت في الطابق الثامن في الموزع عند المصعد حيث الأرائك توزعت للاستراحة والانتظار. مشّت صوب ممر المكاتب إلى مكتب باتريك. كان يجلس على حافة طاولة مكتبه يتحدث في الموبايل

ولم يحرك ساكنا وهي تدخل عبر الباب. بحركة خفيفة طلب منها الجلوس عند طاولة الاجتماعات. تحدث طويلا في الهاتف حتى ظنت أنه نسي وجودها. كانت توشك على النهوض والمغادرة قبل أن يغلق الخط ويتقدم ليصافحها بشكل رسمي كأنهما لم يلمس أحدهما الآخر من قبل.

- أعتذر لأنني في طريقي إلى اجتماع ولكن يمكننا التحدث في المصعد، قال لها بفتور. أدركت نانا على الفور أنها ارتكبت حماقة كبرى. وعت لحقيقة أنها منذ زمن طويل لم تكن هي نفسها التي ليس في رأسها غير شيء واحد فقط هو العمل والواجبات في فريق العملاء وتركيزها الصافي المعرف الذي يولد نظاما صارما في العمل.

- ما الذي أتى بك إلى هنا؟ سأل باتريك بحيادية.

- أأ... أمل ألا تكون...

- سأتصل بك متى يكون هناك منفذ في هذا الحقل، أبعدها

بقوله عن طريقه وضغط على زر الطابق الأرضي والمخرج.

وقف أمام المرأة بهيئة كي تتمكن من خلالها رؤية الرجل

الناجح الذي كان عليه.

- أنا لا أمل أن تكون علاقتنا...

- علاقتنا؟ رفع باتريك حاجبيه. قد نزل المصعد إلى الطابق

الأرضي بشفطة واحدة. توجه مباشرة إلى الاستقبال ليحجز

تاكسيا. أسرعت نانا خلفه.

- في آخر مرة عندما... ذكرت أن اختصاصي ينطبق جيدا

على مواصفات هذا المجال. لم تكن نانا له أي شعور ولكن موقعه

ذا السلطة جعلها تتصرف مثل دجاجة مريضة.

- الأمور في تبدل مستمر. لا أحد يعرف. راقب باتريك التاكسي الذي وصل المدخل الرئيسي غائبا عنها. ركضت نانا تتبعه إلى الشارع. جلس منزلقا في المقعد الخلفي للتاكسي، حياها برأسه سريعا. ظلت واقفة في مكانها وهي تنظر بضياغ إلى خيوط أشعة النافورة الرفيعة.

بدأت في ذات الليلة باللعب عبر النت. كانت مارياما قد أتت إلى الشقة وحزمت أشياءها وتركت رسالة صغيرة تقول إنها ستتصل مع توقيع «مشتاقة لك. م». تناولت نانا الورقة بخطها المخريش وطوتها ووضعتها في حقيبتها للذكرى. حياتها في انحدار. آن الأوان لرحلة السماء. فتحت موقع gambenet.com ودخلت إلى كازينو رشمور الذي يعطي أعلى مكافآت. كانت قد دخلت هذا الموقع بضع مرات لتتطلع ولكن من دون أن تلعب. اختبأت في السرير مع اللاب توب في حضنها وقدر من الشراب وكيس من الشيبس على الطاولة بجانب السرير. بمؤونتها الباذخة من السوبر ماركت انطلقت داخله كهف النت الآمن متابعة إلى بهو اللعب الافتراضي. هذا اللعب لا يعطيها الحيوية كما لو كانت في الكازينو ولكن الشاشة في المقابل ابتلعتها تماما حتى ما عادت لها علاقة بالعالم الواقعي. كانت تقامر لتفوز وهذا كان يتطلب منها تركيزا مختلفا عما لو لعبت بمبلغ ما عشوائيا. عليها أن تردم بعض الحفر في حسابها الاقتصادي. خسارتها ببيعها الشقة التي فقدت عدة ملايين من قيمتها والراتب الشهري مع العلاوات المختلفة التي لم تعد تنزل في حسابها.

المصاريف الجارية العديدة التي قلّصت يوما بعد يوم من حجم توفيرها وستصل في يوم ما إلى السالب.

لم تعد تأمل بالحصول على عمل في روار فرع لندن. مارياما ربطتها بلندن وقطعتها عن بقية أرجاء المعمورة لتعمل حيث توجد فروع روار. افتقادها لحرية التنقل هذه كانت معوقا. كان من غير المعتاد وبشكل غريب أن تكون مرتبطة بشيء خارج روار، أن تقبض عليها مشاعر لاتزال مجهولة تجاه شخص آخر. ما هذا القرب الغامض الذي شعرت به تجاه طفلة من قارة لم تعرف عنها إلا القليل؟ ما هذه المشاعر التي لم تكن أوهاما ومثاليات ولكن كانت واقعا اقتضى أن تقوم بفعل والذي كان التغيير الراديكالي في حياتها للعام الماضي إثباتا عليه.

التبدل في الشاشة يوضح أنها كانت داخلة في اللعب. كان بإمكانها البدء الآن لو أرادت، أكدت لنفسها. اقتصادها يحتاج اليوم أو غدا إلى تزويد، إن احتفظت بالمستوى المعيشي ذاته بالإضافة إلى تمويل دراسة مارياما. لا تطمح بشيء في المقابل إطلاقا. كان عليها أن تتقبل حاليا أن مارياما اختارت البقاء عند بيا وين. شعرت بالأمان لأنها ليس لديها ما تفقده. الأفضل لها أن تجد نفسها في قاع البئر. إن كان من شيء قد علمتها الحياة إياه فهو التنازل. كان عليها أن تذهب إلى دير، فكرت بنوع من الهياج وهي تنتظر نتيجة الجولة الأولى. بدأت اللعب على الخفيف بمائتي دولار على الفردي.

غمرها الشعور بالأبدية الذي تكاد تميزه جيدا، منحه إياها

النت وجعلها أكثر جسارة عندما فازت بضعف ما راهنت عليه.
تدعمت ثقتها بنفسها بجوئتها مع مبلغ النقود الافتراضي.
المجرد كان محيطها هي. كانت وفي وقتها في روار تستمتع
بدورانها على النت، تشتري وتبيع الأسهم وبكيسة زرتنقل المبلغ
ذا الثمانية أصفار من محل إلى آخر. الآن هو رصيدها الخاص
الذي تقامر به، مستقبلها ومستقبل مارياما.

كان لدى بيا وين وانا اجتماع طارئ عندما اتضح أن مارياما
لم تكن في أبتون بارك كما أخبرتهم. قد مرت بضعة أيام منذ
بداية الأسبوع قبل أن يكتشفوا أن هناك شيئاً ما في الأمر
فاتصلوا بالخالة والعم اللذين التقوهما في المرة الأولى. قامت
الخالة باستدعاء بينتا التي كانت آخر من رآها مساء الخميس
حيث افترقتا أمام محطة شارع ليفربول. كانت بينتا قلقة بشأن
مارياما التي لم ترد على اتصالاتها فاتصلت بالخالة أمينة وسألت
عنها. كانت قيامة كبرى عندما علمت العائلة والإنجليزيان وانا
أن مارياما لم تكن عند أي منهم في العطلة الأسبوعية ولم تكن
كذلك في Southwark أول أيام الأسبوع.

اجتمعوا حول الطاولة يشربون الشاي، اثنان من أبناء العم
(خرجنا منذ الصباح للبحث عن مارياما وحتى المساء)، أمينة
وسولاي وبينتا (التي جلست بين الولدين على قطعة الصوف
الجلدية البيضاء)، بيا وين (برغم أنه لا وقت لديه) وانا التي
جلست على حافة مقعد كبير. كان الصمت مطبقاً تماماً في
الصالون المعتم بينما كانت أمينة تصب الشاي. وقد أديرت وجهة
التلفزيون بعيداً عن الأريكة. كان يعمل من دون صوت لذا لم

يرأحد غير الضوء الذي ينبعث من الشاشة ويضرب الستارة الثقيلة. جلست أمينة على ذراع الأريكة عند سولاي مع كوب شايها. تنحنح بن وكسر الصمت.

- لابد أن هناك تفسيراً طبيعياً لغيابها. قال وراحت نظرتة تنزلق من واحد إلى آخر.

- أتوقع أنكم قمتم بإبلاغ الشرطة. ناولته أمينة وصل تبليغ بافتقاد مارياما بتاريخ اليوم. لقد قضت أمينة نصف يومها في مركز الشرطة حيث تم كتابة تقرير عن القضية. سلم الوصول إلى نانا بدوره. تداخلت الكلمات أمام عينيها. ولم تستطع فهمها. ذلك لم يكن ضرورياً. أمر ما يمكن أن يكون قد حدث لمارياما وفشلها كان يكفي. لم يكن هناك من داع لتثبيته على ورقة.

كانت بينتا الشخص الرئيسي في الاجتماع وكاستهلال للموضوع طلب منها أن تحدثهم عن المساء الذي خرجتا فيه مع لجامع البدر للقاء مجموعة الدراسة في منظمة الشباب الإسلامي الغامبي. قالت إن مارياما بدت عصبية وحزينة منذ أول اللقاء. ووضعها ازداد سوءاً عندما وقفتا عند موقف الباص وقد رأت شيئاً ما. لم تكن بينتا على علم ما هو بالتحديد لكنها مازحتها بقولها إن شبحاً ما مربها. كان لدى بينتا شعوراً بأن مارياما لديها اتصال ما بالعالم اللامرئي. تصرفت في الجامع بشكل غريب. نامت أثناء تدريس القرآن كأنها تود الاختفاء من كل شيء. لكنها أصرت على المجيء معنا لتناول الشاي في المركز الثقافي الذي يقدمه بعد الدرس. كانت قد اشتاقت إلى شاي أتايا مع الكثير من السكر كما في بلدنا هناك، كما قالت. أسوأ

ما حدث أنها بدأت بمناقشة أحد الشبان الملتحين الملمّين بالقرآن وقد تشاجرت معه وصاحت: لماذا أنا هنا؟ ما الذي أفعله هنا؟ أدرس الإسلام؟

أوضحت بينتا أن مارياما لم تكن تود الانضمام إلى المجموعة في البدء وأنها قد أخذت وقتاً طويلاً من أجل أن تقتنع. لكنها كانت كالمسحورة في ذلك المساء. سألتها بينتا عما إذا كان قد حصل شيء ما ولكن مارياما اكتفت بالقول إنها مجعدة ومنهكة بسبب التهيئة للامتحانات التي تقلقها كثيراً، بشكل مرضي تقريباً برأي بينتا.

- قلت إنها كانت حزينة. ألم تعرفي السبب؟ سألت بيا باستدارة صوب بينتا.

- لا أعرف، إن كان قد حصل شيء أم لأنها مجرد الامتحانات التي قد قربت.

- ألم تذكرنا قط؟ تابعت بيا. كان جلدها يشف، بلون النعناع الأخضر تقريباً. فكرت نانا أن اختفاء مارياما كان قد أثار مرض بيا.

- أجل... لا. لمارياما رأيها في كل شيء. بدت بينتا متضايقة من السؤال.

- هي لا يمكن التحكم فيها، أضاف بن وهو ينظر إلى ساعته.
- جيد أنك فكرت هكذا، نظرت إليه بيا بعناد.

- أنت تفهم أنها ضربة قوية لنا. قالت بيا كأنها كانت في غيبوبة.

جلس أولاد العم وبينتا بضيق على الأريكة ولم يعرفوا أين

يذهبون ببصرهم.

الجو كان مثقلا بانعدام الثقة بين الموجودين. لم تستطع أمينة أن تمسك دموعها، تجففها باستمرار بمنديلها. كانت ترتدي عقدا مذهبا حول عنقها والكثير من الأساور الرفيعة في يدها والتي كانت تصلصل لأقل حركة. شعرت نانا بالخجل أمام العائلة وودت لو تنهض من مقعدها نحو الباب وتختفي مثل مارياما.

- هل تعرف أم مارياما...؟ سألت موجهة كلامها إلى الخالة والعم.

- يجب أن ننتظر حتى نتأكد من الأمر. قلب أختي ضعيف، قال سولاي بهدوء. هز أولاد العم رأسيهما مؤيدين وهما ينظران إلى حدائيهما.

بدأت أمينة مجددا بنهنتها.

- معقول جدا. تحرك بن قلقا في مكانه على الكرسي.

- إنها تتصل في الأغلب في العطل الأسبوعية لتراقب مارياما. عقت بينتا بشد عصبي في إحدى عينيها.

- لنوجز الموقف، الشرطة الآن طرف في الموضوع وإن لم يستجد شيء فعلينا أن نمنحهم وقتا ليقوموا بواجبهم، أكد بن وهو يدير الحديث ثانية.

- وأنتما، هل ستستمران في البحث؟ نظرت بيا إلى أولاد العم.

- لنترك هذا للشرطة، قال بن مقاطعا. انسحبت بيا وهي تشعر بالإهانة. انفصلت نانا عن الجميع. لم تكن هي بل أخرى تلك التي تجلس على حافة المقعد في صالة العائلة. مثل هذه

الحوادث تحدث للآخرين ولكن ليس لها .

- رجوت أولادي البحث عن مارياما في كل مكان كانوا معها فيه، السينما، الديسكو والمقاهي . علينا أن نواصل وألا نستسلم .
ألا نياس، قال سولاي بوقار محزن .

في اللحظة ذاتها رن موبايل أمينة . تناولته وتوجهت إلى الجانب الآخر من الصالة الثانية . تحدثت بصوت خفيض باك . ظلت جالسة عند مائدة الطعام على الكرسي العالي الظهر ورأسها بين يديها . لمعت باروكتها الجامدة الملساء تحت ضوء السقف . نظرت نانا إلى القامة المتحجرة التي أشعرتها بأنها طائر النحس الذي اقتحم الناس البريئة وجلب لهم الحزن . كيف يمكن لها أن تصلح الأمور ثانية ؟ لم يكن لديها غير النقود لتعطيها . وفي ذلك قصور كبير . نهضت ومشيت إلى أمينة عند المائدة . أمسكت أمينة بيدها .

- ابنتنا العزيزة . كان علينا أن نعتني بها بشكل أفضل .
خدلناها، تنهدت أمينة .
- إنه ذنبي .

- لا، ليس ذنبك، ليس بوسعنا إلا أن نصلي . نصلي ونبحث في كل زاوية من المدينة الملعونة . أفلتت يد نانا .
- أنت إنسانة طيبة، واصلت ونظرت إليها كأنها تريد أن تطبع في ذهنها كل حركة في وجهها، كل خط ودرجة لون في بشرتها . كانت كأنها تسمع مارياما . ذات النعومة حول النواة الصلبة . مثل لحم الفاكهة حول البذرة . معها كان الأمر على العكس . صلبة في الخارج ورخوة من الداخل .

نهضت أمينة وعادت إلى المجموعة. تبعثها نانا أكثر صفاء
وهدوءاً.

- هل كانت أم مارياما؟ سألت بيا حالما دخلتا الصالة الأولى.
- إيثيل اتصلت طوال العطلة الأسبوعية من دون أن تحصل
على جواب من مارياما. أمينة حرّكت أحد الولدين من مكانه
وجلست إلى جانب بينتا.

- تريد التحدث مع الإنجليز، قالت. وجهت أمينة حديثها
حصراً إلى العم من دون النظر إلى الآخرين.

مربيال نانا أمر الصور التي كانت بحوزة الأم والتي نسيت
أمرها خلال الفترة الأخيرة. لدى الأم الآن سبب وجيه للانتقام
ولدى نانا سبب مقنع لتشعر بالخوف. ولكن الخوف قد ولى.
كانت على العكس مستعدة للانتقام الأم. يكاد يكون ذلك خلاصاً
لها.

- نحن نحمل الإثم الأكبر، سمعت بيا تقول، مارياما
مسؤوليتنا مادامت تقيم تحت سقفنا.

- ونحن سنقوم بالطبع بكل ما في وسعنا من أجل أن نجدها
في حالة جيدة، انضم بن إلى الجوق بقوله بأسلوب رنان
لا يشبهه.

- إنها عندي في أيام العطلة الأسبوعية، عارضت نانا.
- ولكننا كنا في تلك العطلة الأسبوعية المؤسسة مسؤولين
عنها، صحح بن.

- أريد أن أتحمل الجزء الخاص بي من المسؤولية، أصرّت نانا.
لم تشعر يوماً بالاختلاف بينها وبينهما كما اليوم.

- بالطبع، أكدت بيا. إنها لا تطيق الصدع الذي حدث مفضلة أن تقسم الذنب بينهما بالتساوي.

- نحن جميعا مستاءون نانا، واصلت بعتب. لم تعد نانا قادرة على ربط نفسها بأصدقائها الطيبين. صارا كائنين غريبين عنها.
- علينا إذن أن نكون أوفياء لبعضنا، قالت نانا بشعور مزعج من عدم وجود مستلم لما قالته.

- سيعمل كل منا ما في وسعه لتحقيق النهاية السعيدة، قالت بيا ببرود.
- بالطبع، أجابت نانا بضعف.

- أنا مضطر للذهاب الآن، لا أود إزعاجكم، سأمر بمركز الشرطة لاحقا وأتأكد من سير العمل في القضية. نهض بن من مكانه وصافح الخالة والعم. صعدت مغادرته بيا لكنها أجبرت نفسها على البقاء في مكانها. أشفت نانا عليها واستغربت الحال الذي آل إليه الاثنان بوجهيهما الآخرين. اقترحت على بيا أن ينهيا الزيارة ويعودا معا إلى هولاند بارك. ودعتا العائلة وبوعود متبادلة بالتواصل مع بعضهم البعض.

كانت نانا مستغرقة جدا على النت في لاس فيغاس عندما هاتفها جاكوب وفق الاتفاق. كانت شبكة الإنترنت هي مرساتها في خضم هذا الفراغ المريك الذي تركته مارياما. حاولت خلالها أن تتدبر أمورها وأن تظهر القليل من الطاقة. ولكن الطريق مازال طويلا إن تعين عليها أن تأمل بسد ولو بعض من خسارتها كما كان هدفها. كانت تعيش وتتنفس في النت ولم تعد لديها حاجة إلى جاكوب. ولكنها لم تلغ الموعد ونسيت أن تقول له إنها ألغت المبلغ الشهري الثابت الذي كان يحول إليه.

- أنا في اجتماع مهم، قالت.
- ليس أنا من تخدعين. كان جاكوب قد تعب من تذرعاتها
فرفع الكلفة معها.
- أوكي، مشغولة على النت، قالت الحقيقة.
- عليك الخروج منه إن كنت تريد إكمال حياتك.
- لا أريد المواصله، مارياما اختفت، قاطعته.
- مستحيل...
- من فضلك، هو ما أقوله لك، قالت نانا بالحق التعس الذي
تملكه لكي تكون صعبة لا تطاق.
- عذرا، ولكن هذا أمر لا يعقل، قال وقد روعه حقا ما سمع.
- لا تسألني عن شيء. كل شيء فوضى.
- سيكون بذلك من الصعب أن... قال جاكوب بحذر.
- لم أفقد شيئا في حياتي يوما غير عملي. لقد حصلت على
صديقة وكنت على درجة من الأنانية حين جلبتها إلى لندن.
- ماذا عن صديقك؟
- كنا نتصور أننا نسيطر على أمر إقامة مارياما في العطلة
الأسبوعية.
- هل يمكنني المساعدة في شيء؟
- لا أحتمل الحديث عن ذلك.
- وتجلسين الآن وتلعبين في النت، قال جاكوب. لم تجبه نانا
إذ شعرت بتعديه عليها.
- وما الذي يفعله صديقك؟ حاول عن طريق آخر.
- لقد استأجرا مخبرا خاصا شرع في البحث عنها في

الجامعة. آخر مرة شاهدوا فيها مارياما كان مساء يوم الجمعة في مقهى الطلبة. لم يكن لها بعدها أثر. شعرت نانا بأن الحادثة تكبر كلما تحدثت عنها.

- هل بإمكانني المساعدة، يعني ...

- لقد كنت داعما مخلصا لي، لولاك لما تمكنت من تنفيذ

انتقالي.

- إنه عملي. عمد جاكوب على ألا يقول أكثر من ذلك.

- الصداقة المدفوع أجرها أكثر من صداقة، إنها الصداقة

المثلى، أمينة وثابتة لا تتغير، قاطعته بجوابها وقد تركها تقول ما لديها.

- لعلك تفهم بهذا أني لن أستطيع أن أواصل معك. لقد حدث

شيء غير عادل... تعس جدا... أنا لا أستطيع الحديث عنه.

- هل أفهم من كلامك أننا... أنك تتوقفين هنا؟ قال جاكوب

بحيادية.

- أود الاحتفاظ باحتمالية العودة إن احتجت إليك.

- ولكن ليس من المؤكد أنك ستجدين مكانا. لقد أغلقت باب

التسجيل.

- اللعنة، أنت لست بصديق، صاحت نانا بالموبايل فقطع

جاكوب الاتصال.

فجأة لم يكن هناك من أحد على الطرف الآخر. أصابها

رعب من الانقطاع المفاجيء فأسرعت بإرسال رسالة قصيرة إليه

تعتذر فيها عن انفعالها الشديد. أعادت بعدها انتباهها ثانية

إلى الشاشة حيث أوقفت اللعبة مؤقتا. لم تستطع لأول مرة أن

تركز وتركت اللاب توب يطفىء ضوءه. ولولت قليلا أمام الشاشة السوداء. كيف سيمكنها التخلي عن صديق ومساعد، الوحيد الذي يقلق بشأنها عندما يستحق الأمر؟ أرسلت له رسالة أخرى ووعدت بمضاعفة مكافأته إن منحها فرصة أخرى. كانت تعرف في محل ما أن السباق انتهى. لقد تمادت جدا وضربت حدوده.

تناولت نانا الموبايل الذي كان بجانب اللاب توب بيد مرتجفة وأخذت وقتا قبل أن تضغط الزر لتجيب. اختفاء مارياما قد وضعها في حالة إنذار نفسية. في كل مرة يرن الهاتف يرتعد جسدها بأكملها، ويصعب عليها التركيز على المحادثة التي تدور حول أشياء أخرى غير مارياما.

- هلو، قالت بخوف. كان مجرد صفيّر فارغ مثل صدى لا شيء.
- هلو، هلو، كررت وهي تسمع أصواتا منفصلة بعيدة ونشيجا ضعيفا. خفق قلبها هلعا.

- نانا؟ بدا صوت الخالة روزي.
- متى ترجع لنا ماريامتنا؟ واصلت.
- آسفة روزي أنا جد آسفة. نعمل ما نستطيعه لنعثر عليها.
- أنا واثقة بأنها تخفي نفسها في مكان ما، قالت روزي.
- هل تعرفين شيئا لا نعرفه؟
- أنا أعرف مارياما، قالت روزي بثقة.
- أين يمكن أن تخفي نفسها ولماذا؟ قالت نانا كأنها تتحدث مع حكيم.

- عندما تورط نفسها في مشكلة ما تختفي دوما، هكذا كانت منذ كانت صغيرة، قالت من دون أدنى شك في صوتها.

- أية مشكلة؟

- وكيف لي أن أعرف؟ أنت التي يجب أن تعرف مشاكلها. كان عليك أن تهتمي بها.

- هل أخبرتك أن لديها مشاكل؟ كانت نانا تدور بلا استقرار في الشقة والموبايل في أذنها.

- لا ولكنني واثقة بأنها تخبيء نفسها، قالت روزي بإيجاز.

- كيف حال أمها؟ سألت نانا بحذروهي تخشى سماع الجواب.

- تعاني وتصلي طوال اليوم لأجل ابنتها. اسمعي، اسمعي

معاناتها وصلواتها، قالت روزي بدرامية وأبعدت الموبايل إلى فضاء الغرفة الذي انطلق منه التأوه والولولة.

- هل تسمعينها؟ قالت بينما ابتعدت الأصوات مجددا وغامت.

- قولي لها إنني أعاني أيضا. بلغيتها اعتذاري الصادق لأنني

سببت لها الكثير من الحزن والألم، قولي لها إننا بالتأكيد

سنجدها. آمنت نانا بوعدها تماما. مكالة روزي أمدتها بشجاعة

من جديد.

- هل لديك فكرة أين يمكن أن نبحث عنها؟

- الرجل الكبير يعرف مارياما، إنه مرشدها، قالت روزي

برسمية.

- إذن عليّ التحدث مع الرجل الكبير؟

- بالطبع.

- مرزمن منذ أن تحدثنا معا. ليس لدي رقم هاتفه. خفت

أمل نانا.

- هو يغير رقمه على الدوام. تشاءبت روزي بصوت عال.

- ما الذي أفعله إذن؟ قالت نانا.
- ومن أين لي أن أعرف؟ عليك أن تجديها. اسمعي. روزي أبعدت الموبايل مجددا عن أذنيها فارتفع صوت العويل ثانية واخترقها كأنه صادر من مكبرات صوت.
- أمها تعاني، قالت روزي كأنها تقدم مقطوعة موسيقية. اختنقت نانا بمشاعرها.
- هل بإمكانك الحصول على رقم الرجل الكبير؟ ترجمتها نانا.
- تذكرني أنني أقيم بعيدا جدا عن سيرا كوندا، أرعى شغلي و«بسطة الفاكهة» لأبيع في السوق. بدت روزي راضية عن نفسها ونانا في المقابل ما دام أن النقود قد عادت بفائدة عليهم.
- علينا أن نؤمن بمعجزة إذن، قالت بيأس.
- مارياما ستظهر ثانية عاجلا أو آجلا. لقد ذهببت إلى المربوط.
- هل يعرف شيئا عنها؟ قالت نانا. الحادثة قد أبعدت تحفظها بخصوص الغيبيات.
- هو لا يعرف، هو يرى، أكدت روزي.
- ماذا يرى؟
- مارياما تخبيء نفسها في العتمة وهي على قيد الحياة. وقفة مصطنعة قصيرة لروزي.
- جديها، قالت وأغلقت الهاتف. المكالمة جعلت نانا تشعر بحدوث اختراق في البحث. منحتها قوة روزي العالية نوعا من ثقة طفولية بأن القوى الخيرة قد فازت ومن أجلها وهي ممتنة بمساعدة السحر الأسود.

أرادت نانا أن تتصل بين وينا لتخبرهما بمكالمة روزي لكنها غيرت رأيها وذهبت بدلا من ذلك إليهما. تغاضت هذه المرة عن احتمالية انشغالهما بعملهما. ليس هناك من شيء أكثر أهمية من أن تعود مارياما إليهم. مرّ وقت طويل قبل أن يفتح الباب لها. صعب عليها التعرف على بيا. ازدادت نحافة وشحوبا أكثر مما هي عليه، ترتدي طبقات من قماش الحرير الرقيق من دون شيء تحتها.

- كيف حالك بيا؟ حضنتها نانا وتحسست خطوط هيكلها.
- ليس جيدا ولا سيئا جدا، زقزقت ببهجة ولكن ما الذي أتى بك في هذا الوقت؟
- هل يمكن أن أدخل؟ كانت نانا لا تزال على الرصيف تحت المطر.

- بالطبع، تفضلي، عذرا نانا. خطت بيا جانبا مفسحة لنانا الطريق لتخطو إلى الداخل.

- عليك أن تعتني بنفسك، قالت نانا قلقة.
- أعرف عزيزتي. لقد تركت العمل حتى تعود مارياما ثانية، قالت بخفة كأن مارياما في سفره فقط.

- هل يتدبر بن الأمر وحده؟
- لقد قمنا بتعيين موظف.
- سيتوافر لك وقت أكثر إذن لتعتني بنفسك. قالت نانا متمنية أن يتوافر وقتها لها هي أيضا، تعني للبحث عن مارياما.
- ممكن لكنني ضجرة وأغار من الشاب الوسيم الذي حلّ محلي. قالت سارحة قليلا.

- كيف تسير الأمور مع مخبركم؟ هل هناك من تقدم؟ لم تشأ نانا أن تستخدم الوقت في شيء غير مارياما.
- لم يصل إلى نتيجة. لقد فصلناه واستعنا بآخر، امرأة. ستكون مارياما بين يدين أمينتين معها، أكدت بيا.
- ولكن لا بد لنا من العثور عليها سريعا.
- الأمر خارج عن إرادتنا. أنا أثق بها، أعني ما هو البديل: هل ندور أنا وأنت في شوارع لندن بحثا عنها، نطرق أبواب الناس ونريهم صور مارياما؟ ناولتها بيا كوب شاي أعشاب فاترا. كانت الأجواء باردة ومغبرة في البيت غير المسكون تقريبا.
- أنا فكرت على العموم في البحث عنها.
- سيزيدك الأمر كآبة ليس إلا، قالت لها بيا رافضة.
- لا يهمني أمري البتة. لا أريد غير عودتها.
- نحن هواة. لن نتمكن من فعل شيء أفضل من مخبر محترف.
- ليس الأمرأما أو إنما، كلا الأمرين معا، قالت نانا وقد شعرت بالعجز لتراخي موقف بيا.
- لماذا أتيت نانا؟ صوبت بيا نظرة حادة إليها.
- لقد اتصلت روزي. إنها على ثقة بأن مارياما سيُعثَر عليها وبخير. بدت نانا أكثر ثقة عما كانت عليه.
- كيف ذلك؟ انحنت بيا على كوب شايها تستنشقه.
- ذهبت إلى مربوط، قالت نانا. ضحكت بيا من ثقتها الطفولية.
- المعذرة نانا ولكن هل تريدان إخباري بأنك تؤمنين بهذا اللغو. لا مفعول لذلك إلا مع الأفريقيين.

- مارياما أفريقية وروزي أيضا.
- لا مشكلة عندي على العموم إن كان سيفعل فعله. قالت بيا بصبر وأمدت نانا بشعور أنها كانت ساذجة ومتخلفة ولا تميز البيض من السود.
- لنحاول مراجعة ما تعرفه كل منا: من تخالط مارياما، أين تتحرك، ونضع بعدها خطة مع العائلة، قالت نانا بمحاولة ثانية.
- المخبر الخاص هو ما يمكنني عمله، وهناك الشرطة أيضا، قالت بيا منزعة من إصرارها المرضي.
- ولكن لم يأت هذا بنتيجة، اشتكت نانا.
- سيتابع بن الأمر بالتأكيد. لديه معارفه في قمة الهرم... علاقات عائلية، قالت بيا. استغريت نانا إزاء حجم المسافة التي أبعدتها عنها.
- ولكن قل لي بم تشعرين إزاء اختفاء مارياما؟ قالت نانا متعمدة تحريضها.
- بالطبع سيئة، وسيئة جدا، أنا لا أستطيع النوم، تأتيني كوابيس، أنت تعرفين بنفسك كيف، قالت بفتور غريب. شعرت نانا بأنهما تركاها في الموقف العصيب وحدها.
- لا يبدو أن مارياما تعني لك شيئا، قالت نانا بغضب.
- نانا أنت تجرحيني فعلا. شاب خدي بيا الشاحبين احمرار خفيف.
- أنتِ وبن تتركان الأمر لمخبر خاص. أنتما لا تشعران بمسؤولية شخصية. قالت نانا منفعة. لم تنظر لها بيا ولم تجبها.

- لابد أن تعرفي شيئاً يمكن الاستدلال به. تجمعت الدموع في عيني نانا. عطفت عليها بيا.

- لقد غادرنا صباح السبت مبكراً، كان البيت ساكناً. لم نسلّم عليها لاعتقادنا أنها نائمة في غرفتها. لقد أخبرتنا كما تعلمين بأنها ستقضي السبت والأحد عند عمها خلال وجودنا في نيو كاسل. أرجوك دعي تأنيب ضميرك لنفسك، كفي عن لومي ولوم بن. تحدثت بيا بهدوء وعلى وتيرة واحدة.

- أنا في حاجة إليكما، إلى مساعدتكما ودعمكما.

- نقوم بكل ما هو ممكن إنسانياً من أجل العثور عليها، قالت بيا.

- أنتما نفضتما أيديكما، قالت نانا بهستيريا.

- لم تلحين على إهانتنا؟ ما الذي فعلناه لك؟ تحدثت بيا معها مثل أمٍ أسوء إليها.

- أنتما خذلتماني أنا ومارياما. شعرت نانا بالدموع وهي توشك أن تنهمر.

- بإمكانك أن تنتقلي للسكن عندنا، إن كان ذلك يساعدك. مقترح بيا شلّ لسان نانا.

- غرفة مارياما فارغة. اكتشفنا أنها قد أخذت كل ثيابها وأشياءها معها. لابد أنها قد وجدت عنواناً أفضل.

- ولكنها مازالت مختفية...

- فكري في الأمر عزيزتي. لا يصح أن تبقي وحيدة. أنت بحاجة إلى صحبة، قاطعتها بيا ووضعت يدها الباردة على نانا. كانت غريبة بالنسبة إليها مثل المرة الأولى التي التقتها في فندق جولدن باي في المطعم.

وقف بن في ذات اللحظة عند باب المطبخ ومن خلفه رجل شاب أسمر البشرة بمظهر أرسقراطى. بدا بن غير مرتاح لوجود نانا.

- هل هناك من خطة تأمر مع بيا؟ قال بن بغموض.

- أرجوك بن. حالة نانا سيئة جدا بسبب اختفاء مارياما. كن لطيفا معها، قالت بيا بحزم.

- أنا في طريقى إلى مركز الشرطة لأرى إن كان قد استجد شيء، رد على عجل.

- هل يمكنك الاهتمام بالفاريز، أن تعدى له غداء؟ عذرا سأضطر لترككم. هب بن عبر الباب.

- بالطبع حبيبى، صاحت بيا من خلفه.

- يبدو أن بن لم يطلق رؤيتى، قالت نانا.

- بسبب عمله الكثير، أليس كذلك الفاريز؟

- بلى، إنه يعمل أكثر من اللازم. كانت لكنة الفاريز جذابة ورموشه كانت طويلة معقوفة كأنها لمن هو أصغر من سنه. اعتدلت بيا في جلستها بحركة نشطة.

- سأعد لك الطعام، قالت له بيا بنعومة.

- وأنت قد تناولت غداءك أليس كذلك نانا، واصلت بيا وهي تفتح الثلاجة.

- أجل أجل، كذبت نانا محرجة من سوء ضيافتها الذي لا يشبهها نهائيا. كانت على درجة من الأدب سديدة الرأي دائما.

- أي شراب تريد؟ قالت بيا ثانية للفاريز الذي أخذ يهين المائدة لاثنين.

- بيرة، قال بصوت ناعم مثير. نهضت نانا من مكانها.
- هل ستغادرين؟ قالت بيا وقد بدت أكثر من راضية عن قرارها.
- أجل... لا... أعتقد أنني سأنتظر حتى عودة بن من الشرطة
لأرى إن كان هناك شيء جديد. جلست نانا مجددا.
- سيأخر كثيرا. أنا سأتصل بك، قالت بيا بحماس متعجلة
التخلص منها.

- أوكي، ذهبت نانا للأمر. نظر الفاريز نظرة طويلة إلى بيا.
- أنت لا تحتاجين إلى أن أرافقك إلى الباب عزيزتي، قالت بيا
منشغلة بإعداد الطعام. صعب على نانا الخروج من الباب.
- فكري في الأمر. أنت على العين والرأس إن فكرت في
الانتقال عندنا. أنت بحاجة لمن يهتم بك. وضعت بيا صحنها
بشرائح لسان على المائدة. استجمعت نانا أخيرا قواها لتغادر.
في الطريق سمعت زقزقة بيا وضحكة ألفاريز الجهورية. انتابها
شعور مخيف بأنهما قد شطبا مارياما.

أثناء مغادرة نانا تيسكو وضعت باوندين في قدح بيردي
البلاستيك وقالت وهي تمر في طريقها إنها من مارياما. كانت
بيردي منشغلة مع موبايلها ولم تستجب لها. كررت نانا بأعلى
صوت من دون صياح بأن ذلك كان تحية من مارياما. نظرت
بيردي أخيرا إلى أعلى واشتكت في الحال أمر عدم رؤيتها لها
منذ مدة وتساءلت بامتعاض إن كانت مارياما قد صارت
من الأكابر لا تخالط البسطاء. أخذت نانا نفسا طويلا وقالت
لها إن مارياما اختفت وأنها تريد تحديدا سؤالها، إن كانت قد
تحدثت معها في الأسبوع الأخير وإن لم يكن فمتى كانت آخر

مرة رأتها فيها. كان على بيردي أولا أن توقد سيجارة لها وبعدها تأخذ استراحة طويلة للتفكير. ثم هزّت رأسها نضيا.

لم ترها منذ مدة. كم يعني؟ أرادت نانا أن تعرف. هزّت بيردي رأسها ثانية واعتذرت لأن إحساسها بالوقت غير دقيق تماما. الأيام تتداخل بعضها في بعض، أوضحت لها، عندما لا يكون للمرء بيت يفقد السيطرة على الوقت. سألتها نانا بنفاد صبر إن كانت تذكر المرة الأخيرة التي رأت فيها مارياما. كيف كان حالها؟ وما الذي تحدثتا عنه؟ وكان على بيردي أن تفكر ثانية جيدا، دعت نانا لأن تجلس على المنصة بجانبها. جلست نانا على مسافة مناسبة تراقب بتحفظ محاورتها الجديدة بالجينز المدهن والحداء المسحوق والقميص الذي كان يحمل لوغو جامعة كامبردج تحت الجاكّة الجلد.

تقوّعت بيردي في مكانها في تأمل عميق ولم تشعر بالعيون الفضولية التي بحلقت فيها وفي المرافقة الراقية التي جالستها. كانت نانا وعلى العكس متضايقة من الموقف، وقد شعرت بأنها كانت تستعرض نفسها ومصيبتها معا. بدأت تتلمل في مكانها ومست بيردي بحذر لترى إن كانت صاحبة.

- لا يجب أن ننسى مارياما، قالت بيردي بدوار كأن أحدا أيقظها من النوم.

- نحن لا نعرف شيئا عن بعضنا جميعا. واصلت.

- حاولي أن تتذكري. كيف كان حالها آخر مرة رأيتهما؟ مشيت نانا إلى الأمام بحذر لئلا تبتعد عنها.

- إنها روح معذبة، مجهدة أكثر من اللازم. بدت بيردي قلقة.

- ثقي بريك، قلتُ لها، انظري لي، قلت، أنا مثل طيور في حقل، لا أعاني من ضائقة.

- ما الذي كان يعذبها؟ سألت نانا.

- دائما هناك شيء ما يؤلمها ويعذبها. أن يرموها على سبيل المثال خارج بريطانيا. إنها كما تعرفين ليست واحدة منا. بدأت بيردي بلملمة أشيائها.

- لربما أسأت الفهم، قالت نانا متأثرة.

- أنا لا أسيء فهم الناس، قالت بعصبية وأخذت رشفة من قذح القهوة تحت الغطاء الذي أخفت محتوياته.

- أوراق مارياما صحيحة ولديها إقامة وعنوان ثابت، قالت نانا بهدوء خوفا من إثارتها أكثر من ذلك.

- ربما إذن امتحان ما يقض مضجعها، قالت بيردي مفترضة أن تكون هي في محلها على سبيل المثال.

- كما فهمتُ منها أن الأمور كانت تسير على ما يرام في الدراسة، قالت نانا رافضة وكبتت ما قالته بينتا عن كوابيس امتحاناتها وعن حبوب الأعصاب التي كان عليها أن تزودها بها.

- لربما لديها حمى الامتحانات كما للآخرين في هذا الوقت القبيح من الخريف حيث الفائزون يفوزون والخاسرون يخسرون. أوقدت بيردي سيجارة بيدين مرتجفتين.

- ألم تريها مرة بصحبة أحد؟ سألت نانا لتجعلها تواصل. مطت بيردي شفيتها.

- لقد جاءت لتوديعي... لا أذكر متى... قبل أن تأتي لي بغرض ما اشترته لي من محل «بوت». لابد أن يكون قبل ذلك،

لا، لا تزعجيني بالتوقيئات. كل شيء عائم بداخلي. أمسكت
ببردي برأسها.

- رجل أسود؟ شاب، كبير؟ سألت نانا منفعلة.

- كان أسود... طويل... لا، ليس طويلا... عليك أن تجديها،
خنت ببردي.

فكرت نانا فيما يكون في قدح القهوة.

- هذا ما تحاولين أنتِ مساعدتي في عمله. وضعتُ نانا يدها
على ذراع ببردي التي سحبتها في الحال بحركة سريعة.

- مساعدتك مهمة، هل تفهميني ببردي، حاولت نانا أن
تطمئننها، هل ذكرتُ شيئا عن صديق ما؟

- لا أدري إن كان صديقا. أخذت ببردي رشفة أخرى.

- ألم تذكر اسمه؟ لم تكن نانا واثقة بشأن الصديق الذي كان
ربما من اختلاق ببردي.

- كان يعمل في الموسيقى، يمكن رؤية ذلك من أزرار أكمام
القميص البائسة، خُذت في أحلى وقت، حيث تتفتح كل أنواع
الورد، « Daffodils، Bank Holiday، Mayball (*) ». احذري

شكسبير. راحت ببردي غاطة في هلوستها.

- ألا يمكنك أن تعطيني خيطا لأتبعه؟ تملكُ نانا رغبة في هزّها.

- لا تبكي، ذات مرة كنت أنا أيضا مختفية وبلا أثر.

- اتصلي إن تذكرت شيئا. قاطعتها نانا وأعطتها بطاقتها.

- أهلا وسهلا بك دوما على مائدتي. ببردي فتحت ذراعيها

وقد بدت حزينة جدا وهي محاطة بعفشها.

(*) أزهار النرجس الأصفر، عطلة عيد الفصح، حفل التخرج نهاية مايو.

كانت السماء الزرقاء ودفء الوقت بعد الظهر قد زادا من اشتياق نانا ومن آلام صدرها. زحمة السوق وقصدية الداخل إلى السوق وضعها على لائحة الاتهام. كانت قد أتت لهدف آخر غير البيع والشراء. كانت ترى على الدوام ومضات صغيرة من مارياما، في وجه ما، في حركة تبتعد، في ضحكة خائفة. كانت في كل مكان، خلف الفاكهة والخضراوات المصفوفة بطريقة فنية، في خردوات مكبرات الصوت عند بائعي الـ «سي دي» و«دي في دي» مع موسيقى البوب الأفريقية. كانت وسط الزحمة التي تقدمت ببطء في الممر الوسطي العريض في سوق دالستون. بقايتها المياسة بالجينز الضيق والقسم العلوي القصير. كانت تتقدمها دوما في سيرها بعشر خطوات ومهما سارعت في خطواتها أو جرت ستكون هناك تلك المسافة بينهما.

أوقفت متابعتها ومنحت نفسها الوقت لتتوقف عند كل منضدة للبيع في السوق من دون أن تتنبه إلى ما تراه. أهانت الباعة بوقوفها محتلة مكانا من دون شراء شيء.

اقتربت أخيرا من الزقاق الضيق والسوق السينغالي الغامبي المصغر هناك. كانت مارياما تتسوق منه عندما كانت تريد أن تُفرح نانا بتقديم «طبق البنيشين» أو دجاج «ياسا» في مناسبات خاصة وتعلمها كيف تأكل بأصابعها. عند الزاوية من الزقاق كان هناك محل بصفوف من لفات القماش المنقوش في النافذة. وعلى الجانب الآخر من السوق الصغير كان هناك محل سينيغامبي للصرافة والتحويل بأسعار عمولات منافسة ورسوم مخفضة. مشى ببطء بين سلال الكاسافا التي عرضوها خارجا.

نظرت إلى داخل المحل الطافح بالبضائع خفية. وقفت شابتان عند الحاسبة منشغلتين بمناقشة حادة. سرت أصواتهما في أمواج عبر الباب المفتوح. واصلت نانا من دون توقف ودخلت ممرا متقاطعا مع الزقاق قبل أن تستدير وتعود.

شعرت وهي في داخل المحل المزدهم رديء التهوية كأنها فيل كبير أخرج. لا تكاد تستدير حتى تقلب علب مواد محفوظة وأكياس أرز من على الأرفف. دارت وهي تطلع على البضاعة المعروضة باهتمام مصطنع من دون شعور بماهية ما أمامها. لم تستطع أن تستجمع شجاعته لتسأل المراتين اللتين تابعتا أدنى حركة منها بحضورهما الصامت. في طريقها للخروج من الباب استدارت فجأة والتقطت صورة مارياما من حقيبتها وقدمتها لهما.

- هذه الشابة اعتادت أن تتبضع هنا. هل رأيتها إحداكما أخيرا؟
قالت لاهثة. نظرنا إلى الصورة بفضول وهزنا رأسيهما نضيا.

- لقد اختفت. رفعت نانا الصورة ثانية لتراها الفتاتان.
كانت إحداهما خشنة القامة بوجه جميل تحت ربطة شعر كبيرة ملفوفة بثبات على رأسها، وضعت يدها على صدرها. الأصغر سنا قليلا نظرت متمعنة في الصورة.

- هل تعرفانها؟ قالت نانا. هزت كل منهما رأسها نضيا. أعادت نانا الصورة. ظلت واقفة على أمل أن يتذكرا شيئا ما.

- كانت تحب سمككم المجفف، حاولت وهي تشير إلى السمك المعبأ الذي وضع بصفوف بعضه فوق بعض على النضد. مرة ثانية هزة رأس نضيا وبدأ الإعراض.

- لابد أنكما تعرفانها، ألحت. صارت المراتان فجأة عدائيتين.
- ومن أنتِ حقيقة؟ قالت صاحبة ربطة الرأس بصوت قوي عال. ظلتا واقفتين مثل تمثالين متلاصقين مثل جبهة موحدة ضد نانا. كان وجهاهما فارغين من أي تعبير مثل مظلة طاقية ستجعلهما غير مرئيتين عن حكومات العالم وشرطة الأجانب. بخطوة واحدة تقدمتا تجاهها، خطوة واحدة في مواجهة صامتة. هربت نانا من السوق المصغر وأسرعت عبر الزقاق مروراً بمناضد البيع حتى وصولها آمنة إلى شارع كنغزلاند.
استقلت تاكسي لأقرب محطة أنفاق وتابعت بعدها إلى إيست هام. لم تقصد المكان منذ رافقت مارياما إلى صالون «يوني سكس هير أند بيوتي» عندما بدأت مارياما أول معالجة لشعرها المتضرر. حزنّت نانا لذكرى أيامها الأولى مع مارياما. إنها انطباعات قوية جداً في ظل هذه الحالة المتوترة التي كانت عليها. كانت ترى كل شيء بوضوح حاد كأنها قد تعاطت مخدراً. أناس من قوميات مختلفة، محلات وسوبرماركتات ببضائع مختلفة إكزوتيكية.

أثارت الألوان الحادة، الضوضاء والصوت العالي عصبيتها، حيث كانت ترتدي الكثير من الملابس في هذا الجو المرعد الخانق بالرطوبة لكنها تحملت وواصلت. انحسر كعبها بين بلاطات الرصيف وانكسر. حملت الحذاء بيدها وواصلت المشي حافية. كان الصالون يقع في زاوية بواجهة زجاجية عريضة. مقاعد الصالون صُفّت في صفوف أمام المرايا. كان الصالون فارغاً ولم يكن هناك ظل لزيون. هناك مساعدة حلاق شابة

قصيرة بشعر أملس تقف أمام المرأة تتأمل وجهها. وقد جلست امرأة ضخمة عند الحاسبة تبخلق في الفضاء. الاسم المثبت بدبوس على الصدر يشير إلى أنها المديرية واسمها أيمي. اعتدلت في جلستها بحركة مرحبة وابتسمت عندما خطت نانا داخل الصالون يصاحبها قرع جرس الباب العالي. تابعت نانا مهمتها متناولة صورة مارياما من الحقيبة. انطفأت الابتسامة وانتشر التعب في وجهها.

- إنها زيونة عندكم، قالت نانا. جاءت المساعدة إليهما وأخذت تشاركهما النظر للصورة. كانت تضع حلقة في شفتها العليا. حلقة معدنية صغيرة صقيلة.

- حقا، قالت المديرية بحاجبين مرفوعين. كانت ترتدي بنطلونا أسود ضيقا مطاطا وكنزة بيضاء.

- شعرها جميل، تناولت المساعدة الصورة.

- من المفترض أنك أنتِ التي صففت شعرها فكما تقول هذه السيدة هي زيونتنا. وضعت أيمي نظارتها التي تدلت بسلسلة حول رقبتها أعلى أنفها.

- هل تريدان حجز موعد لها، دعيني أرى. تصفحت المفكرة إلى الأمام والخلف.

- لقد اختفت، قالت نانا. نظرت المساعدة بشك إليها.

صفقت أيمي المفكرة.

- لا يمكننا مساعدتك. لا علاقة لنا بالأمر. لقد صرتُ

مواطنة بريطانية منذ خمس سنوات. ذلك يجعل السفر إلى الخارج أسهل بكثير.

جوازي على الدوام معي. قريبا من قلبي. وضعت أيمي يدها على قلبها.

- اعتقدتُ ... بحثتُ نانا عن كلمة. غامت الدنيا أمامها.

دارت المرايا من حولها

ما جعلها تشعر بأنها تجلس في أرجوحة دوارة.

- ... ربما كانت هنا أخيرا.

- اسمعي ليُدي. لا حق لك في المجيء هنا لتتهمينا ...

- أنت أسأت فهمي. أنا هنا للبحث عن طفلي الصغيرة.

- لا نريد سماع المزيد عن طفلتك الصغيرة. نهضت أيمي.

المساعدة تشجعت.

- لقد كانت هنا.

- متى؟ أمسكت نانا أنفاسها.

- لا أدري، غيّرت المساعدة رأيها.

- لا بد أن اسمها لديكم في السجل.

- عذرا لدينا شغل. دفعت أيمي بصدرها إلى الأمام.

- إن سمعنا شيئا عنها ... بادرت المساعدة بالقول.

- لا يمكننا مساعدتك. رفعت أيمي كتفيها. بدأت نانا

تضجرها.

- لن آخذ المزيد من وقتكما. توجهت نانا إلى الباب.

- ما الذي حصل؟ قدماك تنزفان، قالت أيمي.

- انكسر كعب حذائي. ورفعت الحذاء.

- بإمكانك غسل قدميك، عرضت عليها المساعدة، ولكن نانا

كانت تريد أن تواصل مشوارها.

- هل لديكما مانع من وضع صورتها في النافذة لعل أحد يتعرف عليها؟ كانت تعرف من خلال مارياما أن كلا من المديرية والمساعدة من غامبيا.
- من حيث المبدأ فنحن لا نفعل مثل هذا أبدا. لانت أيمي قليلا. لقد تركت قدما نانا النازفتان انطبعا بداخلها. لم تكن نانا تشعر بشيء.
- أنت لست بريطانية؟ قالت المديرية بوعي بلكنة أوكسفوردية مقلدة.
- دنماركية، أوجزت بضيق. لم يكن لديها ما تفعله في الصالون. أعطتها بطاقتها في حال سماعها «خبر مفرح». بدت أيمي مهتمة بالبطاقة.
- أنت مديرة أعمال إذن، قالت بطاقة بلسانها.
- مالية؟ هل أنت متأكدة أنها بطاقتك؟ قالتها شكاً في نانا.
- آمل أن تعثري عليها، قالت المساعدة واعترت كتفها العاريتين رجفة. كانت ترتدي جزءا علويا أسود مع جينز ضيق أسود تحت صدرية العمل البني. كان اسمها المثبت على صدرها عايده. شعرت نانا بالدموع تهم بالنزول ثانية. عايده تختلف عن مارياما كثيرا جدا ولكن كان ذلك الشباب اليانع هو المشترك بينهما، فترة الرضاعة وما قبل التفتح. ودّت نانا لو احتضنتها. بل أن تأخذها إلى البيت وتتبناها. قاومت دموعها وهي تشعر بالحصى تحفر في كعبي قدميها. غيّرت ثقلها من قدم إلى الأخرى وودت أن تشكرهما للطفهما ولكن أيمي سبقتها.

- سنبقي أعيننا مفتوحة. قالت أيمي متعاطفة مع نانا كأنها لم تصدق قصتها ولكنها اعتبرتھا إنسانة مسكينة تمر بأزمة نفسية.

- شكرا، إنه لطف منك. كان لديها شعور غريب بالأمان في صحبة هاتين المرأتين. كان يمكن أن تكونا أمّا وابنتها. كم تمنّت لو كانت واحدة منهما تعمل في زاوية آمنة من لندن في صالون لطيف جميل يحب الزبائن المجيء إليه للدردشة والارتخاء. بينما وقفت نانا سارحة مع أفكارها دخلت الزبونة الأولى. غيرت أيمي تركيزها. من الغرفة الخلفية ظهرت مصففة الشعر طويلة القامة مرتدية صدرية بلون القهوة بالحليب بحواف وردية جاهزة لتغطي احتياجات الزبون. حضر المزيد من الزبائن وفي توقيت مناسب ظهرت اثنتان أخريان من المصففات.

وجدت نانا نفسها محاطة بمجموعة كبيرة من حولها لكنها تمكنت من التسلل بهدوء عبر الباب من دون أن ينتبه إليها أحد.

في نهاية هاي ستريت ساوث كان يقع «الأسد الأسود» ذو الطابوق باللون الأحمر الغامق، أبراج وقمم كنائس وحجر أسود وإعلانات ضوئية لكارلسبيرغ في النوافذ كأنها أخذت من قصص الأخوة غريم الخرافية. احتاجت نانا إلى شيء ما قوي تتدعم به فعبرت الشارع صوب البناية العجائبية التي يمكن أن تكون أيضا تركيبا يمت إلى إحدى روايات كافكا التي قرأتها بشغف أيام شبابها المبكر. في صعودها السلم الحجري العالي

في الطريق إلى المقهى ترحلقت وسقطت. لقد مشيت بقدمين حافيتين تمسك بفردتي حذاءها كل واحدة بيد، ولم تستطع أن تتشبث بسيّاج السلم الحديدي عندما زلقت قدمها. زلقت على بطنها فوق درجات السلم إلى الأسفل وانتهت على الرصيف بكعبي قدميها المتشققتين إلى أعلى.

ظلت باقية في مكانها ولم تكن لديها رغبة في النهوض. كانت تريد أن تتزحلق بعيدا عن حزنها وخجلها من عدم قدرتها على الاعتناء بمارياما وحفظها من الإصابة بأذى. ولكن كان عليها أن تؤمن بحدوث معجزة تعيد إليها بنتها ثانية. شعرت بأحد ينقر كتفها. صعب عليها رفع رأسها بوضعها الأخرق حيث وجهها بوجه بلاط الرصيف. تمكنت من النهوض أخيرا بالاستناد إلى كوعها. نظرت في وجه مشوه وممسوح. عدسات عينيها تحركت من مكانها في محجريها. كان هناك رجل طويل وسيم ببدلة رمادية اللون وبياقة صينية وحذاء مصبوغ لامع، انحنى عليها وحاول أن يساعدها للوقوف على قدميها ولكنها انخرطت وجلست على الأرض تفكر برعب في مظهرها.

سمعت صوتا يصيح «إسعاف» فخافت أن يخفوها بعيدا ويحولوا دون مواصلتها البحث عن مارياما التي كانت الطريق الوحيد الذي يجعلها تحتفظ بالأمل وبعقلها.

وقفت ببطء وترنحت قليلا قبل أن تجد توازنها بوقفة معتدلة. تركت حذاءها على الأرض لتتأكد من محتويات حقيبتها ثم انطلقت بخطوات ثقيلة وقدمين مهترتين لتبتعد عن الرجل وهاتفه المحمول صوب محطة الأنفاق. جففت

وجهها بمنديل وسوت بيدها خصلات شعرها النافرة. كان المكان خالياً، والهواء من حولها بارداً.

صعدت من محطة أنفاق أبتون بارك، منهكة تماماً مرضوضة الجسم كأنها قد تعرضت إلى اعتداء. مشيت بروح هائمة صعوداً ونزولاً عبر ساحة أبتون بارك بمحلاتها المتلاصقة ولغة أسمائها التي لم تتعرف عليها. لم يكن لديها أدنى فكرة عن أي بلد توجد فيه. لم تكن لا في بريطانيا ولا في مكان آخر على الخريطة. تيار البشر على كلا جانبي الشارع المزدحم جداً بالسيارات كان خليطاً ملوناً تماماً لدرجة لا يعود فيها معنى لمعرفة البلد الذي جاءوا منه. وجدت نفسها في المستقبل حيث كل الجنسيات تذوب بعضها في بعض ضمن بشرية متعددة واحدة.

دارت في جولة داخل السوق المسقوف المظلم خلف المحطة. نظرة سريعة كشفت لها عن أغلبية الموجود، بأئس وقديم: ساعات، مظلات، أدوات احتياط، جوارب، جميعها بسعر سحري: باوند واحد. فكرت نانا قليلاً في ضرورة جلب شيء معها للخالة والعم في طريقها. دخلت في عمق السوق إلى محل ورد مقلقل ببضاعة تعسة. اختارت باقة قرنفل لا بأس بها.

كان عمر، ابن عم مارياما الأكبر هو الذي فتح لها الباب. ابتسم متأثراً عندما رآها. وقفت أمينة من خلفه. كانت في البيت في الفترة بين دواميهما الصباحي والمساءلي. دفعت جسدها لتصير أمام عمر مقابل نانا عند الباب ويدين إلى الجانبين قالت لها:

- ما الذي حصل لك؟ فتحت عينيها. هزت نانا رأسها. لم يصدر صوت منها. لقد جاءت لتسمع شيئاً جديداً عن مارياما وإن كانوا قد اتصلوا بالشرطة بعد آخر لقاء لها بهم هنا. ولكن لقاءها بالوجهين الحزينين المسكينين صدمها. أدخلتها أمينة إلى البيت.
- هل اعتدى أحدهم عليك؟ سألتها بقلق وقد أجلستها على مقعد في المدخل. طلبت من عمر أن يعد حوض الاستحمام لها.
- أرجوك قولي شيئاً، قالت أمينة أمرة.
- مارياما، قالت بهمس وناولتها باقة الورد. تناولت أمينة الورد الذي تدلت رؤوسه.
- ألا نسمع جديداً هو خيرٌ من سماعنا للسيئ. نظرت أمينة أمامها وتنهدت.
- أمها تتصل بين كل ساعتين، واصلت.
- آسفة جداً، اعتذرت نانا ورفعت أمينة يدها بحركة صادة.
- إنه حقها. مارياما طفلتها، قالت. جاء عمر ليخبرهما أن الحمام جاهز. نظرت نانا بارتباك إلى أمينة.
- أنت بحاجة إلى ذلك، قالت مختصرة وساعدتها على الوقوف. عملها مبكراً بالتمريض مخزون بقبضتها الثابتة والرقيقة معا.
- تبدين في حال فظيع، أكدت لها بمباشرة.
- بإمكانك أن تستعيري ثيابي ولكنك نحيفة جداً وأنا يعني... ثخينة كما تعرفين. ضربت أمينة على بطنها. دخلت الحمام. أجلستها ثانية على طاولة.

- هذا لطف منك. شعرت بدوار من هذه الرعاية والحنان غير المتوقعين.

- احذري. فتحت أمينة صيدلية البيت التي كانت ملأى عن بكرة أبيها.

- هذا لدهن قدميك بعد الحمام. ناولتها زجاجة صغيرة ببلسم للقدم ووضعت نعلًا خفيفًا لها في الشاور.

- ليس بمقاسك ربما ولكن لكي تعودى به إلى البيت، قالت أمينة كأنها تحدث نفسها.

- اليوم يكون قد مر أسبوع منذ... مارياما... كانت نانا قد وضعت خارج الواقع وفي داخل حلم يدور في مكان مجهول بين أناس غريباء بتقاليدهم وعاداتهم التي لا تعرفها.

- ماذا عساي أن أفعل؟ ماذا عساي أن أفعل؟ قالت بصوت خفيض كأنه حسرة عميقة.

- خذي وقتك، أنا سأكون بالتأكيد قد ذهبت إلى عملي عندما تنتهين. سيعتني عمربك. خرجت أمينة من الحمام بهدوء وأغلقت الباب.

نضت نانا ملابسهـا بسرعة. كانت أزرار سترتها قد انتزعت بسقوطها وتدحرجها من على السلم. والتنورة الضيقة قد انشقت. ترحلقت في الماء الدافئ من دون أن تشعر بجسدها. كان الحمام فوضى، شبيها بكهف من دون نافذة. كانت الأرواب معلقة والمناشف بعضها فوق بعض. والمشجب يكاد ينخلع من على الجدار. الصابون، معجون الأسنان والقطن وفرشة الأظافر، إسفنجة الحمام ومبرد الأظافر، المقص والمشط كانت

في سلة مصفورة. النعل وسلة المهملات البلاستيكية وصفوف من ورق التواليت ملأت الأرضية. وجدت نفسها وسط يوم العائلة المزدحم ومع حاجات الأربعة النشطاء. لم تكن نانا على عجلة. كان عالمها خاليا. والفراغ جعلها بلا قرار. لم يكن هناك من سلام في داخلها فنهضت ونزلت من الحوض من دون أن تستمتع به. تناولت أقرب منشفة وجففت جسدها بسرعة. ضايقها أن تعود لترتدي ملابسها الوسخة ذاتها. جلست على مقعد التواليت تفكر فما ستفعله حين مغادرتها الحمام.

لم تدرك كم من الوقت مر منذ جلوسها حين طرق باب الحمام بحذر. ثم ألح في الطرق أكثر وأكثر. لم تع شيئا إلا بعد سماعها عمرو وهو يذكر اسمه. فتحت الباب قليلا.

- آسفة لأنني شغلت الحمام.

- لا لا، خذي وقتك. أردت التأكد فقط من أنك بخير. وجهها الجامد جعله يرجع إلى الخلف خطوات.

- هل يمكننا التحدث للحظة؟ خرجت من الحمام مثل حلزون ترك بيته.

- حول ماذا؟ قال عمر بشكل رافض. كان يتحدث بخلاف والديه بطريقة خالية من لكمة.

- هل لديك فكرة عما يكون قد ألمّ بمارياما؟ جلست نانا على ذات المقعد الذي جلست عليه قبل أسبوع. الصدمة قد طبعت أثرها في جسدها، مثل عبء كبير يثقله.

- لم تكن سعيدة بوجودها هنا. أدار عمر ماء مغليا في

- كوبين بكيسي شاي.
- ما الذي أخطأنا بفعله؟
- عفوا، أعني بالطبع...
- هل لديك أدنى فكرة عما يكون قد حدث؟ كررت نانا.
- لم يجبها عمر.
- هل يمكن أن تكون قد هربت مع بوي فريند؟ قالت
- لنتحسس تفكيره.
- لا أعرف شيئا عن البوي فريند. اضطر عمر للقول مرغما
- ولم يقدم الشاي بمبادرة منه بل لأن أمه طلبت منه ذلك. ثم
- تعرف نانا كيف تواصل أسئلتها التي بدا أن عمر يجهلها.
- جلس قلقا وبدا موزعا من دون أن يمسّ شايه.
- كانت متوترة جدا لشيء ما، بدأ بالقول كاسرا الصمت
- الذي فرض نفسه عليهما. تقدمت نانا بجذعها تجاهه.
- متوترة من ماذا؟
- لم تقل.
- هل رافقت بشكل أو بآخر أصحاب سوء في رأيك؟
- لم أكن حارسها. انسحب عمر مجددا إلى نفسه. لم تحب
- نانا أن يتحدث عمر في الماضي.
- ولكن ما رأيك؟
- لا رأي لي. نهض عمر من مكانه وأضاف فجأة:
- نحن جميعا قلقون.
- وأنا كذلك... وبيا وين.
- لا أحبهما، تمتم عمر. صعقها ما قاله.

- هل قالت مارياما شيئاً عن بيا وبين.
- القليل أجل... ولكن ليس الكثير.
- ما الذي قالته؟ قالت نانا مصدومة.
- لا أدري، قال عمر. كان هناك شيء حول انغلاقه بلا صبر ما يذكرها بمارياما.
- ألم تشتكِ من شيء بخصوصنا؟
- آسف، لديّ موعد. نظر عمر إلى ساعة موبايله. لم تستطع نانا أن تستجمع قواها لتغادر. كانت عائلة مارياما هي أملها الوحيد.
- سأرافقكِ إلى الباب. تقدمها عمر إلى المدخل من دون أن يتأكد من أنها تتبعه. رفع السلسلة عن قفل الباب وفكّ باقي الأقفال وفتح الباب لها قبل أن تلحق لتصل المدخل.
- شكرا للحمام والشاي، قالت بتواضع شديد يصل حد التوسل تقريبا وتحاشت النظر في المرأة الكبيرة التي كانت بحجم القامة في المدخل.
- لا أستطيع مساعدتك، اعتذر لها.
- هل عادت مارياما إلى غامبيا؟ عرفت في اللحظة أن سؤالاها كان غبيا. لقد بدت نانا طوال الفترة مع مارياما وعائلتها كأنها كانت متخلفة عقليا في تصرفاتها. أمسكت بيد عمر طويلا.
- أمها تتصل طوال الوقت. قال عمر متحاشيا وهو يسحب يده. ظلت نانا واقفة عند السلم بعد أن أغلق الباب وراءها. نظرت إلى نعلها البلاستيكي الذي لا شكل له بلونه الأصفر الصارخ.

لم تعرف أين تتوجه. كل ما تعرفه هو أنها لا تريد أن تذهب إلى شقتها في هنري ديكنز كورت.

وقفت مارياما في الطابور عند مدخل قسم الدراسات الشرقية والأفريقية (سواس)، حيث يقوم رهبان هاري كريشنا حليقو الرأس بملابسهم البرتقالية بتقديم الحساء كل مساء للطلبة المحتاجين مجانا. لقد فقدت شهيتها في إقامتها عند المضيفين الإنجليز. كانت تفضل الاستلقاء على الحشيش الأخضر وتنصت إلى الأشجار والطيور والسحالي، البحر والسماء عند الشاطئ وأن تترك العقل ينام لكنها أجبرت نفسها على الأكل لتحصل على طاقة لتتدبر حالها من دون الكلية وخارج إطار القانون. ولكن مازالت الفيزا لم تنته مدتها بعد، مازال هناك ملجأ لها، مازالت هناك مهلة قصيرة.

كان وقتا مضطربا وبلا وزن، قوس قزح وورود منذ أن حزمت أشياءها وغادرت شارع بورتلاند والروح التي عقدت معها اتفاقا بألا تتبعها بعد مغادرتها إلا في أحلامها. كانت تأمل أن تجد جانبيت قبل أن تظهر الروح ثانية. لقد بحثت عنها مع أولاد عمها في الدسكوات والبارات من دون نتيجة. اتفقوا في النهاية في أن جانبيت لا تحب الآفرو- ميوزيك.

كان ذلك خلال تلك الغارات في البحث عن جانبيت عندما التقت جيهران أحد أصدقاء أولاد العم. كان هناك عزف في ذلك المساء في «الغيوم العابرة» لفرقة «طعام الدود» من الكونغو المفضلة لديها. (الخالة أمينة التي كانت في انتظارهم بروبها الوردي والتي تستقبلها بتحقيق حالما يخطون عتبة الباب لم

تطلق اسم الفرقة هذه. كانت تعتبره كفرا بحق الموتى). تقدم جيرهان ليسألها عن سبب عدم رقصها ولم لم تبد سعيدة. حافظت على هدوئها وقالت إنها مجهدة بسبب الدراسة والعمل في سينزيري. قدم لها شرابا ولكنها فضلت الكولا. جلسا في صالة المعيشة وانضم أولاد العم إليهما.

كان جيهران قد عاش في أمريكا ونجح في عمله التجاري هناك. تمكن من تمويل دراسته في جامعة لندن للقانون. كان يتحدث من عائلة صيادين، ولكن لم يتبق هناك من سمك ليصطادوه عند ساحل البحر. والده علمه أن ينهض مبكرا ويعمل بجد وهو ما يريد تعليمه لأطفاله أيضا. كان يريد العمل في مجال حقوق الإنسان عندما ينتهي من دراسة الماجستير ويساعد الغامبيين الشباب الذين لم يكن لهم طريق رجعة إلى بلدهم ولا حياة في لندن. الذين يأتون إلى بريطانيا بعد حصولهم على فيزا زيارة ويبقون بعد انتهائها. لم يكن في مقدورهم الحصول على عمل ولا من شيء لهم ليفعلوه. يبدأون بشرب البيرة منذ الصباح بمجرد أن يستيقظوا ويكملون بالحشيش والماريوانا. يجلسون طيلة اليوم مقابل sky channel ولا يغادرون إلا بحلول الظلام، فقط من أجل إثارة المشاكل. على الشباب أن يتعلموا من الأمريكيين، كما قال. أنهم مقاولون لحياتهم بأنفسهم، أنهم ولدوا أصحاب مشاريع. شعرت مارياما بأمان غير معتاد بوجود جيهران. لم تسمع من قبل من يتحدث عن المقيمين اللاشرعيين هكذا من دون ازدراء. وجود أولاد العم لم يحل دون أن تنشأ بينهما عاطفة من أول

مرة التقيا فيها في «الغيوم العابرة»، والتي تطورت سريعا إلى أكثر من ذلك.

لم تفقد مارياما مظهرها الجامعي الأنيق. لقد حرصت كثيرا على أن تبقى ملابسها نظيفة مرتبة لكي تنضم إلى طابور الطلبة للحصول على حساء مستغلة عرض الطائفة السخي.

كانت هناك امرأة مشردة بمظهر غجري جلست عند جدار المكتبة مع ضبة من مجلة المشردين «The big issue» في حضنها. كانت لها عينا مغلقتان، ترتدي طبقة ثخينة من البلوزات والصدريات المحيكة وتنورات بطويات مضاعفة من القماش. لم يظهر أنها كانت متحمسة لبيع حصتها من المجلات. حرصت مارياما على أن تبقى مسافة بينهما لئلا ينتهي المطاف في يوم ما بها ليحين دورها في الجلوس من الصباح حتى المساء تحت المطر الإنجليزي والعصف لتبيع قدرها.

فكرت بحزن بخصوص لقائها الأخير مع مرشدها الدراسي. آلمها أن تخذل الرجل المسالم الذي ساعدها والذي بذل كل جهده من أجل مساعدة طلابه، وكان طوال الوقت مستعدا للنصح والمشورة إن صادفتهم مشاكل مع واجباتهم الدراسية. لقد صرف وقتا إضافيا وطاقة من أجل تحسين لفظ مارياما الإنجليزي. كانت المجموعة الصغيرة الصغيرة بثقافتها الخاصة ولكنها والتي خالطتها مارياما أثناء عملها في سينزيري في غرفة الاستراحة المملأ بدخان السجائر قد قلصت قاموس

مفرداتها وجرت تلفظها إلى الاتجاه الخاطيء كما واجهها مستر تاونسيند به. كان أسهل على مارياما الانسجام مع تلك المجموعة في عملها من كلية Southwark. لم يتعين عليها التظاهر بشيء، كانت تتصرف أكثر على طبيعتها.

كان نسخة حية من مستر براون في كتاب الإنجليزي. بشعر مبعثر بني اللون بفرق شَعْر أبيض وذات السترة المزرة من التويد والجزمة برياطها ذي الخطوط المتوازية الدقيقة حول الكاحل. بتلك الجزمة الكبيرة كان كأنه عملاق في مكتب مزدحم صغير في الطابق الثالث خلف باب رقم ٢٩٢ وقد بدا شبه رجل متوحش من الغابة أكثر من كونه بروفيسورا. لقد صارحته مارياما بسؤالها له عن إمكان أخذ استراحة من الدراسة. كانت بحاجة إلى وقفة لجرّ النفس تمكّنها من رؤية أكثر وضوحا لوضعها. الفرصة ستمنحها نظرة عامة شاملة وتجدد من حماسها في الدراسة لكي تكون أكثر تحصينا في إقدامها واجتيازها للامتحان.

اعتذر مستر تاونسيند عن عدم تمكنه من منح إجازة فيزا دراسية أو فرصة خلال الدراسة كما هو جار مع الطلبة البريطانيين وعلى الأخص في هذه المرحلة المبكرة من الدراسة. صفق ضبة الأوراق على المكتب أمامه ونصحها بأن تقاوم إن كانت تأمل في البقاء في بريطانيا. لم يؤملها بشيء ولكنه وعدها في المقابل أن يمدّها بكل المساعدة التي تحتاجها. كان طلبها خارج ما يمكن القبول به، يحتاج إلى معجزة كما قال ليخفف عنها لكنه لم يكن ممن يؤمنون بالمعجزات.

في الطريق إلى البيت اتخذت قرارها من دون استشارة أحد .
ولا حتى بينتا التي شاركتها في المقابل أفكارها وأحلامها . كان
جيهـران قد قال لها مقدما إنه سيدعمها بمجرد أن تكون على
يقين من صواب القرار الذي تتخذه .

لم يلحظ أحد نانا و ثيابها الرثة ونعلها البلاستيكي
الذي تقرحت قدمها بسببه . في طابور الحساء كان الجميع
سواسية أمام الله . وإن كانت نانا تعترف ياله الصدفة فقد
حانت اللحظة التي ستركع فيها . أمامها في الطابور كان
الكثير من السود الذين لم تنتبه لهم . كان جهاز حواسها يقف
عند نقطة الصفر . وطاقتها قد استنفدت . كانت تحلق في
الهواء مثل بالون أفلته طفل شرير . لم تأكل شيئا طوال اليوم
والقليل القليل في الأيام التي مرت . ولكن الجوع قد أشعرها
بفراغ معدتها الذي أثار غثيانها عندما دخلت رائحة الخضار
المبهرة أنفها . لقد اختزلت إلى رقم في الطابور باحتياج أوحـد :
صحن ورقـي بقطعة خضار مسلوقة تعوم في سائل تالاً بحبات
الدهن .

في المقدمة عند القدر الأسود للـرهبان الذي تم نقله بواسطة
عربة سحب كان قد وقف زوج يمـسك كل منهما بصحنه . في
اللحظة التي استدارا متوجهين في طريقهما لصعود السلم
تنبـهت نانا إلى أنهما كانا من السود لأنها تقدّمت إلى الأمام
بمحلّين ولم تعد في مؤخرة الطابور . لم تكن لتواصل انتباهها
لهذين الاثنين لولا أنها سمعت ضحكة مكبوتة عندما تهاوى
الصحن الورقي للحساء وسقط عند قدمها ثم اقتراب شاب

بشعر آفرو مقصوص تمتم «آسف»، انحنى للأسفل محاولاً أن يغرف الخضراوات ليعيدها إلى الصحن بملقعة من البلاستيك التي تمنح مع الحساء.

تلطخت ساقا نانا قليلاً لكنها لم تأبه للحادثة. ابتعد الشاب ثانية ورمى بالصحن في سلة المهملات وجلس على درجة السلم إلى جانب صديقه التي أشركته في صحنها.

هنا تنبهت نانا لأول مرة إلى شيء تعرفه بخصوص هذه الشابة لكنها تصورت أنها قد جئت أو أنها كانت ترى رؤى. كانت تريد الركض صوب السلم ولكن جسدها كان كأنه من الرصاص، وقدميها ترفض أن تطيعها. رمشت بعينيها والرؤية ظلت أمامها لم تختف. بدت مارياما أمامها مثل واحدة من العجائب. ترددت. هناك ما جعلها تتراجع. اليقين والفرح بعثورها على مارياما بحالة جيدة هو كل ما تمنته لنفسها. كان رد فعلها الأول هو ألا تضيّعها عن نظرها ثانية وترضى بأنها على قيد الحياة وبخير (هكذا بدت على أية حال من على مبعدة)، وأن توصل الخبر السار إلى العائلة في أبتون بارك وأن تعلمهم أن بالإمكان العثور عليها في طابور هاري كريشنا للحساء عند سواس في اليوم التالي، في ذات الوقت وذات المكان.

نهض الاثنان وتحركا صوب شارع ماليت. خرجت نانا عن الطابور الذي قصر جداً وتبعتهما على مسافة. لم تجد أنها تستحق عودة مارياما بهذه السرعة وما زالت لم تجرؤ على تصديق عينيها بأن مارياما تسير حية ترزق أمامها، وأن ذلك

لم يكن مجرد خداع بصر. الشابان كانا يتمشيان بنسق إيقاع واحد منشغلين أحدهما بالآخر عن الانتباه إلى أن أحدا يتعقبهما. ودّع أحدهما الآخر عند ساحة يوستن واختفى الشاب في نزوله السلم إلى محطة الأنفاق. ظلت مارياما في مكانها تتأمله للحظات ثم لَوّحت له وتحركت في الاتجاه الذي تقف فيه نانا. لم تستطع نانا أن تفعل شيئاً غير أن تظل واقفة في مكانها منتظرة أن تقترب مارياما وتراها. لكنها انسلت إلى شارع الجامعة وأسرعت نانا تجري خلفها.

كي لا تختفي ثانية قبل أن تتأكد تماماً أنها مارياما وليس وهما ما رآته ركضت نانا وراءها وصاحت باسمها فاستدارت مارياما. انفرج وجهها عن ابتسامة، كم بدت تشبه نفسها! وفي الوقت نفسه مختلفة! جمعت شعرها بمطاطة سوداء إلى الخلف مرفوعاً عن جبهتها. بدا وجهها مشدوداً أكثر ناحية فمها ونظرتها أخرى.

- أين كنت كل هذه المدة؟ طارت من فمها الكلمات.

- آسفة نانا لقد ضعت ولكني في طريقي لأن أجد نفسي مجدداً. تلمست بارتباك السلسلة التي أهداها إياها جيه ران.
- لم فعلت هذا بي؟ فوجئت نانا بحجم الغضب الذي غطى على الفرح بالعثور عليها بخير.

- أنا آسفة نانا. كان عليّ أن أترك ذاك البيت قبل أن تحتلني تلك الروح. صدقيني، لقد حاربت حقاً وأنا مازلت أسعى للعثور على جانيت.

- أنت مدينة لي بتوضيح أفضل من هذا، قالت نانا ببرود

جامد لم تعرف أنها تنطوي عليه . لقد وجدت نفسها في جانب الظل .

- هي لا تريد إفلاتي مادمت بقيت في ذلك البيت . قالت لها مارياما ولكن نانا لم تكن ترى أو تسمع .
- بينتا قالت إنك رأيت شبحا في محطة شارع ليفربول، هل كانت هي؟

- لا، كان جيهران، حبيبي . انفرجت أسارير مارياما .
- لم لم تخبريني أن لديك حبيبا ؟
- حدث ذلك سريعا . خفضت مارياما بصرها .
- إذن فانت لم تؤدي امتحاناتك ورحت تتسكعين مع أحدهم من الآفرو .

- لقد تركت الدراسة، قالت مارياما بصوت خفيض .
- ستقعين حقا في مشاكل .
- هو ما أنا فيه الآن . لقد تشددوا في مراقبة أمر الفيزا الدراسية للطلبة الأجانب .
- ماذا يعني تشددوا ؟ لم تكن نانا تستطيع السيطرة على غضبها .

- إن لم يحضر الطالب للكلية سيتم طرده خارج بريطانيا .
- هل صرت مقيمة غير شرعية ؟ لم تستطع نانا أن تنطقها .
كل تعبها راح هباء . خططها الكبيرة مع مارياما كقصة ناجحة قد ضاعت .

- عندما تنتهي صلاحية الفيزا سيعتبرونني «overstay» مقيمة خارج الفترة المسموح بها .

- ولكن ذلك غير مشروع.
- أنا أعمل بساعات كاملة الآن في سينزيري، قالت مارياما مدافعة عن نفسها.
- كان بإمكانك إذن البقاء في بلدك في هذه الحالة.
- ليس هناك من عمل، قالت مارياما بصعوبة.
- هل حقاً ليس لديك هدف أكبر من هذا؟
- بعلمي طوال اليوم أستطيع أن أرسل مبلغاً أكبر إلى العائلة.

- هل يوظف سينزيري مقيمين لا شرعيين؟
- لم أكن غير شرعية عندما وظيفوني.
- أين كنت، منذ هربت من بيا وين؟ لقد تلبس الغضب نانا.
- جيهران يساعدني في الحصول على سكن هنا وهناك، قالت لتتحاشاها.

- لن يدوم الحال بإقامتك سرا في البلد. لا أمان. لا مساعدة تحصلين عليها إن حدث لك شيء أو مرضت.
- إنها حياتي الآن. بعدت مارياما بنظرها.
- من هو هذا ال جيهران؟ ماذا يعمل؟

- يدرس الحقوق. إنه يعمل في مجال حقوق الإنسان ومساعد متطوع للشباب الغامبيين الذين علقوا في لندن بعد انتهاء فيزا زيارة. يقول إنها ليست حياة كريمة تلك التي يحيونها. ليس لديهم غير عمل المشاكل. إنه هدر في المصادر البشرية.

- لم لا يعودون إلى بلدهم؟ تكاد نانا تفقد صبرها.

- إنهم قد وقعوا في مصيدة. لا يريدون أن يجلبوا العار لعوائلهم. إنهم لا يستطيعون لا العودة ولا البقاء هنا. لا يستطيعون العودة من دون نجاح وثروة وفي بريطانيا، الطرق مسدودة بالنسبة إليهم.

- ما الذي يريده من سيصير محاميا مستقبلا من أصدقاء كهؤلاء؟

- يريد أن يعلمهم الكفاح من أجل البقاء مثل الأمريكيين. إنهم مقاولون لحياتهم، ولدوا أصحاب مشاريع. تحدثت مارياما بحرارة ولمعت عيناها.

- أنت أيضا لا شرعية مثل أصدقائه.

- ولكني أعمل بجد، أجابتها بثقة.

- عليك بالعودة إلى بن ويا ولي وإلا ستضيعين، قالت نانا وهي تشعر بأنها لم تعد تطول مارياما.

- جيهران يعمل لدى محام وربما يستطيع مساعدتي.

- ما نوع هذا المحامي؟ قالت نانا بمرارة لتركها خارج الموضوع تماما.

- لديه شركة حمامة في بانيول وفرع لندن في دالستون. لقد تحدثت معه.

- من أين لك الإمكانية لتدفعي تكاليف محام.

- إنه يقدم استشارات حقوقية مجانية للمقيمين غير الشرعيين ويحاول أن يجعل موقفهم طبيعيا ولكن الفرص قليلة كما يقول.

- هل تريد حقاً أن تظلي مقيمة غير شرعية.

- أنا آسفة جدا نانا، سأبقى طيلة حياتي ممتنة لكل ما فعلته من أجلي. كان في البدء مجرد حلم وقد صار واقعا.
- أعتقد أنك تتمنين بداخلك العودة إلى بلدك. بإمكانني بكل سرور أن أشتري لك بطاقة عودة إلى بانيول.
- لا أستطيع العودة. العائلة معتمدة عليّ. ليس لديهم غير ما أرسله من نقود.
- عليك التفكير في نفسك. ما الذي سيحصل لك؟
- قالت نانا. كان ذلك فوق استيعابها ألا تكون مارياما بحاجة إليها. هذا الاحتمال لم يكن له وجود في عالم تصورها.
- سأدبر أمري. رفعت مارياما كتفها، وإصرارها على تفاؤلها كان مهينا لنانا.
- إن عثرت الشرطة عليك ستطردين.
- لا يستطيعون العثور على الجميع... إحصائيا، قالت مارياما بإشارة مازحة لإيمان نانا بالإحصاء والمصادفة.
- وليس لي خيار.
- أكاد لا أعرفك مارياما.
- لندين قد طورتنني.
- أجل في الاتجاه الخاطيء. كان الهدف أن تحصلي على دراسة.
- عذرا نانا، قالت بشعور بالذنب، لقد أخذ جسدي ما يحتمل من المعلومات. تعليم، تعليم، تعليم، تشبعت أكثر مما يجب ولم يكن لدي وقت لهضم ذلك. الوقت صار عدوي.
- لا أفهم.

- عفوا، كررت مارياما، رأسي توقف عن العمل، جسدي تمرد، كنت بحاجة لأتنفس وأتحسس العالم من حولي. كان عليّ الخروج إلى الضوء ثانية، أنا أرى بوضوح أكثر الآن. لقد تركت الحبوب ومع الوقت سأنضج.

- أن تتركي كل شيء هكذا ومن دون أن تخبري أحدا. مُنحتِ المأوى والطعام، مصروف الجيب، الملابس، ولن أتحدث عن تكاليف الدراسة التي تتطلب ثروة، لقد غششتِ باللعب ولم تأخذي الدراسة على محمل الجد.

- لم أستطع أن أحتمل الضغط الذي مورس عليّ من جميع الجهات، قالت مارياما.

- ما الذي تريدينه هنا إذن؟ صرخت نانا.

- العمل لكي أعيّل عائلتي.

- لا مستقبل في هذا، واصلت نانا في فورة غضبها.

- أنت لا تفهمين وضعي نانا. كانت مارياما بخلافها هادئة متزنة.

- لا أفهم غير أنني قد خُدعت.

- آسفة جدا، كررت مارياما للمرة الثالثة.

- إن استمررت بهذه الـ آسفة آسفة سأخنقك. وصلت نانا

حدود الألم ولم تعرف ما تفعل.

- لقد تعلمتُ الكثير وأعرف أكثر بكثير من ذلك اليوم الذي

سافرت فيه من بانيول. كنت حينها طفلة صغيرة جاهلة لم

تعرف العالم ولم تر أبعد من أرنبه أنفها. كل ما أنا عليه اليوم

هو بفضلكِ أنتِ.

- أنت لا شيء والمشروع قد فشل، قالت بسخط.
- صدقيني نانا، سوف أتدبر أمري. لديّ خطط لحياتي ولست وحدي.
- محاطة بالتعساء اللاشرعيين، في أي شيء سيساعدك هذا؟
- وجيهران، صحت مارياما لنانا.
- بمجرد أن يبدأ حياته العملية سيصبح أصدقاءه أغلالا في ساقيه.
- لا يصح أن تتحدثي عن حبيبي هكذا، قالت مارياما منفعة. نجحت نانا أخيرا في استئثارها.
- هل هو الذي ألقى بك في هذا المستنقع؟ لكي ينقذك بـ «حقوقه الإنسانية»؟
- كان قراري وحدي. كنت قد تخلّفت كثيرا في الدراسة بما يخص المنهج.
- ما الذي سيفعله جيهرانك؟ كانت نانا تريد أن تعرف كل شيء وقد بدت مثل مدير تحقيق.
- في البداية سيحاول أن يحصل لي على تصريح عمل، ربما عملي في سينزيري سيساعد في هذا.
- هذا غير واقعي، أريد التحدث مع المحامي الذي يعمل لديه هذا الشاب.
- اسمه جميل جاوارا، بإمكانك أن تجديه على النت.
- إنه محام معروف ومشهور، قالت مارياما فخورة بالرجل الناجح من بلدها.

- هذا هو إذن جزاء إحساني، لا ينفع، ابعدني، قاطعتها نانا
- أنت تسيئين فهمي.

- إنها أنت التي لا تفهم أننا مثل أوان مستطرفة.

- أنت لا ترينني كما أرى أنا نفسي. هزّت رأسها متسامحة.
خطت نانا نحوها تماما وتحسست قلبها يضرب على إيقاع
قلبها هي. وقفنا عاجزين أحدهما أمام الأخرى مرتبطتين
بنوايا حسنة وتوقعات عالقة لا أفق لها.

وقع نظر مارياما فجأة على مظهر نانا الرث ونعلها
البلاستيكي مفتوح الفم الذي لم يناسبها بالمرّة. اختفت
أناقته، أسلوب حياتها الخيالي الذي أعجبت به وحسدتها
عليه. وقف أمامها طير منتوف من دون سلطنة ثوب الريش
بألوانه المشعة. وقف أمامها إنسان عار لا هو غني ولا هو فقير،
ولكنه إنسان فقط مثلها مثل أمها مثل روزي. شعرت بخفة
حرّرتها. لقد نزلت نانا من السماء. لن تنظر إليها كأمثولة
بل كما هي.

- نانا ما الذي حصل لك؟ هل أنت بخير؟ قالت واحتوت
كتفيتها وشدّتها إليها. حركة مارياما غير المتوقعة أحدثت
تماسا كهربائيا في رأس نانا. إشارة ألم حادة في الجانب الأيسر
وصلتها من رقيقة معلوماتية ذات تحكم عن بعد حذرتها من
خطر محقق. إيعاز يقول إنها في خطر. آلاف من مصابيح
فلاش وامضة تتفجر في شبكية عينها.

في رجوع بعيد تسلّط الضوء فيه عليها وجدت نانا نفسها
تقف في استوديو التصوير ببدلة التخرج من الثانوية.

المصورة التي تحكمت فيها والتي كانت تمتلك خشونة رجل ببدلة رجالية مقلّمة أمام الستارة السوداء. أجلسها أولاً على طابورية ووضعت يديها متصالبتين ومرة عليها أن تبتسم ومرة أن تكون جدية، مرة الأسنان بارزة، ومرة أغلقي فمك وأخفضي غطاء جفنيك. بعدها أمرتها أن تضع يدها على حنكها، شعرها، خديها وصدغيها. وازدادت حدة طبع المصورة أكثر وأكثر بمرور الوقت أثناء التصوير.

تركت الكاميرا على الحامل وراحت ثم عادت بعد لحظة وبيدها كأس من الشراب أفرغتها بجعبتها مرة واحدة. اعتذرت نانا لأنها لم تكن من الوجوه التي تصلح للتصوير ولهذا أتعبت الأنسة في عملها. أسكتت نانا بحركة مسرحية من يدها ويقولها إنه لا علاقة لهذا بالوجه. بإمكان المصور الشاطر أن يحصل على نتيجة جيدة لأي وجه كان، حتى لأقبح الوجوه وأكثرها لا تناسقا. المشكلة التي كانت مع نانا أنها كانت من دون روح ومن غير الروح لا يمكن لها أن تأخذ صورة بورتريه. لم تظهر صورة على اللوح الفوتوغرافي. لم يكن هناك إشعاع. أدارت الأنسة كأساً أخرى لها مع تعليقها أنها لم تصادف مع خبرتها الطويلة في حياتها ظاهرة كهذه. أجل إنها ظاهرة، إنها كانت ظاهرة. لم تكن لها كلمة للاستثناء الغريب غير هذه. أول ما فكرت نانا فيه كان أنه لا بد أن خطأ ما قد حصل في المختبر أثناء «التلقيح الاصطناعي»، ربما قد كانت علمياً بتصنيف من الدرجة الثانية. وقبل أن تنتهي من فكرتها شعرت بيد المصورة تحط على كتفها. القائمة المعتمدة

وضعت قناع الوجه الخشن مائلا كمواساة لها.
دفعت نانا المراه عنها بحركة عنيفة لتحمي نفسها من
شيطان روعها بقبضته. هذا الجسد المتداعي تحول إلى كتلة
مشوهة وتجزأ إلى غابة من الظلال السوداء التي حوطتها.
شعرت مارياما بجمجمتها تضرب حافة الرصيف الحجري
بصوت ارتطام قوي أودى بفقدانها لوعيها. انزلقت إلى مملكة
الأرواح السحرية. في البدء كانت العتمة بلون الفحم كما في
ضباب دخان كثيف. بعدها لمحت ضوءا كشف عن سماء صافية
هائلة مرصعة بالنجوم. الفضاء الكبير الفارغ امتلأ بكواكب
باردة وشموس حارقة تحل الصقيع وتذيب الجبال الجليدية.
أمسكت بغلالة درب التبانة وانحدرت صوب الكوكب الأزرق.
حطت قرب خط الاستواء عند سوق سيرا كوندا، بعيدا جدا عن
حبيبها. كانت امرأة بيضاء تهيم في السوق. كان هناك شيء
مميز فيها. ولكنها لم تستطع رؤية وجهها الذي كان مغطى
بقناع. لم تخفي نفسها؟ لم لا تريد أن تكون هي! ولكن امرأة
أخرى داخلها كانت موطننا لتكاثر الأرواح والأشباح الشريرة.
ضاعت نانا عن نفسها في زحام الأرواح. هل كانوا في
الحقيقة بيضا لَوْنُوا بالأسود أوجههم بالمكياج وبألوان الأجساد.
هل أصابت عدوى الأسود جلدها الأبيض الناصع؟ هل صارت
سوداء بين السود أخيرا؟ استسلمت ويئست من إيجاد نفسها
في فوضى السوق وسط مسيرة الشياطين الصاخبين واختفت
في غالييري يقع جانبا، قدمت فيه النفوس الخيرة الشاي
القوي المحلى لها. لم يكدهدوؤها يعود إليها حتى حطت اليد

على كتفها تريد منها شيئاً لم تفهم مغزاه. وهي بطبيعتها لا تستطيع القيام بشيء من دون السببية. تأثرت عقلانيتها وهي لا علاقة لها بعالم لا يمكن لعقلها أن يستوعبه. ولكن الروح السوداء اقتحمت ساحة أفكارها بمجرد لمسها.

أنصتت مارياما إلى صوتها كأنها أنصتت إلى طيور وريح. كانت طريقة أخرى للتحدث. «أنت لا تذكرين إلا الأشياء السيئة، لا تذكرين الأشياء الحسنة».

قالت لنانا التي اختفت في متاهة أزقة السوق التي لا يعرفها غير أهلها. أحسّت مارياما بنبض الصمت ومن الصمت أقبلت جانيت عليها بثياب سود. «أنت الضوء، أنا الظلمة» قالت. «لقد بحثتُ عنك لكي تطرد الروح»، أجابت مارياما. «لا تخرجي. عندما تتوسط الشمس السماء سيختفي ظلك ومعه روحك» قالت جانيت بلطف كأخت. «اضطرتت إلى ترك الروح في بيت الإنجليز» اعتذرت مارياما بقولها. «قفزت من الإطار. لم أشأ أن أكون لوحة على جدار» قالت جانيت. «عليك بجلب الروح لكي يحلّ السلام على الإنجليز» ألحّت مارياما. «لا أستطيع أن أمنحهم سلاماً» حوّلت جانيت لونها، أولاً إلى الأحمر، ثم إلى الأصفر وإلى الأبيض وأخيراً كان اللون الأسود ثانية والذي يحوي كل ألوان الطيف. كانت على وشك أن تختفي في الصمت ثانية في عمق الهواء الصافي النقي الذي أبطل الوقت. حاولت مارياما أن تبقى جانيت قبل أن تستيقظ من الحلم ولكن الروح قد غادرتها. لم تعد نانا سيدة أمرها. لم ينفع أن تذكر نفسها بأنه لم يكن اللون الأسود ولكن الأبيض ما كانت تخافه، المهرج

الأبيض الذي أفقدها رشدها في أول مرة أخذها والداها إلى السيرك. تحارب العقل ولكن بلا نتيجة مع الخوف الجبار الذي خلق هذه الوحوش. كان عليها أن تجتث هؤلاء الشياطين. تقتلهم ولمرة واحدة إلى الأبد كي لا يجتاحوا وعيها الأبيض الطاهر البريء. ركبت أمواج قوى الإنسان الأعلى. غضبها البارد خنق الصوت الهائم الذي كان مثل دق أجراس في داخلها. «لا تخافي. أنا صديقتك».

صوت الأم البعيد صار يقترب ويقترب ويدخل عميقا في أذنيها، وفي رأسها يغرق الصوت في الأصوات غير المعتادة التي أيقظت الأم قبل الشروق. أصوات لشاحنات غريبة وباصات، لكبح فرامل شديد، صوت دوس الأحذية، صوت الأبواب التي تُكسر، صوت مشادات بالأيدي، صياح وصراخ، صوت السيارات الثقيلة التي ابتعدت ثانية، صوت الصمت الذي هبط على القرية، وهمس الأم المفزع: «مسلحون ببنادق ومجارييف أخذوا نساء ورجالا معهم، أخي أيضا، خالك. جاء أحدهم وأخبرنا أنهم أدخلوهم عنوة في الباصات وقادوهم إلى مدينة الرئيس مباشرة إلى الثكنات العسكرية ثم أجبروهم وهم يضعون المسدسات في جبهاتهم على شرب شراب أعشاب لاذع نتن الرائحة جعلهم يهلوسون ويتصرفون تصرفات غريبة. البعض منهم أصابه الإسهال والقيء، وآخرون ماتوا بفشل كلوي، وآخرون تم اغتصابهم، لقد أجبروهم على الاعتراف بأنهم سحرة. قالت الإشاعات إن مطاردي السحرة هم الحرس الأمني

الخاص للرئيس الذين تغلغلوا في القرى معا مع أطباء
السحر الذين جاءوا من جونه. مطاردة السحرة كانت انتقاما
من الرئيس لموت خالته. قال إنه عمل السحرة من البشر ولكن
الضحايا هم أناس نساء ورجال بدون معرفة بفن السحر.
عمك هرب إلى السنغال خوفا من عودة رجال الرئيس إلى
القرية». صوت الأم كان غير واضح غير مترابط كأنها أطبقت
فمها. لا يتحدث الناس عن هذا النوع من الأحداث بصوت عال
بل يسارعون لإخفائها كأشياء فظيعة لم يكن لها وجود.

في لحظة عادت نانا إلى جسدها الذي شعرت به مثل
قشرة رقيقة حول جوف فارغ. لم يكن التعرف عليها سهلا
ثانية بسبب العنف الذي تملكها. ونما القناع مع الوجه. رأت
مارياما تسقط إلى الخلف وتضرب حجر الحافة برأسها ولم
تع أنها قد قتلت روحها. لم تر غير عيني مارياما المستديرتين
الكبيرتين تنظر بعتب إليها والشففتين بلونهما الأحمر المسود
اللتين حاولتا أن تكونا بضع كلمات.

صوت الإسعاف، صوت الأبواب تنصفق، صوت صرير العجلات
الصغيرة، صوت الشرشف المنشأة والبطانيات الناعمة، صوت
قناع الأوكسجين، صوت ضربات القلب. «نحن نولد كي نموت».
نحن نلتقي لنفترق». «نحن نحصل على الأشياء كي نفقدها».
لم يكن لدى نانا صبر على انتظار المواصلات العامة
فاستقلت تاكسي لها رودز. كست نفسها من الداخل إلى
الخارج، من الملابس الداخلية الحريرية إلى معطف المنك
الأبيض. دفعت المبلغ بالبطاقة الائتمانية الذهبية ورجت

البائعة الأنيقة التي رفضت أن تخدمها في البدء أن تتخلص من خرقها القديمة. توجهت بعدها مباشرة إلى كازينو ريتز في بيكاديللي. كان المساء قد اقترب والغسق قد ذهب بقمة توتر الأعصاب. فتح الباب الزجاجي لها حاجب يرتدي بدلة ضيقة رمادية غامقة وانزلت هي هادئة عبره إلى البهو بفستانها الحريري عاجي اللون ومعطف المنك على كتفها. كان البهو بحر من الضوء ازدانت فيه جزر من إضمامات الزهور الأرجوانية. قصدت كازينو الفندق ودخلت عبر الصالة الأمامية الدائرية. خطت داخل الصالة الرئيسية للقمار. جلس ثلاثة محاسبين عند نضد التبديل والمراهنات يمسكون بالبنك من خلف زجاج ضد الرصاص. تشابههم كان لافتا للنظر في الزي (السموكنج الإيجاري) وشكلهم، حتى الأذن اليسرى الموتورة والسورة عند حدود الشعر التي جعلت منه من الأمام يأخذ ذات الاتجاه. طلبت نانا تصريف خمسين ألفا من فئة الخمسين والمائة من قطع الرهان وقد اشترت لها كيسا مطرزا من الحريري التايلاندي كي لا تخشخش القطع في حقيبتها.

ظلت واقفة فترة لتأخذ نظرة عامة بخصوص الصالة ذات السقف العالي بالخشب المحفور والجدران المغلفة بالجلد بكل درجات اللون الأحمر. لا نوافذ ولا ساعات. الوقت ساكن في جنة النقود. والإضاءة التي كان مصدر جزء منها الثريا الكريستالية في السقف وجزء من الشمعدانات التي كانت من الحجم ما يسع ويلائم صالة الاحتفالات في القصور قد خلقت أجواء حميمية كأنها كهف بالرغم من حجم صالة الكازينو المركزية

الفارهة. كان هناك خمس طاولات للبوكر، سبع للبلاك جاك وأربع طاولات للروليت. ستارة مشغولة من السقف إلى الأرض بشرائط حريرية ذهبية ملوية تنتهي بشراشب ضخمة، يمكن سحبها إلى الجوانب مثل ستارة مسرح. خلفها في الداخل كان هناك جناح جانبي بطاولات لعب إضافية إن ازداد الضغط على الطاولات في صالة القمار الرئيسية.

اختارت نانا طاولة الروليت القصوى وراحت لتنضم إلى مجموعة البشر خلف الحلقة الداخلية الذين جلسوا على الكراسي ذات المساند العالية. لاحظت إستراتيجية اللاعبين، مدى استعدادهم للمخاطرة أو حذرهم. كانت تبدأ على الدوام بالروليت وتتوجه بعدها إلى البلاك جاك عندما تكون بحاجة إلى أن ترتخي. شعرت بكعبها العالي يغطس عميقا في السجادة الفارسية. ملأها الهدوء متحدا بشعور غيبي بأنها إن فازت بمبلغ كبير اليوم في ريتز ستفوز بمارياما أيضا من جديد. طاقة اللعب مثل القمر ستسحب الماء، والموجة العالية ستقود مارياما إليها.

استغلت فتحة حول الطاولة وخطت داخل الحلقة الداخلية وجلست لصق المسؤل في نادي القمار عن الطاولة. لقد راهنت باثنين من خمسين من قطع الرهان على الرقم ٣ الذي كان رقم السعد والأقرب الذي يمكن عبره أن تكون مسيحية. كانت تؤمن بسحر الأرقام. لم تكن ملحدة، ربما وثنية عاشت السحر في العالم. كانت تشعر بمارياما قريبة جدا في هذه الصالة الرئيسية للقمار حيث لا يدخلها غير المعنيين. وقف

حول الروليت أناس مهندمون بعيون محملقة شهوانية تتبع هذه الكرة الحديدية فوق وتحت بالروليت. الصمت المطبق تبع استقرارها أخيرا على الرقم ٣ في الأحمر. سرت تنهيدة صامتة عبر الحلقة حول الطاولة. لم يحرك أحد ساكنا بوجهه، ولم يلحظ أحد نانا عندما دفع الموظف لها بصفوف قطع الرهان العالية إليها. شرعوا يراهنون على اللعب من جديد. وبعد أن أقفلوا على الرهان ضغط الموظف على زر خفي تحت حافة الطاولة وبدأ الروليت بالدوران.

شعرت نانا بالأدرينالين يئز داخل شرايينها وعلمت أن الحظ كان معها. كانت قد وصلت الحضيض فلن تخشى شيئا ولا حتى أن تموت فقيرة. راهنت على الأحمر وفازت لأربع مرات متتالية. ثم انقلب الحظ. وعلى الرغم من الخسارات التي كانت أكبر من المكاسب فإنها كانت على يقين بأنها ستفوز. كان لديها ما يشبه الثقة الطفولية بالروليت. كان هو منقذها الأوحـد ولذا فعليها أن تؤمن به. ولكن لن تساعدنا هذه الأدعية. قوانين المصادفات والإحصائيات كانت لا ترحم. حطت الكرة سبع مرات على الأحمر وفجأة انقلبت إلى الأسود. راهنت نانا بأكبر مبلغ مسموح به للرهان لثقتها بحظها الأحمر. قد سمعت أن ذلك يحدث؛ أن تسقط الكرة على اللون ذاته لـ ٢٠-٢٥ مرة متتالية. ولكن في هذا المساء انكسر المنحنى بعد سبع مرات من استقراره على الأحمر. لقد خسرت نانا خمسة آلاف باوند في أقل من ساعة وكان عليها أن تطلب تصريفا من الموظف ثانية.

ملأ الروليت كل وعيها وقمع قلقها بشأن وضعها المادي الذي لم يكن مضمونا مستقبلا مثلما كانت تراه وتعتبره هي وزملاؤها من المسلّات. وقد كان الأمر أمر إيمان مثل حظها مع الروليت. أشارت بطلب شراب كان قد وُضع لها على إحدى الطاولات المدورة التي وضعت في فضاء الصالة مثل حبات الفطر الأسود بمظلاته على ساق عالية من حديد. افتتحت نانا بمبلغ كبير مراهنة على الأسود. وظلت تراهن على الأسود. علت صفوف قطع الرهان أمامها. كان عليها أن تتوقف هنا تماما وتنسحب بهدوء لتشرب شرابها في طريقها للخروج وتصرّف الكيس المملوء لآخره بقطع الرهان إلى نقود. ولكنها كانت في عالم آخر تتحدى فيه القدر والإحصاء.

عندما انقلب الحظ راهنت بمبالغ أكبر وأكبر. كانت تريد استرجاع ما خسرت به بضرية واحدة. ولكي يفوز المرء عليه أن يراهن أكثر. لفّ رأسها ودار مع الكرة ورقص فوق وتحت مع دورة الأرقام ولم يتوقف ثانية إلا عندما حطت الكرة في سلتها المشبّكة. راهنت نانا على الصفر الذي يعطي خمسة وثلاثين رهانا.

الرجل الذي كان إلى جانبها وقد حسب جداول وكتب نسب الاحتمالات على ورقة دفتر صغير نظر إليها مستغريا وأجاب على قرارها الشاذ برفعه لحاجبيه. كان التحدث بصوت عال ممنوعا عند طاولات اللعب. حدث تدهور سريع بعدها. راهنت على الصفر ثلاث مرات، مرة إثر مرة مما جعل اللاعبين من حولها يهزون رؤوسهم. سحب الموظف صفوف القطع من فئة

الخمسين والمائة باوند إليه بصوت طشطشة مزعج. انسحبت لتلحس جرحها بالمشروب الذي فتر طعمه للانتظار الطويل. شربته بجرعة واحدة وعادت إلى طاولة اللعب. لم يكن لديها وقت للانتظار فحشرت نفسها بينهم في الحلقة الداخلية. شعرت باللعبة وهي تحفز دماغها في الحال وتخلق صفاء. غيّرت نانا طاولتها مرتين خلال سباق المساء والليل ولكن ذلك لم ينفع. لم تضع في اعتبارها تقلبات اللعب فأفلست تماما. بتقدم الليل ترنحت وهي تعبر نضد التحويل الذي اضطرت عنده قبل ساعات لإفراغ أحد حسابات الاحتياط لديها لتتمكن من مواصلة اللعب على الروليت. المصرفيون الثلاثة حيّوها بحركة متحفظة متزامنة دقيقة. خرجت إلى بهو الفندق لتسأل عند الاستقبال عما إذا كان لديهم غرفة شاغرة. احتاجت إلى راحة وتأمل في محيط مريح وهدوء مطلق لوضع استراتيجية للغد. أرسلت بطلب قنينة شراب إلى غرفتها. انتهت تلك الحياة المتواضعة التي اتبعتها حتى الآن في لندن.

المترجمة لي سطور

أ.دنى خالي

- روائية وشاعرة ومترجمة.
- من مواليد البصرة - العراق.
- تخرجت في جامعة البصرة - كلية الزراعة.
- عضوة في اتحاد الكتاب الدنماركيين ورابطة المترجمين الدنماركيين.
- صدر لها العديد من المؤلفات آخرها: «السأم يتلون»، مجموعة قصصية ٢٠٠٩.
- لها عدة مؤلفات مترجمة آخرها: «بونساى» للكاتبة كيرستن توروب، وهي قيد الطبع، و«إنه الخوف في الأعماق يلقي بظلال الأبجدية على الورق»، مختارات شعرية للشاعر بيتر لاوغسن ٢٠١٠.
- صدرت لها عدة مؤلفات بالدنماركية منها: «Fn have med du ft afmand»، مجموعة نصوص شعرية نثرية ٢٠٠٧.
- لها عدة مؤلفات قيد الإنجاز، إحداها «بطنها الماوى» رواية شعرية.

المراجعة في سطور

أ. عواطف جون ضاحي

- تعمل منذ ١٣ سنة بمرتبة أستاذ مشارك في جامعة كوينهاغن في مجال تدريس اللغة العربية وتطوير مناهجها في جميع المستويات.
- قامت بتطوير المناهج التالية: منهج لتعلم اللغة العربية لغة وقواعد - منهج دليل، إلى اللهجة السورية - منهج للترجمة من الدنماركية إلى العربية.
- لها عدة ترجمات من العربية إلى الدنماركية، منها:
نجيب محفوظ، «خان الخليلي» - منعم الفقير، رؤية إلى الماء «ديوان شعر» - صفاء يوم جديد «أنطولوجيا أدب الربيع العربي» - واسيني الأعرج، البيت الأندلسي، - إضافة إلى ترجمات في مجال الشعر والقصة.
- كما لها ترجمات من الدنماركية، مثل:
«كرستينا ستولتز، القرفة (شعر)» - كارولينا مينور - الآن أتكلم عن الميناء «شعر» - يوسفينا كلوغارت، الجبال لا تبالي «شعر».

إله الصدفة

نقدم في هذا العدد للقارئ رواية
«إله الصدفة» للكاتبة الروائية الدنماركية
كيرستن توروب.

لقد اختارت الكاتبة في هذه الرواية ثيمة
مختلفة تماما عن رواياتها السابقة. حيث
تناولت فكرة نحن والآخر. وذلك بعد زيارة لها
إلى غامبيا قبل بضع سنوات ولقائها بطفلة
هناك.

ومن الملاحظ أنها تنقلت في روايتها بين ثلاث
بيئات مختلفة من العاصمة الدنماركية
كوبنهاجن، إلى منتجعات غامبيا - وهي إحدى
دول الغرب الأفريقية - المطلة على الأطلنطي،
ومنها إلى العاصمة البريطانية لندن.
توغلت كيرستن في روايتها في الجانب
النفسي والاجتماعي والسياسي والديني
لبطلتها. والفوارق بين الغنى والفقر،
والسلطة والضعف، والمادي والروحي، والأبيض
والأسود.